أبوبكر القادري
عضو أكاديمية المملكة المغربية



رحلاتي الحجازية

ارتسامات وذكريات عن ثلاث رحلات إلى الديار المقدسة

1995

الطبعة الأولى 1416 ـــ 1995

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة أولى

بين يدي القارئ الكريم ثلاث رحلات إلى الديار المقدسة حررها كاتبها في أوقات مختلفة، أولاها تحدث فيها عن رحلته الأولى إلى مكة والمدينة سنة 1957 وهي وان كانت مختصرة لأن المؤلف كتبها من ذاكرته تقريباً بعدما مضى عليها نحو من أربعين سنة، ولكنها تعطي فكرة عن المجتمع الاسلامي في ذلك الظرف، وعن الاتصالات التي قام بها المؤلف مع شخصيات عربية لها مكانتها في عالم الثقافة والسياسة والأدب الخ.

أما الثانية فيتحدث فيها المؤلف عن الرحلة التي قام بها مع سمو ولي العهد المحبوب الأمير سيدي محمد إلى المملكة العربية السعودية، وعن ارتساماته عما شاهده في المملكة السعودية من تقدم في ميادين الثقافة والعمران والنمو الاقتصادي. أما الثالثة وهي الأخيرة ففيها تطالع زيادة على مناسك الحج والعمرة، فوائد تاريخية، وملاحظات ودروس توجيهية وتعريف ببعض المآثر في المدينة المنورة وغيرها.

الناشر

رحلتي الأولى
إلى الديار المقدسة

تقديم

منذ يفاعتي وأنا أتمنى أن تهيئ لي الأقدار زيارة البقاع المقدسة، لأداء فريضة الحج، التي هي ركن من أركان الإسلام الخمسة، ولزيارة قبر الرسول ﷺ، والاستمتاع الروحي بالمسجدين العظيمين اللذين هما والمسجد الأقصى، تشد إليهم الرحال. وكم كان شوقي يتزايد، ورغبتي تتضاعف، عندما أجالس وأنا في مطلع شبابي، الذاكرين والقانتين، والمادحين لرسول رب العالمين، فاستمع إلى قصائد ومقاطع شعرية، في التغني بالحضرة الالهية، والتنغم بالأمداح النبوية، وتعداد أخلاق الرسول وصفاته، والشوق إلى زيارته، والتنعم بالقرب من ضريحه الشريف، والتعبد في الروضة الشريفة التي قال عنها الرسول عليه السلام : (ما بين بيتي ومنبري، روضة من رياض الجنة)، والتطلع إلى مكة المكرمة، للطواف بأول بيت وضع للناس في هذه الأرض، والذي وضع قواعده خليل الرحمان، أبونا إبراهيم عليه السلام، بمعونة جدنا اسماعيل، اللذين كانا يقولان وهما يبنيان : «ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك، وأرنا مناسكنا، وتب علينا، إنك أنت التواب الرحيم» فأشعر شعورا دفينا في نفسي، وأزيد تأكيدا بأني من ذرية إبراهيم، وأني والحمد لله من الأمة المسلمة التي تؤمن بإبراهيم، وإسماعيل، ومن أتى بعدهما وقبلهما من الأنبياء والمرسلين، وآخرهم وخاتمهم محمد بن عبد الله ﷺ، ومن أتى بعدهم من الصادقين إلى يوم الدين، ثم اتمثل المسعى بين الصفا والمروة والوقوف بالملتزم، أمام الكعبة المشرفة، وما بين بابها والحجر الأسود، تأسيا برسول رب العالمين الذي قال : (هنا تسكب العبرات). وأتمنى لو كنت مع المومنين الطائفين والساعين الواقفين نفس الموقف بالملتزم، رافعا أكفي إلى السماء، متعلقا بأستار الكعبة، وأنا أدعو ربي بقلب سليم، أن يتجاوز عن سيآتي، ويمحو عثراتي، ويوفقني في حياتي، ويجعلني مع الصادقين الذين هم في صلاتهم خاشعون، والذين هم عن اللغو معرضون،



جلالة الملك المغفور له محمد الخامس نوّر الله ضريحه متوجه إلى القبلة

وأجول بخاطري فأرى نفسي مع الحجاج القاصدين لمنى، والواقفين بعرفات، والمشاهدين لذلك المشهد العظيم، الذي تجرد فيه الجميع من كل ما يحيط به من زخارف الحياة الخادعة، وأقبلوا على ربهم بأصوات مختلفة، وألسنة متعددة، مبتغين شيئا واحدا، أن يتقبل الله منهم دعواتهم، حتى يرجعوا إلى أوطانهم طاهرين، كيوم ولدتهم أمهاتهم، إلى غير ذلك من التصورات والتخيلات والطموحات التي كانت تراودني، للوصول إلى تلك الأماكن المقدسة. وكم كان قلبي يخشع، وعيني تدمع، وأنا أستمع إلى منشد ذي صوت حنون، يتغنى بتلك المشاهد، ويرفع صوته بترداد أبيات شعرية، لا أخفى أنها كانت تهزني هزا، وترفعني من حضيض هذه الأرض، إلى ملإ أعلى، وأرواح أرقى وأسمى. ولم تشأ الأقدار، ولم يكن لدي في الواقع من الامكانيات، ولم تفارقني المشاغل التي كنت منهمكا فيها بكلي وكليتي، أن أحقق ما كنت أطمح إليه، وإن كانت رغبتي تضاعفت، حتى أنني عندما سمعت بأن أحد أصدقائي الحميمين المؤمنين، هو أخي في الله، المرحوم العلامة سيدي محمد المختار السوسي، ذاهب على رأس وفد من الحجاج، إلى البقاع المقدسة، كتبت رسالة خطية حَمَّلْتُه إياها، نسيت ألفاظها الآن، وإن كنت متذكرا موضوعها ومقاصدها. كانت هذه الرسالة عندما دفعتها لأخي المختار مقفلة، وطلبت منه أن لا يفتحها ويقرأها، الا وهو أمام قبر الرسول الأمين، سيدنا محمد ﷺ، ويغلب على ظني، بل أنا واثق إن شاء الله كل الوثوق، ان فحوى الرسالة لا يتعلق بشيء من متاع من متع الحياة الدنيا، وإنما يتعلق (وأستغفر ربي إن أخطأت) بالتعبير عن سلامي وتعلقي المكين برسول رب العالمين، وإيماني به، وبما أتى به من عند ربه، والصلاة والسلام عليه ولو من بعيد، وأملي في ربي أن يهيء لي الأسباب لزيارته في قبره والسلام عليه والصلاة في مسجده، التي تعدل الصلاة في غيره من المساجد بألف صلاة إلا المسجد الحرام كما ورد في الحديث الصحيح.

ولم تمر إلا سنة على تحرير بلادي واستقلالها من قبضة الاستعمار، حتى دعيت من طرف جلالة الملك الصالح المصلح سيدي محمد الخامس، لأكون من جملة أفراد ستة، كأول وفد خاص في عهد الاستقلال، يمثله في موسم الحج سنة 1957. قابلني جلالة الملك رحمه الله أولا بقصره بالرباط، وبعد



محمد الخامس في القصر الملكي بمراكش في يونيو 1957 يحادِث المؤلف بمناسبة استقباله للوفد المغربي الرسمي الأول للحج بعد استقلال المغرب ويظهر المرحوم عبد الله كنون وأبو بكر القادري والمرحوم الحاج محمد بنونة وكلهم من أعضاء الوفد.

السلام عليه والتعبير عما يستحقه من اجلال وإكرام، صار يسألني كعادته معي رحمه الله عن بعض القضايا والمسائل ذات المصالح العامة، ثم توجه إلي بالسؤال التالي : هل لك رغبة في أداء فريضة الحج هذه السنة ؟ فتعلثم لساني من كثرة الفرح بهذه الالتفاتة الملكية الكريمة، وأجبته طبعا بالايجاب، معبرا عن سعادتي وفرحتي بالتفاتته لأحد خدامه الأوفياء، ثم خبرني بأني سأصاحب رفقاء طيبين، وعلماء صالحين في رحلتي، علمت بعد ذلك أنهم الأصدقاء المرحومون : عبد الله كنون وإبراهيم الكتاني و ج. محمد (فتحا) بنونة، بالإضافة إلى الأخ الأستاذ محمد المنوني والأستاذ الشنكيطي.

ولقد استأذنته رحمه الله بأني بعد أداء فريضة الحج، أود أن أقوم بزيارة بعض الأقطار العربية : كلبنان وسوريا ومصر والعراق، فأعطى تعاليمه ليحقق لي ما طلبته. واغتنم هذه الفرصة أخي وصديقي المرحوم الأستاذ محمد الفاسي، وكان وزيرا للتعليم إذ ذاك، فعهد إلي بالاتصال بالمسؤولين في هذه الأقطار العربية، وخصوصا مع وزراء التعليم فيها، لجلب ما كان المغرب محتاجا إليه من أساتذة، في مختلف المواد العلمية وغيرها، لِمَلْءِ الفراغ الذي كنا نحس به، ونحن في غمرة تأسيس المدارس الثانوية والكليات في مختلف الجهات والأقاليم، ومكنني من توصية أتقدم بها للمسؤولين في البلاد العربية جاء فيها بالحرف :

«الحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

يتشرف وزير التربية الوطنية والشبيبة والرياضة بحكومة صاحب الجلالة محمد الخامس بالمغرب، بتقديم الأستاذ أبي بكر القادري بصفته مديرا لمجموعة مدارس بسلا، عضوا في اللجنة التنفيذية لحزب الاستقلال، عضوا في المجلس الوطني الاستشاري، عضوا في لجنة الشؤون الثقافية والاجتماعية، عضوا في اللجنة الملكية لاصلاح التعليم بالمغرب، عضوا في اللجنة الوطنية لمنظمة اليونيسكو، فيوصى عليه السلطات المحلية، بالشرق العربي الشقيق، والهيآت الثقافية التي سيتصل بها، راجيا من عطفهم الأخوي أن يسهلوا له وسائل تأدية المأمورية المكلف بها من طرف وزارة التربية الوطنية، حتى يدرس إمكانيات توظيف مدرسين للتعليم الابتدائي، وأساتذة للتعليم الثانوي والعالي بالمغرب،



العلامة المجاهد السيد المختار السوسي واقفاً ومعه كاتب الرحلة أبو بكر القادري. وقد أخذت هذه الصورة بمطار (سلا) ساعة انتظار وصول الطائرة التي أقلت محمد الخامس من باريس إلى الرباط بعد رجوعه من منفاه، يوم 16 نوفمبر عام 1955م.

ولهم منا سلفا جزيل الشكر على كل ما يمدونه له من مساعدة في المهمة المسندة إليه والسلام».

وحرر بالرباط بتاريخ 21 ذي القعدة عام 1376 هـ/20 يونيو سنة 1957

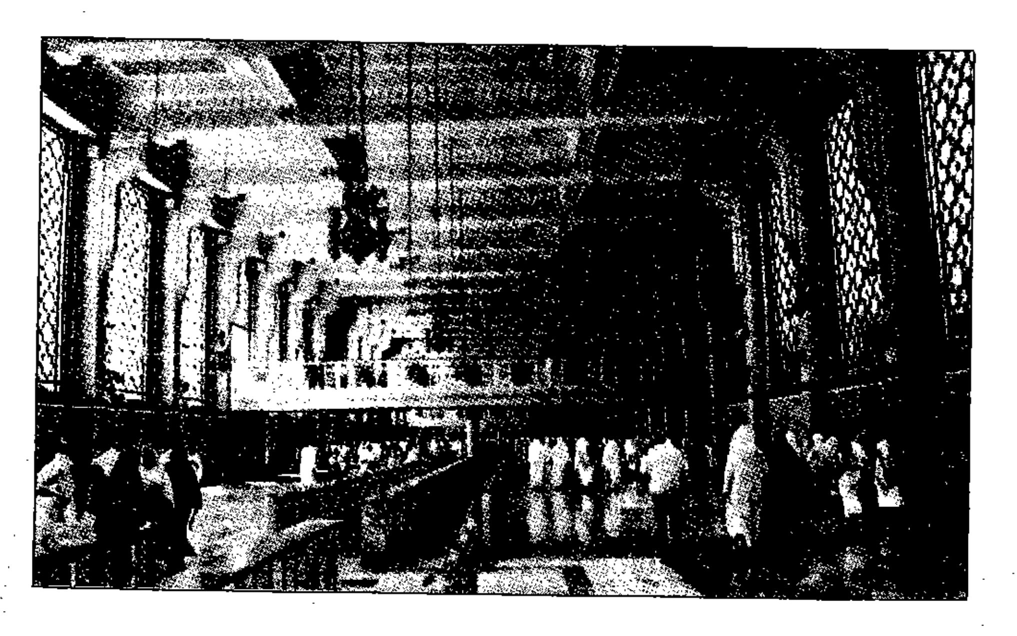
الامضـــاء :

محمد الفاسي

كما أن وزير الشؤون الخارجية المرحوم الأخ الحاج أحمد بلافريج، عهد إلي أن أغتنم فرصة وجودي بالديار المصرية، فأمثل الوزارة في الاحتفال الذي كان سيقيمه المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، للاحتفال بالذكرى المأوية لِولادة الشاعر الكبير، حافظ إبراهيم ابتداء من 25 يوليه 1957 إلى 29 منه، والذي عقد بأحد الفنادق الكبرى بالاسكندرية في التاريخ المذكور.

وهكذا أخذت العدة الكاملة، للسفر صحبة الرفقاء المذكورين، وآقام لي إخواني حفلة كبرى بهذه المناسبة، بمدرسة النهضة، شارك فيها جمهور غفير من الأصدقاء والأحباب والمناضلين الوطنيين، كان في طليعتهم أفراد من الحكومة الوطنية، وقادة الحزب، والعلماء، ومختلف المنظمات : شبابية، وعمالية، وطلابية، وصناعية، وحضرها أعضاء الوفد الذين رافقوني في سفري فألقيت فيها كلمة ضافية، في موضوع الحج والتعارف مع إخواني المسلمين الواردين من مختلف الأنحاء من العالم وربط العلاقات مع الدول العربية والإسلامية الخ. كانت تقاطع بالتصفيق والهتاف، وكان الجوق الأندلسي برئاسة الفنان المرحوم السيد محمد البارودي يشنف الاسماع بنغماته، وموشحاته الرائعة، وأصوات الشباب الوطني مرتفعة تتغنى بالأناشيد الوطنية والاسلامية، معبرة عن فرحتها وتعلقها برسولها الأمين عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وتمسكها بأركان دينها الحنيف.

لقد كانت ليلة من أعظم الليالي الأنسية، التي شهدتها مدينة «سلا»، وعند انطلاق سيارتنا من المدرسة إلى المطار كانت الطرقات غاصة بالجماهير المودعة، والتي أتت من مختلف الجهات لتودعنا في المطار، ولدى امتطائنا الطائرة، انطلقت بالتكبير، والتحميد، والهيللة، والدعاء، بأن يكون حجنا مبرورا، وسعينا مشكورا.



الدور الأرضي للمسعى ويدو فيه أحد الجسور الحديثه

إلى جدة

وانطلقت الطائرة محلقة في الأجواء ليلة 26 جوان 1957، قاصدة مدينة «جدة»، مارة في طريقها عبر مدينة «بنغازي» بطرابلس الغرب حيث قضينا أنا والإخوة السادة : عبد الله كنون وإبراهيم الكتاني وحَمحمد بنونة ومحمد المنوني والأستاذ الشنگيطي الذين كنا أول وفد رسمي للحج في عهد الاستقلال بمطارها ساعتين كاملتين، استقبلنا خلالهما سفير المغرب بليبيا، وأعضاء السفارة، ثم انطلقت الطائرة قاصدة (جدة) حيث وجدنا أخانا السفير الفقيه المرحوم السيد محمد غازي واقفا بالمطار، ينتظرنا صحبة معاونيه في سفارتنا بجدة. وبعد السلام عليهم وتحيتهم، قصدنا أولا أحد الفنادق الذي كان يسمى بفندق (قريش) ولكنه لم يكن من المستوى اللائق، فاقترح علينا أخونا السفير أن ننزل في بيته، ضيوفا عنده، في انتظار أن نتهيأ للسفر إلى المدينة المنورة على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم.

لم نتمكن من التجول بمدينة «جدة» نظرا لشدة الحرارة، حيث كنا نقضي اليوم كله بالبيت، ولكنا بالرغم عن ذلك استطعنا أن نتعرف على جزء من هذه المدينة، التي وان كانت إذ ذاك لازال العمران فيها ضعيفا بالنسبة لما هي عليه الآن، فإنها بدأت تدخل عليها بعض التطورات العمرانية، وتشيد فيها البنايات بكيفية تلفت الأنظار، لدرجة أن الذين زاروها في السنة الماضية (1956)، لاحظوا أنها تسير في طريق التعمير والتقدم، بكيفية تدعو إلى الارتياح، ولقد اغتنمنا فرصة وجودنا (بجدة)، فقمنا ببعض الاتصالات مع بعض الشخصيات العلمية، كان في طليعتها إذ ذاك الشيخ نصيف رحمه الله، الذي كان بيته مفتوحا للزوار من مختلف الأقطار الاسلامية، ومكتبته مهيأة لتزويد زواره بكثير من الكتب، التي كان لا يبخل بها على أحد من العلماء والمثقفين. والشيخ «نصيف» هذا كانت له ارتباطات واتصالات، مع عدد من الشخصيات الاسلامية في كثير من الأقطار، وكان يعتبر بيته في جدة، نادياً علميا يلتقي فيه العلماء والأدباء الواردون على الديار المقدسة للسلام على صاحب المنزل، والتعارف مع بعضهم بعضا. وبعد قضاء أيام معدودات، بجدة، عزمنا على السفر إلى المدينة المنورة عن طريق الجو.

إلى المدينة المنورة

وهكذا في الوقت المحدد كنا بمطار «جدة» حيث أخذتنا طائرة سعودية إلى مطار المدينة المنورة، وما أن لاحت لنا قباب المدينة، والقبة الخضراء على الخصوص، حتى ارتفعت ألسنتنا بالتكبير والصلاة والسلام على البشير النذير.

في مطار المدينة المنورة

وحطت الطائرة في مطار المدينة وهو مطار صغير جدا، وبعد أخذنا حقائبنا، امتطينا سيارات صغيرة، أخذتنا إلى قلب المدينة المنورة، لقد فوجئت والحق يقال، عندما نزلنا من السيارة في مكان رحب متسع، وكأنه سوق من أسواق البادية، لم ألاحظ فيه تلك الساعة، إلا كراسي من خشب، موضوعة على جوانب شبه اسرّة، مخدومة من دوم أو ما يشبه الدوم عندنا في المغرب، والناس جالسون فوق تلك الأسرة يشربون الشاي الأسود، ويدخنون ما يسمونه (بالنارجيله) ولا شيء غير ذلك، وأخذنا مستقبلونا إلى منزل لمغربي يسمى بالحاج بوعزة، حيث أصبح مكان إقامتنا، وهو منزل صغير جدا، يشتمل على بيتين صغيرين أو ثلاثة، ومفروش على الطريقة المغربية، مخداته أو وسائده صلبة كالحجر، لا يكاد النائم يجد راحة في وضع خده عليها، البيت بسيط للغاية، ولكنه نظيف، ولا يوجد فيه ماء، لأن الماء لم يكن إذ ذاك يصل إلى البيوت إلا عن طريق القرب التي يأتي بها (القرابون) فليست هناك أنابيب للماء، وإنما يوضع في الخوابي، أو ما شاكلها سواء منه الصالح للشرب، أو الصالح للاستعمال والوضوء والتنظيف، لم نكن نفكر ساعتئذ في الفندق ذي الخمس نجوم، أو حتى في ذي النجمتين، فليست هناك فنادق اللهم إلا واحد أو اثنان صغيران، ربما كان البيت الذي سكنا فيه أكثر راحة منهما. والطرق التي تؤدي إلى البيت ضيقة ملتوية بعض التواء، وعندما نخرج من البيت قاصدين المسجد النبوي، لابد أن تعترض طريقنا وحدات من المعز، والمهم أن الحياة في المدينة في منتهى البساطة إذ ذاك، والعمران لازال قليلا، باستثناء المتاجر المحيطة بالمسجد أو القريبة منه، فإنها على بساطتهما مملوءة بالألبسة والثياب والمجوهرات والأساور الذهبية ومختلف الضروريات، التي يتطلبها الزائرون.



أول وفد مغربي رسمي للحج عام 1957م بعد الاستقلال، ويضم الأساتذة المرحومين : عبد الله كنون، الحاج امحمد بنونة، محمد إبراهيم الكتاني. كما يضم الأستاذ الشنقيطي والأستاذ محمد المنوني، والمؤلف.

في المسجد النبوي

بعد أخذنا قسطا من الراحة في بيت الحاج بوعزة، تهيأنا للذهاب إلى المسجد النبوي للصلاة فيه والسلام على الرسول الأمين، وزيارة قبره عليه السلام وقبر صاحبيه رضي الله عنهما. لقد اغتسلت وتطيبت ولبست الجديد من ثيابي، وقصدت مع أصحابي المسجد النبوي، وأنا في منتهى ما تتطلبه الزيارة من أدب وحضور قلب وخشوع، ودخلنا من باب السلام وبعد تحية المسجد، تقدمنا في خشوع للسلام على أشرف المرسلين عليه السلام، وصاحبيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما. لقد كانت تلك الساعة التي وقفت فيها أمام قبره صلى الله عليه وسلم ساعة العمر، وأقول ساعة العمر دون مبالغة أو تزيُّد، فلقد مضت عليَّ أعوام، وأنا أنتظر هذه الساعة التي أقف فيها أمام قبره عليه السلام، لأسلم عليه، وأناجيه بلساني وجناني وعقلي وجميع جوارحي، أليس هو أعز وأحب شخص إليّ ؟ أليس هو الرسول الذي هداني إلى الحق وإلى الصراط المستقيم ؟ أليس هو الرسول الذي بعثه الله ليهدي الناس من الظلمات إلى النور ؟ أليس هو الرسول الذي جعله الله خاتم الأنبياء والمرسلين ؟ وبعثه بشيرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ؟ ان الوقوف أمام قبره عليه السلام. يَبعث في النفس روحا جديدة سامية، وتكسو الزائر هيبة وجلالا، لقد استحضرت وأنا واقف أناجيه وأسلم عليه، قول الرب العظيم في كتابه الكريم : (ولو انهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما) فاستغفرت واستغفرت، ورجوت أن يتقبل الله استغفاري ويستغفر لي رسول رب العالمين، وأن يمُنَّ الله عليَّ بالتوبة النصوح، حتى ألقاه وهو عني راضٍ، وتوالت زيارتي للمسجد النبي لأداء الصلوات الخمس، والتعبد بالتلاوة فيما بين بيته ومنبره، الذي هو روضة من رياض الجنة، كما أخبر بذلك سيدنا رسول الله ﷺ، وفي اليوم التالي قمت بعد أداء صلاة الصبح بالمسجد، وإسفار الصباح ـــ بزيارة للبقيع الشريف، والبقيع عبارة عن الروضة التي جمعت تربتها أجداث الصحابة الكرام، وجمهورا غفيرا من التابعين، وتابع التابعين، وعلماء المسلمين، وأبطال الاسلام الأولين، ما لا يمكنني أن أعده أو أسجله في هذه الورقات، فلقد وقفت على قبور بعض أزواج النبي عليه السلام وابنه إبراهيم، وبناته



المؤلف مع بناته الأربع : كريمة، سعاد، أسماء، سلمى،
بعد رجوعه من رحلة الحج الأولى عام 1957

كفاطمة الزهراء، وسيدنا الحسن ابنها، وعم النبي (العباس)، وعثمان بن عفان، وعثمان بن مظعون، والامام مالك بن أنس إمام دار الهجرة، ولقد استمطرت لهم من الله الرحمات، ورجوته سبحانه أن يكافئهم ويجازيهم على ما قدموه من الصالحات.

في مسجد قباء

ثم زرت مسجد قباء الذي تحدث عنه القرآن الكريم بأنه أول مسجد أسس على التقوى وقال في حقه عليه السلام : من تطهر في بيته، ثم أتى إلى مسجد قباء فصلى فيه صلاة، كان له كأجر عمرة، أو كما قال عليه السلام، ثم زرت جبل (أحد) الذي قال عنه الرسول ﷺ «جبل يحبنا ونحبه، وفي أسفله يوجد قبر سيدنا حمزة رضي الله عنه، وغير ذلك من المزارات، كمسجد القبلتين.

وجدنا المدينة تضج بوفود الحجاج والزائرين الذين أتوا من كل فج عميق، وكلهم يلهج بذكر الرسول عليه السلام والصلاة والسلام عليه، والسرور بما يسر الله لهم من زيارته.

لقد كانت أياما سعيدة قضيناها بالمدينة المنورة، رغم الحرارة الشديدة التي ارتفعت درجتها أحيانا إلى أزيد من 45 درجة، وكنا لا نستطيع في بعض الأوقات النهارية، أن نفارق المنزل الذي سكنا فيه لاشتداد وطأتها، لقد كنا لدى اشتداد وطأة الحرارة وسط النهار، نشتري قطعا من الثلج، ونجعله في طاقية جلدية من «الكاوتشو» (المطاط) ونضعه فوق رؤوسنا، وكانت أجسامنا تتقاطر عرقا إذا ما خرجنا من المنزل، لأداء الصلاة في المسجد النبوي، ولا نفتر في الوقت نفسه من الاكثار من المشروبات المثلجة، لاطفاء شدة العطش.

لم يكن إذ ذاك بالمنازل ولا غيرها مكيفات للهواء، مثل ما عليه الحال اليوم، ولا تكاد توجد أمكنة باردة أو يصلها هواء بارد، وأذكر أن أحد الاخوة المدنيين، استدعانا لقضاء ساعة مسائية عنده في بيته، وكم كنا سعداء عندما وجدنا بذلك البيت صهريجا صغيرا مملوء ماء من بئر قريبة منه.

مسجد قباء بالمدينة المنورة

مَنْ تَطَهَّرَ فِي بَيْتِهِ ثُمَّ أَتَى مَسْجِدَ قُبَاءٍ فَصَلَّى فِيهِ صَلَوٰةً كَانَ لَهُ كَأَجْرِ عُمْرَةٍ

أمير ممن المدينة المنورة

صورة مسجد قباء قبل تجديده

إلى مكة المكرمة

بعد قضاء المدة المعينة للمقام بالمدينة المنورة، ودعنا مقام الرسول الأمين عليه السلام، وقصدنا المطار المدني، للسفر إلى جدة، لقد كان وقت السفر محددا، ولكن الطائرة التي كانت ستقلنا، وصلت من الشام مملوءة بالمسافرين، فلم نجد مكانا فيها، وبقينا ليلتنا كلها تقريبا ونحن جالسون في العراء، ننتظر طائرة نجد بها أمكنة، ولقد غلبنا النوم، نظرا لكثرة التعب واشتداد الحرارة، فاتفقنا أن ننام بالتناوب، حتى يبقى أحدنا حارسا لأمتعتنا وحقائبنا من التلف أو الضياع أو السرقة. وأخيرا حطت طائرة بالمطار، فامتطيناها، ولما حلقت فوق آبار علي (ذي الحُليفة) أحرمنا بعمرة، قاصدين مكة المكرمة عن طريق جدة، وما أن وصلنا «جدة» حتى اكترينا سيارة أخذتنا إلى مكة، حيث قمنا بشعيرة الطواف والسعي والصلاة بمقام إبراهيم الخليل عليه السلام، والشرب من ماء زمزم الذي يعتبر كما قال رسول الله ﷺ لما شرب له، (وإنما الأعمال بالنيات)، كان يوم وصولنا إلى مكة المكرمة هو ثاني ذي الحجة عام 1376، فلم نمكث إلا يوما إثْرَ تحللنا من احرامنا، ورجعنا إلى جدة، ثم رجعنا إلى مكة، حيث كنا مستدعين لتناول طعام العشاء على المائدة الملكية، بالقصر الملكي بمكة المكرمة، بعد صلاة المغرب من يوم الخميس، سادس ذي الحجة عامه، ثم رجعنا إلى جدة في الثامن من الشهر، حيث أحرمنا بالحج قاصدين «منى» وفي منى حططنا الرحال ببيت اكتراه لنا أحد الموظفين بسفارتنا بثمن فاحش جدا، لكنا بالرغم عن ذلك كنا سعداء، حيث استطعنا الحصول عليه، بينما لم يجد غيرنا أي منزل صالح في الجملة، وهذا البيت الذي اكتريناه، عبارة عن غرفة علوية واحدة متسعة، بها فرش في منتهى البساطة، وباب البيت عندما تدخله، تشعر كأنك داخل إلى رواق من الأروقة، أو فندق من الفنادق القديمة، فمدخله لا يغري، وأرضه غير مبلطة ولا مستوية، والدرج التي يصعد عليها إلى الغرفة التي سنسكن فيها، قديمة تشكو إلى خالقها من الحفر التي فيها، وبالرغم من ذلك كنا في منتهى السعادة والارتياح والنشاط.

قضينا ليلتنا في تلك الغرفة، وفي اليوم التاسع من ذي الحجة، اتجهنا إلى

عرفات، و(الحج عرفات) فنزلنا «بخزانة» متسعة كبيرة، اتقينا داخلها حرارة الشمس، وكنا مهيئين روحيا لوقفة العشى، التي تتجه فيها الأجسام والقلوب والأرواح لرب العالمين، كان معنا في هذه الخزانة أخونا السفير المرحوم السيد محمد غازي، والسفير المرحوم السيد الحاج الفاطمي بنسليمان وغيرهما من الاخوة الذين غابت عني أسماؤهم، وما أن بدأت علامات العشى تلقى بظلالها، ثم اصفرارها، حتى كنا واقفين وقفة الخشوع والدعاء والابتهال والتضرع، سائلين من ربنا غفران الذنوب، وقبول هذه الحجة، لقد كنا فرادى وجماعات، أحيانا يدعو أحدنا ونحن نؤمن، وأحيانا نتوجه إلى ربنا منفردين، خاشعين، متبتلين، وهكذا بقينا حتى غربت الشمس، حيث نفرنا إلى المزدلفة، وفي المأزمين، أدينا صلاة المغرب والعشاء مجتمعين، وقضينا جزءا من ليلتنا هناك، وأخذنا حجرات الرجم، ومررنا بالمشعر الحرام، ونحن لازلنا على احرامنا، مسرعين في بطن وادي النار، قاصدين «منى» من جديد، ثم اتجهنا إلى العقبة الأولى حيث قمنا بعملية الرجم المطلوبة منا وأنبنا من يقوم بعملية ذبح الهدي المفروض علينا، حيث كنا متمتعين (فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى) ثم قصدنا المسجد الحرام، حيث أفضنا من حيث أفاض الناس، أي أدينا طواف الافاضة الذي به كمل حجنا، راجين من الله القبول. مستغفرين لربنا، قائلين : (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) وبعد تحللنا من حجنا، وذكرنا لربنا في الأيام المعدودات، عجلنا السفر إلى مكة المكرمة، حيث صرنا نتنعم آناء الليل، وأطراف النهار، بأداء صلواتنا بالمسجد الحرام، الذي تعدل الصلاة فيه مائة ألف صلاة. لقد كنا نازلين بمكة بمنزل علوي قريب من البيت الحرام، وكان مخصصا من قِبَل ما كان يطلق عليه إذ ذاك : (جمعية الحرمين الشريفين) التي كان يترأسها قدور بن غبريط الجزائري، وكان مخصصا للوفود الرسمية التي ترد من المغرب والجزائر وتونس، ولم تكن شروط الراحة متوفرة فيه، ولكنا مع ذلك كنا مرتاحين رغم اشتداد الحرارة، وفقدان وسائل التبريد. وبعد قضاء أيام قليلة بمكة المكرمة، قمنا بطواف الوداع، وقصدنا مدينة جدة، حيث وجدنا أمكنة لنا ببعض الفنادق التي تعتبر أحسن حالا من فندق «قريش» الذي كنا سننزل فيه لدى وصولنا لأول مرة، وفي يوم الاثنين 15 يوليوز 1957 قصدنا مطار جدة فامتطينا طائرة أقلتنا إلى بيروت.

جولتي الأولى
في الأقطار العربية

في بيروت

وصلنا بيروت بعد قضاء ما يقرب من خمس ساعات ونحن محلقون في الجو، وعند وصولنا بقيت الطائرة جاثمة في مطار بيروت مدة، صعد خلالها طبيب، وبعض الممرضين، ليطلبوا من مختلف الركاب، استعمال «ترموميتر» (ميزان الحرارة) لقياس الحرارة، ولقد فوجئنا باستدعاء أخينا المرحوم سيدي إبراهيم الكتاني من بيننا، لأن الحرارة كانت مرتفعة عنده بعض الشيء، فخشوا من عدوى تلك الحرارة، وأخذوه إلى مصحة خاصة، حيث مكث فيها ليلة كاملة، ولم يأذنوا له بالخروج منها، حتى تأكدوا من سلامته من أي مرض معد. لقد استرحنا كثيرا في بيروت، فالطقس يختلف كليا عن الطقس في جدة أو مكة، وكم استمتعت برطوبة الطقس، وأنا واقف أطل من أحد نوافذ الفندق الذي نزلت فيه على شاطئ البحر، ولعل الفندق كان يدعى بفندق «نورماندي» وكان يقع في شارع فرنسا.

مكثت ببيروت بضعة أيام، اتصلت خلالها ببعض الشخصيات المسؤولة، ومن جملتها الوزير السيد شارل مالك، الذي تحادثت معه في موضوع إعارتنا بعثة تعليمية، طبق ما كلفني به أخي المرحوم السيد محمد الفاسي وزير التربية الوطنية، ولقد نجحت في مهمتي والحمد لله، حيث لم أفارق بيروت، حتى وقع الاتفاق مبدئيا على إعارتنا ما نحن في حاجة إليه من المعلمين والأساتذة، سواء في التعليم الابتدائي أو الثانوي أو العالي.

في القاهرة

بعد انتهاء مهمتي في بيروت، قصدت عاصمة بلاد الكنانة «القاهرة» حيث كان في استقبالنا القائم بأعمال السفارة المغربية المرحوم الأستاذ أحمد بن المليح، ولقد نزلت في فندق «انتير كونتينانتال» وبعد وصولي مكنني الأخ المرحوم أحمد بن المليح المذكور، من برقية وصلتني من ابني خالد، وفيها إخبار بازدياد ولد عندي، أسميته محمداً أصلحه الله، وأنبته نباتاً حسناً وذلك بتاريخ 26 يوليوز 1957.



المؤلف مع السادة : النائب البرلماني عثمان الدنا، الدكتور عدنان حيدر، الأستاذ جميل مكاوي في حفل أقامه القائم بأعمال في سفارة المغرب الأستاذ محمد التازي ببيروت بمناسبة زيارته للبنان



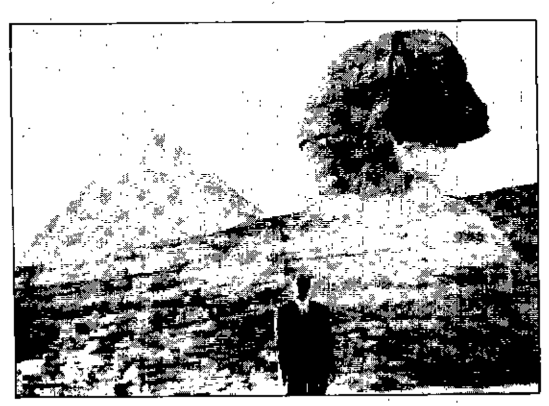
نجل المؤلف الأصغر سيدي محمد أصلحه الله الذي ازداد أثناء الرحلة الأولى للمؤلف إلى الديار المقدسة عام 1957

اتصالات بالقاهرة مع شخصيات في طليعتها البطل محمد عبد الكريم الخطابي

وقمت بعدة نشاطات في القاهرة، كان من جملتها الاتصال بالسيد أنور السادات الذي كان إذ ذاك رئيساً للمجلس الأعلى للآداب والفنون، والسيد عبد الخالق حسونة، الأمين العام للجامعة العربية، ووزير التربية الوطنية السيد كمال الدين حسين، والأستاذ عباس محمود العقاد، والبطل محمد بن عبد الكريم الخطابي، وأخوه سي محمد، اللذين أقاما لي ولاخواني المرافقين لي، حفلة غداء، تناولنا خلالها عدة أحاديث متنوعة، وبالأخص ما يتعلق بالحالة في المغرب بعد الاستقلال، والخطوات التي يخطوها لتدعيم هذا الاستقلال، وفي حديث انفرادي، بيني وبين الزعيم البطل رحمه الله، انطلق يحدثني برحابة صدر، وينصت باهتمام لتعليقاتي، وشروحي عن الحالة في المغرب، وتصوراتنا عن مستقبله الديني والسياسي والوطني، ولقد شعرت وأنا أتحدث إليه ان كثيرا من التصورات التي عندنا، كانت عنده مشوهة، وانه يتلقى شروحي بارتياح كبير، وشخصية الزعيم جذابة، وبسيطة، في آن واحد، وهو غيور غيرة كبيرة على دينه وعقيدته، ويريد للمغرب أن يسير في الخط الاسلامي، ويبني نهضته على أساس الاسلام، وكم كان انشراحه عندما انطلقت واياه في تحليل بعض الأفكار والمبادئ الاسلامية فكان يقول ما معناه : هكذا أنتم تتصورون وتخططون، ويعبر لي عن اتفاقه التام معنا في تلك الأفكار. اما عن اتصالي بالسيد أنور السادات فلقد كان بمنزله حيث استقبلني استقبالا خاصا، صحبة المرحوم أحمد بن المليح، فدارت الأحاديث في مواضيع شتى أشرت إليها في التقرير الذي رفعته لجلالة الملك المنعم سيدي محمد الخامس، بعد رجوعي إلى المغرب، والذي يوجد ضمن هذه الرحلة، ولدى وداعه أهداني نسخة من كتاب للأستاذ محمود عباس العقاد، كان ألفه حديثاً وعنوانه : حقائق الاسلام وأباطيل خصومه : اما السيد عبد الخالق حسونة فلقد عبر لي أثناء حديثه معي، عن انشغاله بتأخر انضمام المغرب إلى الجامعة العربية، وكان إذ ذاك لازال لم ينضم إليها رسميا،



صورة تاريخية مع الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي ببيته بالقاهرة أخذت عام 1957 ويظهر في وسط الصورة البطل محمد بن عبد الكريم الخطابي محاطاً بكل من الأساتيذ : إبراهيم الكتاني وحّ محمد بنونة عن يمينه ومحمد المنوني وأبو بكر القادري وعبد الله كنون عن يساره، كما يظهر في الصورة شقيق الأمير سي امحمد واقفا بجانب القادري.



المؤلف أمام أبي الهول في القاهرة عام 1957

واما زيارتي لوزير التربية الوطنية فكان أساسا حول تزويد المغرب بمَا يحتاج إليه من أساتذة جامعيين وثانويين، وتوثيق العلاقة الثقافية بين المغرب ومصر، والروابط المتينة التي تربط الشعبين الشقيقين، مصر والمغرب، والواقع أن اتصالاتي مع الشخصيات المصرية كانت مفيدة ومثمرة والحمد لله.

المشاركة في المجلس الأعلى للآداب بالاسكندرية

ووفقا لما كلفت به من طرف وزير خارجيتنا إذذاك المرحوم أحمد بلافريج، ذهبت إلى الاسكندرية للمشاركة، في الاحتفال الذي نظمه المجلس الأعلى للآداب والفنون، بمناسبة مرور ربع قرن على وفاة الشاعر المصري الكبير حافظ إبراهيم، والذي انعقد في فندق سان استيفانوا بتاريخ 25 يوليوز 1957 ودام إلى 29 منه، وألقيت فيه عدة كلمات وأبحاث، وكان من جملة المتحدثين رئيس المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، السيد أنور السادات والأساتذة : عزيز أباظة، والدكتور محمد صبري، واحمد حسن الزيات، وشفيق جبري من سوريا والدكتور عبد الوهاب عزام، وعبد الرحمان صدقي، وشوقي ضيف، وكامل الشناوي، والدكتور محمد مندور، ويوسف السباعي، وغيرهم، ولقد ألقيت فيه كلمة أشرت فيها إلى الروابط التي تربط المغرب بمصر، والعراقيل التي كان يقوم بها الاستعمار الفرنسي، لفسخ هذه الروابط، وحرصنا الشديد على توثيقها وإحكامها قبل الاستقلال، وبعد الاستقلال قائلا : إن الشعب المغربي الأبي، الذي قاسى من مرارة الاستعمار أهوالا، والذي حورب في عروبته بمختلف الوسائل وأشدها، فعرف كيف يحافظ على هذه العروبة، متفانيا في الذود عنها، يغتنم هذه الفرصة ليؤكد لاخوانه في هذا الجمع العظيم من جديد، انه سيبقى دائما معتزا بعروبته، ضنينا بها، مناضلا عنها في هذا الجناح الأيسر من بلاد العروبة، وان هذه الذكرى التي تقام اليوم لشاعر خالد، والتي يشارك فيها ممثلون عن مختلف البلاد العربية، لدليل قاطع على أن المغرب سائر حذو النعل بالنعل مع إخوانه لتحقيق الوحدة العربية المنشودة، واسترجاع أمجادها، وبناء مستقبلها، على أسس متينة، تضمن لها البقاء والنماء والعطاء. ثم تحدثت عن شاعر النيل حافظ إبراهيم، وانه لم يكن شاعر مصر فحسب، ولكنه كان شاعرَ بلاد العروبة

بأجمعها، وان تأثيره في إيقاظ الوعي الوطني في النفوس، كان يحطم الأشواك والعراقيل، ويستنهض الهمم ليقوم العرب بدورهم في الحياة. ويحطموا ما يبيته لهم الاستعمار من مكائد، ويقوموا مثل ما قامت الشعوب الناهضة، كاليابان لبناء مستقبلهم على أسس متينة، ترفع صرح العلوم، وتسير مثل ما سار الأجداد. فهو يقول :

وبينـوا لرجـال الغـرب انكـم إذا طلبتـم بلغتـم غايـة الطلـب
لا تلجأوا في العلا إلا إلى همـم وثابـة لا تبالـي همـة الثـوب
فـإن تأميلكـم فـي غيركـم وهـن
في النفس يرخي عنان السعي والأدب

ويقول في قصيدة أخرى :

جرت أمة اليابان شوطا إلى العلا ومصـر علـى آثارهـا ستسيـر
ولا يمنع المصري إدراك شأوها وأنت لطلاب العلاء نصيـر
فقف موقف الفاروق وانظر لأمة إليـك بحبـات القلـوب تشيـر
ولا تستشر غير العزيمة في العلا فليس سواها ناصح ومشمـر

إلى غير ذلك من القصائد التي كانت تهزنا هزا ونحن شباب نتغنى بأمجادنا، ونعمل لتغيير الأوضاع التي أوقعنا فيها الاستعمار والخذلان.

ثم ختمت كلمتي التي كانت ارتجالية بتحية الرئيس جمال عبد الناصر، وكل رجالات مصر الأبرار.

وأثناء انعقاد هذا الاحتفال بذكرى حافظ إبراهيم، نظمت لجنة الاحتفال، بعض النشاطات الموازية، فقمنا بزيارة مديرية التحرير، وقصر رأس التين، وحضرت حفل غداء بقصر المنتري وحفل آخر بفندق سيسيل، وأثناء حفلة الغذاء التي أقيمت للوفود المشاركة في مديرية التحرير، لاحظت وجود رايات صغيرة موضوعة فوق المائدة، تمثل الوفود المشاركة في الندوة، وفقدان الراية المغربية، فرفضت الجلوس ضمن المدعويين، حتى تحضر الراية المغربية بدورها، فاعتذروا عن عدم وضع الراية المغربية، وأحضروا في الحين وبصورة مستعجلة ما يرمز إلى الراية المغربية المنسية. ولقد زرت في القاهرة كثيرا من المآثر

والمتاحف، وفي طليعتها «الأزهر» الشريف، ومسجد سيدنا الحسين والأهرام، وأبا الهول، والمتحف المصري، كما زرت مركز جمعية الشبان المسلمين وألقيت كلمة في الندوة التي كانت مقامة بها، باقتراح وإلحاح من الأستاذ الكبير المرحوم الدكتور الدراز الذي أجريت معه حديثاً مطولا حول كثير من المواضيع، وسألني بالخصوص عن أخي وصديقي الزعيم المرحوم علال الفاسي وغير ذلك مما لا يتسع المقام لذكره.

في القدس الشريف

وفي اليوم الثالث من غشت 1957 أنهيت زيارتي لمصر وأخذت الطائرة التي كانت ستقلني إلى عمان عاصمة الأردن، ولكن وقوفها بمدينة القدس الشريف، جعلني أغير رأيي، وأمكث في القدس مهد الأنبياء وموطن المرسلين عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى التسليم، ولقد وجدت تسهيلات ومساعدات من طرف مدير مطار القدس وهو دكتور في الحقوق، وذو أخلاق سامية، فلقد بذل لي من المساعدات ــ رغم عدم معرفته بي إلا من خلال جوازي الديبلوماسي ــ ما أنا عاجز عن التعبير عن شكره، ومتأسف في الوقت نفسه، بأني ــ وأنا أكتب هذه المذكرات ــ نسيت اسمه، وان لم أنس فضله ومعروفه، لقد استدعاني هذا المدير الفلسطيني الشريف الأخلاق إلى مكتبه أولا، وبعد أحاديث متنوعة ومذكرات أخوية، أبى إلا أن يعيرني سيارته الخاصة لتأخذني إلى الفندق الوطني *National Hotel* وما أن استرحت قليلا بالفندق حتى قصدت المسجد الأقصى، رد الله غربته لأؤدى الصلاة فيه ثم زرت مسجد الصخرة ومسجد عمر وغير ذلك من المآثر والمساجد وكنيسة القيامة. ولقد كتبت كلمة في الدفتر الذهبي المخصص في المسجد الأقصى لتوقيع الزائرين والذي قدم لي لكتابة كلمة فيه، ثم رجعت إلى الفندق الذي ما أن حللت فيه، حتى رن الهاتف لأسمع صوت مدير المطار المذكور يطلبني وبرفقته رئيس محكمة الاستئناف بالقدس وشخصيات فلسطينية سامية أخرى، أتوا جميعهم ليرحبوا بي كأخ من إخوانهم، ويستدعونني ليتجولوا بي في مدينة القدس الشريف. ويطلعوني على معالم المدينة المقدسة. فشكرتهم الشكر الجزيل على هذه

العناية الكريمة، واستقللت معهم سيارتهم، وطفنا أرجاء مدينة القدس. وأطللنا من وراء الجدار الفاصل بين القدس الذي خصص للعرب، والجزء الذي اغتصبه اليهود تم قصدنا مدينة «رام الله» وهي عبارة عن مصطاف جميل قريب من مدينة القدس، فقضينا فيها سهرة لطيفة تناولنا فيها أحاديث متنوعة، وبالأخص حول موضوع فلسطين، والوجود الاسرائيلي فيها، وواجب الفلسطينيين والعرب جميعهم لتحرير الجزء الذي اغتصبه اليهود منهما، ثم تناولنا طعام العشاء على مائدة مدير مطار الكريم جازاه الله كل خير، وصبيحة اليوم الموالي رابع غشت، أخذت سيارة أجرة، صحبة دليل، وقصدنا مدينة الخليل، وهي من أقدم المدن العالمية القليلة، فزرنا مسجدها وقبر سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام وقبر سيدنا يعقوب وقبر سيدنا يوسف وسيدنا إسحاق وسيدنا لوط صلوات الله عليهم أجمعين، ثم زرت بيت لحم وفيه مهد سيدنا عيسى عليه السلام ومكان ولادته كما زرت بعض الكنائس القديمة. وبينما نحن نطوف على تلك الأماكن المقدسة، وصلني استدعاء من رئيس بلدية الخليل لتناول طعام الغداء عنده، فلبيت الدعوة، ولقيت منه كل عناية وترحيب، وأبى إلا أن يطوف معي ويصاحبني في زيارة بعض الأماكن المقدسة. والواقع أن رحلتي وزيارتي لفلسطين كانت موفقة غاية التوفيق، رغم أنها كانت عفوية، ولم آخذ لها أي ترتيب، وكان الفضل كل الفضل بعد توفيق الله، لمدير مطار القدس الشريف الذي أؤكد مرة أخرى أنني عاجز كل العجز أن أوافيه حقه من الشكران والاعتراف بالجميل.

بعد انتهاء زيارتي للقدس قصدت مدينة «عمان» فلم أمكث بها إلا يومين اثنين طفت فيهما بعض معالمها، وأديت الصلاة ببعض مساجدها.

ثم أخذت طريقي إلى المطار حيث امتطيت الطائرة التي أقلتني إلى بغداد التي أقمت فيها خمسة أيام، زرت خلالها كثيرا من المعالم واتصلت بكثير من الشخصيات، وأقيمت لي كثير من الضيافات.

في بغداد

فبمجرد وصول الطائرة إلى مطار بغداد وجدت في استقبالي بعض أفراد سفارتنا المغربية، الذين كان منهم القائم بأعمال السفارة إذذاك المرحوم الأستاذ

العربي بناني حيث كان السفير الحاج الفاطمي بن سليمان متغيبا عن بغداد، لقد كان الحر شديدا وقاسيا ساعة نزولي من الطائرة. فشهر غشت في بغداد يعتبر من أقسى الشهور حرارة، ولربما كانت وطأتها في هذا الشهر أكثر من غيره من الشهور، وبغداد إذذاك كانت قليلة العمران بالنسبة لما هي عليه الآن، فلقد فوجئت عندما مررت بشارع الرشيد الذي كان عبارة عن شارع عادي جدا، وليس فيه من المباني والعمارات والمتاجر الكبرى ما يلفت النظر، وقل مثل ذلك عن غيره من الشوارع والطرُقات. ولقد زرت أثناء وجودي ببغداد بعض المساجد والمقامات والأضرحة كمسجد الامام الأعظم أبي حنيفة النعمان، ومسجد وضريح جدنا الشيخ عبد القادر الجيلاني، وضريح حفيد الرسول الأمين سيدنا موسى الكاظم، كما أنني زرت وكيل وزارة التربية الذي أقام حفلة على شرفي حضرها بعض الشخصيات المثقفة اللامعة، كمدير كلية الآداب، ومدير كلية الحقوق وغيرهما، ولقد تذاكرت مع وكيل وزارة التربية في موضوع إعارة بعض الأساتذة المختصين للمغرب، فأثنى الثناء الخاطر على البرامج التي تطبق ببلادنا، واستفادتها من المناهج العلمية في البلاد الأوروبية الناهضة، وبعد انقضاء مهمتي ببغداد زرت مدينة «كربلاء» التي يوجد بها قبر حفيد الرسول سيدنا الحسين وأخيه سيدنا العباس العسكري. ثم زرت مدينة «الحلة» التي منها الشاعر المشهور صفي الدين الحلي. ولدى مدخل الحلّة، توجد مدينة بابل، وفيها آثار كثيرة وقريبة منها مدينة ذي الكفل ويقال ان قبره يوجد بها، ثم زرت النجف والمنصورية، وزرت مدينة الكوفة وبها المسجد الذي قتل في محرابه سيدنا علي بن أبي طالب ويسمى مسجد مسلم بن عقيل وهو مدفون فيه على ما يقال. وبالنجف يوجد ضريح الامام علي رضي الله عنه. ويجب أن أشير هنا إلى أن الجرائد العراقية تحدثت عن زيارتي لبغداد، وطلبت مني الاذاعة العراقية إعطاءها حديثا، سجلته وأذاعته بعد ذلك.

في طهران

غادرت بغداد يوم السبت عاشر غشت 1957 قاصدا «طهران» عاصمة إيران، وما أن حللت فيها حتى صرت أفكر فيمن يكون بجانبي، يؤانسني من

جهة، ويأخذ بيدي لأتعرف على بعض المعالم والمآثر والشخصيات من جهة أخرى، فزيارة قطر كإيران لا يتكلم أهله إلا باللغة الفارسية التي أجهلها لا يسهل على الزائر الغريب، التعرف عما يريد، فما هو العمل ؟ لو كانت لدينا سفارة مغربية بطهران لما وجدت صعوبة في مُقامي فيها، وتعرفي على معالمها ومآثرها وشخصياتها، ولكن المغرب كان إذذاك عديم التمثيل الديبلوماسي مع إيران، ولو فكرت في الأمر قبل ذلك، لاتخذت بعض الأسباب ليسهل علي المقام والاتصال، ولكني لم أفعل، فكيف السبيل ؟ وأخذت دليل الهاتف الموضوع في غرفتي في الفندق الذي حللت فيه، وصرت أراجع قائمة السفارات العربية الموجودة في طهران، فعثرت على رقم هاتف السفارة العراقية، وما هي إلا لحظات حتى كنت أخاطب سفير العراق، لأحدد معه موعدا للاتصال به في شأن يهمني، فما كان منه إلا أن يجيبني بأنه ينتظرني في أسرع وقت ممكن لي، فأنزلت السماعة في الحين، وطلبت من استعلامات الفندق أن يحضروا لي سيارة أجرة، أخذتني إلى سفارة العراق، حيث وجدت سعادة السفير ينتظرني، وكأنني على معرفة به قبل ذلك، سلمت عليه وقدمت له نفسي، وأخذت في الحديث معه في قضايا مختلفة، ثم رجوت منه أن يمد لي معونة بالاذن لأحد موظفي السفارة كي يصحبني في زيارتي لطهران ويعرفني عليها، ويدلني على الأماكن والمآثر والأسواق التي لابد للزائر أن يتعرف عليها، فما كان منه إلا أن يلبي طلبي ويخصص لي أحد أعوانه ليصحبني في التعرف على طهران. ولم يكتف بذلك، بل أبت عليه أريحيته إلا أن يستدعيني للغذاء معه في بيته، حتى نزيد في تمتين العلاقة الأخوية التي تربطنا كعرب ومسلمين. والواقع أنني شعرت شعورا دفينا خاصا إذذاك بقيمة لغة الدين والقرآن التي جمعتنا مع إخوة لنا، فصرنا إخوة متحابين رغم عدم المعرفة السابقة.

لقد زرت كثيرا من معالم وأسواق طهران صحبة الشاب العراقي، واشتريت بعض المشتريات الفضية، وان لم أتمكن من التعرف إذذاك على أية شخصية إيرانية، سواء من المسؤولين في الدولة الشقيقة أو من العلماء والمثقفين الذين تربطنا معهم روابط الأخوة والدين، وأثناء مقامي بطهران، خبرني أحد موظفي السفارة العراقية بأن وزير خارجيتنا الأخ الحاج أحمد بلافريج، سيمر بمطار

طهران في طريقه إلى بعض البلدان الأسيوية، وكان بإمكاني أن أستقبله مع المستقبلين، ولكني لم أفعل لضيق الوقت ولما خبرت الأخ بلافريج بأني كنت في طهران ساعة مروره منها، أكد لي أنه لو رآني بالمطار لأخذني صحبته إلى الأقطار التي كان سيزورها.

في دمشق

بعد طهران أخذت الطائرة إلى بيروت من جديد، ومنها قصدت مدينة «دمشق» الفيحاء فزيارة دمشق كانت من الأحلام التي كنت أحلم بها وأنا شاب في مقتبل العمر، فلقد كان لدي فيها أصدقاء أوائل الثلاثينات. كانوا يدرسون فيها، وكنت أتابع نهضتها العلمية والوطنية والسياسية من خلال الصحافة والمراسلة مع الأصدقاء، ولو شاءت الأقدار لكنت من جملة الطلبة المغاربة الذين كانوا يدرسون في جامعتها، فلقد سبق لأخي وصديقي المرحوم سعيد حجي الذي كان يدرس في جامعتها ان اقترح علي أن ألتحق به في جامعتها لآخذ مقعدي فيها، ولكن الرياح تجري بما لا تشتهيه السفن. لقد مكثت بدمشق نحوا من أسبوع، زرت خلاله بعض مآثرها ومساجدها وأضرحتها وأسواقها كمسجد الأمويين وضريح ابن عربي الحاتمي وسوق الحميدية وقبر صلاح الدين الأيوبي وغير ذلك من المآثر. وكان بودي أن أزور مدينة «حلب» وغيرها من أمهات المدن الشامية، ولكن الوقت لم يسعفني. وخلال مقامي بها استضافني فضيلة الشيخ سيدي محمد المكي الكتاني وأقام لي حفلة غذاء على شاطئ «بردى» وقدمني جازاه الله كل خير لبعض الشخصيات الشامية، وكان بوده أن يقدمني لرئيس الجمهورية السيد شكري القواتلي لولا أن ظروفي الزمنية لم تسعفني بذلك، والشيخ الكتاني المذكور، كان يتمتع باحترام وتقدير من طرف كل الدمشقيين، وبيته محجة يقصده الزوار من كل الحيثيات، وروحه الطيبة ومكانته العلمية باعتباره شيخ المالكية تزيده تقديرا ومحبة رحمه الله. وسوق الحميدية في دمشق مقصد كل الزائرين، يشترون منه الثياب الحريرية الوطنية التي تختص بها مدينة دمشق الفيحاء، ولذلك فلابد من زيارته وشراء بعض القطع الحريرية الممتازة لتقدم هدايا للأهل والبنات والأحباب.

والحديث عن دمشق والشام يطول لو استرسلت في الكتابة، ولكن هذه

الارتسامات التي أكتبها الآن بعد مضي بضع وثلاثين سنة على زيارتي الأولى لها، والتي أعتمد فيها على ذاكرتي وعلى بعض الرسائل التي كتبتها إذذاك لأبنائي واحتفظوا بها لا يعطيني المجال للزيادة في التوسيع، خصوصا وقد زرت بعد ذلك «دمشق» المرات العديدات، فعسى أن تتيح الأقدار كتابة رحلات أخرى، لأتحدث بتوسيع أكثر. وأثناء إقامتي بدمشق عقدت عدة اجتماعات مع الطلبة المغاربة الذين كانوا يدرسون بالشام. شرحت لهم فيها الوضع في المغرب وأجبتهم عن الأسئلة الكثيرة التي كانوا في شوق للاجابة عنها، كما عقدت اجتماعا مع المرحوم السيد يوسف الرويسي التونسي حول الأوضاع في افريقيا الشمالية. غادرت «دمشق» إلى بيروت لآخذ طريقي إلى مدينة اصطنبول.

في طريق العودة

في أصطنبول

عاصمة الدولة العثمانية، اصطنبول مدينة المآذن والمساجد والمتاحف والتاريخ المجيد، والتي يتقاطر عليها الزوار من كل الآفاق، لقد زرت مساجدها المتعددة، منها مسجد «أياصوفيا» العظيم الذي أصبح الآن معطلا من أداء الصلاة فيه، وأصبح الزوار على اختلاف أجناسهم ودياناتهم يقصدونه للاطلاع على الزخرف الذي فيه سواء عندما كان كنيسة أو عندما أصبح مسجدا يعبد الله الواحد فيه، كما زرت المتحف الكبير الذي كان قصرا من قصور أحد الملوك الأتراك، والذي عرضوا فيه كثيرا من الأشياء الثمينة، ومنها بعض المخطوطات بالفارسية والتركية والعربية، وبعض الأواني البيتية التي لا يجود الزمان بمثلها. ثم قمت بزيارة لبحر البوسفور ومنظره الخلاب الذي يفرق المدينة إلى شطرين : أسيوي وأوربي، والشطر الأسيوي هو الشطر العام الذي توجد فيه المآثر والمتاحف والمساجد، أما الشطر الأوربي، فزيادة على صغره، فإنه لا يحتوي على مآثر ولا مناظر تغرى، وبالرغم عن صغره، فلقد استمتعت بأداء صلاة مفروضة في أحد مساجده الصغيرة التي لا تخلو من رونق وبهاء، ولشد ما أدهشني عندما لاحظت شابا في سن الثلاثين لابسا بذلة أوربية وهو حليق اللحية

مثل أكثرية الشباب، دخل إلى المسجد لدى الأذان، ثم قصد بوابة صغيرة في الجدار القبلي للمسجد، وبعد هنيئة خرج من تلك البوابة وقد جعل على رأسه طربوشا بعمامة بيضاء، وفوق بذلته الأوربية، جلبابا أو قفطانا أسود، ثم تقدم إلى المحراب فأقام الصلاة، ثم أم بنا، وكانت الصلاة صلاة المغرب، وبعد انتهاء الصلاة بالسلام وقراءة الباقيات الصالحات، أعطى وجهه للمصلين، وأخذ المصحف في يده، وصار يتلو آيات بينات من الذكر الحكيم، بصوت فيه متعة، ونغم حلو، زاد في حلاوته أنه كلام رب العالمين، وأثناء رجوعنا في الباخرة التي أقلتنا إلى الشاطئ الأوربي من القسطنطينية، شاهدنا منظر بحر البوسفور الخلاب، ثم قصدنا بعد ذلك في الباخرة جزر الأمراء الواقعة في بحر «مارمارا» وكنا خلال ركوبنا نتمتع بمناظر القسطنطينية التي تكتنف الجانبين، لقد كنت أظن أن الجزيرة التي زرناها مجرد جزيرة خالية من السكان، فإذا هي متسعة الأطراف، وبها مدن متوفرة على كل وسائل الراحة التي توجد في المصطافات الجميلة الجذابة، فزيادة على منظر البحر الهادئ، توجد الأشجار الباسقة، والأزهار المتفتحة زادها جمالا وروعة موقعها الجبلي الممتاز.

لقد تناولت الغذاء بأحد المطاعم الفاخرة فيها، ثم طرق سمعي صوت المؤذن ينادي بكلمة الله أكبر، حي على الصلاة، فقصدت المسجد الذي ينبعث من مئذنته ذلك الصوت لأؤدي الصلاة مع إخوتي المومنين، وما هي إلا لحظات حتى كنت داخل المسجد وشاءت الأقدار أن أحضر إليه لأشارك المومنين الأنصات إلى مقرئ للقرآن ذي صوت رخيم، وهو يختم القرآن الكريم، والناس من حوله يستمعون إليه في خشوع وتذلل مؤثرين، سواء منهم الرجال أو النساء. ولقد سررت غاية السرور، وتأثرت لهذه المصادفة التي شاركت فيها اخواني ختم القرآن الكريم، فصافحت الكثيرين وصافحوني، وتبادلنا عواطف الاخوة التي غرسها في قلوبنا كتاب رب العالمين. لقد كانت ساعة سعيدة مملوءة بالإيمان والصدق واليقين رجعنا بعدها إلى الباخرة لِتقلنا إلى القسطنطينية من جديد، وما أن سارت بنا الباخرة نحو نصف الساعة حتى تغير الجو واكفهر، وصرنا نسمع صوت الرعود تقصف، والبرق يكاد يخطف الأبصار، وتلمع أضواؤه في السماء، واذن الله بعد ذلك للسحب أن تمطر وابلاً بعد طل،



في اسطنبول عام 1957 مع أخ من إيران ويظهر من خلفنا تمثال أتاتورك (مصطفى كمال)

وينزل معها البَرد الكثير الذي غطى أرض اصطنبول، فتوجهت مسرعا إلى النزل الذي كنت نازلا فيه، عازما على أخذ الأهبة، للسفر إلى «أثينا» عاصمة اليونان في اليوم الموالي، رغم أنني لو وجدت السبيل لمكثت أياما وأياما بعاصمة العثمانيين الفريدة الجذابة بعد قضاء ثلاثة أيام بمدينة القسطنطينية وما حواليها، وبعدما زرت كثيرا من معالمها التاريخية كان يرافقني فيها أخ إيراني تعرفت عليه صدفة عندما كنت أبحث وكان هو يبحث أيضا عن فندق ننزل فيه عندما حللنا بتركيا، ولقد آنسني هذا الأخ كثيرا وكان يتكلم العربية لأنه كان مقيما ببيروت يتعاطى التجارة فيها.

في أثينا

بعد ثلاثة أيام ودعت «اصطنبول» قاصدا «أثينا» التي حللت فيها اليوم الثالث والعشرين من شهر غشت 1957، وبمجرد وصولي، طلبت من شركة الطيران أن تبحث لي عن فندق محترم أقيم فيه، وبعد البحث الطويل والعسير، تمكنت من الحصول على غرفة في أحد الفنادق المحترمة ذات الخمسة نجوم ومتوفر على جميع أسباب الراحة بعكس ما كان عليه الحال في تركيا حيث بقيت أبحث الوقت الطويل عن نزل صالح فلم أظفر إلا بنزل صغير لم أكن راضيا عن مقامي فيه.

كان الفندق الذي حللت فيه بأثينا ميلئا بالسياح من مختلف الأجناس، وكانت إدارته تنظم بسياراتها رحلات وزيارات إلى المعالم التاريخية، سواء بالليل أو بالنهار فاغتنمتها فرصة لأزور بعض المعالم ليلة وصولي، والمعالم التاريخية بأثينا تضاء بكثير من الأضواء في الليل، فتبرز واضحة معبرة عن عظمة بانيها. لقد طافت بنا السيارة كل أنحاء «أثينا» والدليل يشير إلى المعالم ويعطي تعريفا موجزا عنها، وبعد الطواف على المدينة التاريخية، وقفت السيارة بمكان فسيح غير مغطى، وهو عبارة عن مطعم كبير مخصص للسياح خارج المدينة، فنزلنا لنأخذ أمكنتنا في الطاولات المهيأة وكان جوق كلاسيكي يشنف الأسماع بنغماته الحلوة التي تشنف الأسماع وأخذت مكاني في طاولة من الطاولات المعدة للأكل، وكان بجانبي في الطاولة شخصيات من مختلف الأجناس

واللغات، وصرت أتبادل الحديث مع من يتكلمون الفرنسية دون كلفة ونحن نستمتع إلى نغمات الجوق الكلاسيكي، وكم أستغرب الأجانب الجالسون بجانبي تتبعي لنغمات الجوق، ومحاكاتي لها أحيانا وهي تتغنى، والواقع أنني شعرت بتقارب كبير بين تلك النغمات ونغماتنا الشرقية العربية، ولعل الأصول التي نبعت منها نغماتهم ونغماتنا أصول واحدة، ولعل الجوار التركي اليوناني، والجوار العثماني العربي أثرا في بعضهما، فكان هذا التقارب في النغمات الذي أدى إلى التقارب في المشاعر والأذواق، لم أمكث في أثينا إلا يوما واحدا، تعرفت خلاله بعض التعرف على حضارة اليونانيين وعلى معالمهم التاريخية القديمة، ثم أخذت طريقي إلى مدينة (رومة) عاصمة إيطاليا.

في روما

ففي يوم الخامس والعشرين من شهر غشت كنت أتجول مع السياح في مدينة «روما» ولقد اندهشت لكثرة السياح الواردين من كل حدب وصوب. فزرت معهم كثيرا من الكنائس القديمة، وبعض المتاحف الهامة، كما زرت فسحة «فينيس» الشهيرة مع قصرها وحديقتها المتسعة التي تبلغ مساحتها سبعة كيلوميتر تقريبا، لقد كنت مع السياح الذين يترجم لهم الدليل باللغة الفرنسية، وكنت أستفيدُ بعض الفائدة ولا أقول كل الفائدة من شروحه، وآخذ فكرة ولو مجملة عما يقدمه من شروح، ويلاحظ هنا أن الدليل كان يشرح كل ما يتطلبه الشرح، ويعطي التواريخ الدقيقة عن كل شاذة وفاذة، عكس ما هو عندنا من تخصيص أدلاء للسياح، يكتفون بإعطاء معلومات سطحية وأحيانا تكون مغلوطة، نظرا لعدم ثقافتهم، ولأنهم في الغالب لا يهتمون إلا بما يأخذونه من السياح من «بقشيش» ولربما يعطون صورة مشوهة عن بلادهم وشخصياتهم.

لقد استفدت في اليوم الأول من مقامي «برومة» استفادات كثيرة، وزدت ثقة بما كنت أعتقده دائما من أن الانسان في هذه الحياة، يجب أن يوطد نفسه على الاعتماد على النفس، لا على الاعتماد على الغير، لأني كنت أشعرت سفارتنا بروما من أني سأزور رومة، ولربما أكون بحاجة إلى من يساعدني بعض المساعدة، سواء بحجز غرفة صالحة في أحد الفنادق ــ تحت نفقتي طبعا ــ

وبإرشادي إلى الأماكن التاريخية التي يحسن بي أن أزورها، حتى لا يكون مقامي «برومة» فاقد للجدوى، ولكني مع الأسف لم أتلق من أي واحد أي جواب.

لفت نظري وأنا أزور بعض الكنائس صحبة السياح الأجانب، أن تجمهرا غير عادي يوجد أمام الكنيسة، ويشارك فيه بالخصوص الآلاف من الشبان والشابات، لابسين أزياء مختلفة، وفي يد الكثيرين منهم كراسي صغيرة، كل واحد بكرسيه الصغير يجلس عليه إن تعب أو أراد تسجيل بعض الملاحظات التي تَعِنُّ له وهو يطوف أو يستمع إلى كلمات تلقى عليه، وكانوا أحيانا يتغنون بأناشيد متنوعة، ويطربون ويمرحون، وهم لكثرة عددهم كأنما هم في محشر من كثرة الازدحام. المزدحمون بباب الكنيسة يودون الدخول إليها لمشاهدة ما بها من مآثر وألواح زيتية وزخرف متعدد الألوان والأشكال وأنا بدوري مع الذين كانوا يرافقوني بذلنا جهدا جهيدا للدخول، وأثناء خروجنا لاحظت علما مكتوبا باللغة العربية محمولا بيد أحد الشبان، ولما أمعنت النظر فيه، وجدت مكتوبا فيه : (منظمة الشبيبة العاملة المسيحية بسوريا) فأدركت أن المهرجان مقام للشبيبة المسيحية العالمية، وان المنظمات المسيحية في العالم، تعمل لتلاقي شبابها على أساس عقائدي، لتبقى علاقاتهم دائما تتقوى على أساس من دينهم المسيحي، ودفعني هذا المشهد إلى التساؤل مع نفسي، ما هو عملنا نحن المسلمين لتوثيق علاقة شبابنا مع بعضهم بعضا في مختلف الأقطار والأمصار، لمواجهة التخلف، ومكافحة التأثيرات الاستعمارية التي عملت ولازالت تعمل لفك أي ارتباط بين الشباب المسلم يبنى على أساس من العقيدة السمحة التي تدعو إلى التعاون والتآزر وخدمة المصالح العليا للمسلمين، فالشباب المسلم في مختلف الأقطار الاسلامية، موزع الأهواء، متعدد النزعات، مع أن الاسلام يدعو إلى الوحدة والتحرر من كل التبعيات.

في مدريد

إن زيارتي لرومة كانت مفيدة، بالرغم من أنها كانت قصيرة، لأنني قررت السفر إلى مدريد التي تعتبر زيارتي لها آخر مرحلة في رحلتي هذه، بعدما قضيت «بروما» ثلاثة أيام. حللت بمدريد يوم 28 غشت حيث وجدت بالمطار الصديق السفير مستشار صاحب الجلالة السيد محمد عواد الذي رحب بي

أعظم ترحيب، وأخذني إلى بيته أولا، حيث تناولت عنده طعام العشاء ثم ذهبت إلى الفندق الذي حللت فيه، لأقضي يوما واحدا بمدريد، حيث فارقتها يوم 29 غشت قاصدا المغرب بعد رحلة دامت شهرين كاملين، طفت خلالهما على كثير من الأقطار العربية والأجنبية، واستفدت من رحلتي الاستفادات الكثيرة والمتعددة، كان من أهمها أدائي لفريضة الحج وزيارة قبر الرسول الأمين عليه السلام والتعرف على البلادات العربية ورجالاتها وشخصياتها، وكتابة ملاحظات وارتسامات عن هذه الأقطار العربية، جعلتها في تقرير مجمل رفعته إلى جلالة الملك المنعم سيدي محمد الخامس نور الله ضريحه لدى استقباله لي بعد رجوعي من رحلتي وأدائي لفريضة الحج ضمن الوفد الأول الذي توجه إلى الديار المقدسة بعد الاستقلال.

التقرير الذي رفعته إلى جلالة المغفور له سيدي محمد الخامس

الحمد لله وحده.

صاحب الجلالة ملك البلاد المفدّى سيدي محمد الخامس
أعزك الله ونصرك وسلام عليك ورحمة الله وبركاته

مولاي

عندما تفضّلتم فسمحتم لخديمكم وأحد أفراد رعيتكم، بمقابلة خاصة بعد رجوعه من الديار المشرقية، شرحت لسيدنا بعض ما ارتسم في ذهني من ملاحظات في رحلتي، ورجوت في الأخير من ولي نعمتنا، أن يلتفت التفاتة خاصة للحياة الدينية بهذه البلاد المغربية، فيأمر بتجديد معالم الدين الحنيف، ويرسم خطة واضحة تنير الطريق أمام شباب هذه البلاد.

ولقد أبيتم يامولاي، نظراً لما طبعكم الله عليه، من سمو في الأخلاق، وخدمة لصالح مجتمعكم، إلّا أن أسطر ما عبرت لكم عنه في ورقات، وأقدمه لكم في شبه تقرير، لتدرسوه بإمعان وتأخذوا فيه رأيكم المصيب.

وها أنا يامولاي، أتقدم إلى حضرتكم العلية، بهذه الملاحظات والاقتراحات، رائدي فيها، الاخلاص لملكي وشعبي، وديني.

حرس الله مولانا الإمام وأبقاه ذخراً لرعيته، وحصنا منيعاً لدينه وحفظه في شبله وولي عهده وجميع الأمراء الكرام والسلام.

شتنبر 1957

لقد من الله علينا بأداء فريضة الحج، وأسعدنا بالوقوف بجبل عرفات، وزيارة قبر الرسول الأعظم ﷺ، فلبينا دعوة أبينا إبراهيم، وأدينا المناسك التي أمر الله بأدائها، وذكرنا اسم الله كثيرا، وشهدنا المنافع التي ذكرها الله في كتابه الكريم، حيث إن المسلمين يردون من مختلف أنحاء المعمور، لحضور هذا المؤتمر العظيم، الذي سنّه الاسلام، ليكون فرصة لتوثيق علاقاتهم مع بعضهم بعضا، وشد أزر بعضهم بعضاً، ومعونة بعضهم بعضاً لرفع مستواهم الديني، والدنيوي، حتى يصدق عليهم، أنهم خير أمة أخرجت للناس.

وان الزائر لتلك البقاع المقدسة، يشعر بأن الواجب يقضي عليه، بأن يغتنم تلك المناسبة، ليتعرف إلى أكبر عدد من إخوانه المومنين، الذين تربطهم وإياه العقيدة والدين، فيتحدث إليهم عن أحوال بلاده، ويعرفهم بما تبذله من جهود، في سبيل رفع شأنها، كما يستجليهم عن أخبار بلادهم، ليتعرف إليها، ويدرك حقيقة أحوالها.

وهكذا يكون هذا التجمع وسيلة لدراسة أحوال المسلمين، وما يجب عليهم أن يبذلوه، لرفع شأنهم، وإعلاء كلمتهم، فيحققوا ما أمرهم الله بتحقيقه، ويشعر الجميع بفائدة الحج وحكمته.

على أننا والحمد لله، لم نكتف بما تعرفنا إليه من رجالات الاسلام بالبلاد الحجازية، بل قررت — بعد أن كنت استأذنت سيدنا المنصور — زيارة بعض الأقطار العربية الإسلامية الأخرى، ليتم المقصود، وتحصل النتيجة، وتعم الفائدة، فزرت بعد أداء فريضة الحج كلا من مصر وسوريا ولبنان والأردن وطهران وغيرها من الأقطار، زيارة تعرف واستطلاع، وتعريف بقضية بلادنا ونهضتها المباركة، تحت قيادة مولانا الملك الهمام.

الحالة الاجتماعية لدى المسلمين

أول ما يسترعي اهتمام زائر بيت الله الحرام، بعد اختلاطه بعامة المسلمين، من مختلف الجهات والأنحاء أن حالة البلاد الاسلامية، في حاجة ماسة إلى تعاون وثيق، لرفع مستوى الحياة الاجتماعية فيها، ومساعدة الطبقات الشعبية، على التطور والنهوض، فالوسط الاجتماعي لدى المسلمين عموما في مختلف

الأقطار، لازال في حاجة ماسة إلى مزيد من العناية والاهتمام، والحكومات الاسلامية يتعين عليها بذل مجهود جبار، لرفع مستوى هذه الطبقات.

فالحالة الاجتماعية بالحجاز، لازالت متأخرة تأخراً ملموسا، بالرغم مما قامت به حكومة جلالة الملك سعود من مجهودات لصالح الحجاج، من تدعيم للأمن، وإصلاح للطرقات، واحتياط في ميادين الإسعاف والصحة، ومد أنابيب المياه في مختلف الجهات، بالرغم عن ذلك، فإن الزائر لا يلاحظ تقدما في ميادين أخرى، فالفقر منتشر، والفقراء يستعطفون حجيج بيت الله، في حالة مؤثرة، والحريات العامة مفقودة تماما، فلا تكاد تجد صحيفة تنتقد، ولو الانتقاد النزيه، ولا يمكنك أن تظفر بجمعية معترف بها، اللهم الا ما كان من جماعة تدعى بجماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، اسمها يدل على مهمتها.

على أن هناك ظاهرة تستحق من الملاحظ كل اعتبار وتقدير، وهذه الظاهرة تتجلى في أن دواليب الادارة، في طول البلاد وعرضها، لا تتمشى إلّا بأيد عربية صميمة، وأن لغة التعامل في مختلف الميادين، اقتصادية وغيرها، هي اللغة العربية، وأن الحجازيين، رغما عن فقرهم في الرجال وذوي الكفاءات، استطاعوا ولو بطريقة بسيطة، تسيير شؤون بلادهم، والاستغناء عن التدخلات الأجنبية، اللهم الا ما هو موجود من مساعدات دول عربية صميمة.

وظاهرة ثانية تسترعي كامل الانتباه، وهي أن طبقة خاصة من السكان تنعم في بحبوحة من العيش الرغيد، وتتمتع بما حصلته من أموال، وينظر إليها من طرف الشعب، نظرات فيها كثير من الحنق، وكثير من الألم، وأعني بها، المحظوظين، الذين يتصرفون تصرف المالكين، ويعطي لهم من الاعتبار والشفوف، ما لا يعطي لغيرهم.

تلك كانت نظرة مختصرة عن الحالة بالحجاز.

في مصر العربية

أما عن بلاد الكنانة، التي تعد بحق زعيمة النهضة العربية، ومعمل الفكر العربي، فلقد اغتنمت فرصة وجودي بالقاهرة لربط اتصالات وثيقة بيننا وبين رجالها، واتصلت بكثير من الشخصيات اللامعة، في ميداني الفكر والسياسة،

مثل السيد أنور السادات، والسيد عبد الخالق حسونة، والأستاذ عباس العقاد، ووزير التربية والتعليم السيد كمال حسين والبطل ابن عبد الكريم الخطابي وغيرهم، وجميع هذه الشخصيات تنظر في كفاح الملك والشعب، نظرة كلها تقدير وإعجاب، وإن كان الكثيرون منهم، لا يعرفون شيئا يذكر، عن أعمال المغرب البنائية، في عده الاستقلال، الشيء الذي يجب أن نتداركه، فننظم الدعاية لقضية بلادنا، ونخرج من هذا التواضع الذي يضر بسمعتنا.

لقد لاحظت خلال حديثي الطويل، الشيق، مع السيد أنور السادات، إعجابا بجلالة ملكنا المفدى، وتقديرا لشخصيته الجذابة، واعترافا بما أسداه لبلاده، وللعروبة كلها، من خدمات، ولقد ذكر لي أن جلالة الملك، والرئيس جمال عبد الناصر، يتوفران على خصال، قل أن تتوفر في غيرهما، وهما من أجل ذلك، أهل لأن يعدا في صفوف رجالات الدول العظام، وانجر الحديث إلى مأساة قناة السويس، وتواطئ الاستعمار ضد مصر فيها، فاعترف بأن موقف جلالته فيها، كان موقفا شريفا وعظيما، وانه كان أول رئيس دولة عبر عن تضامنه مع مصر، وتأييده لها.

اما الأمين العام للجامعة العربية، الأستاذ عبد الخالق حسونة، فقد كان الحديث معه يدور حول انضمام المغرب للجامعة العربية، وضرورة تكتل العرب فيها، للدفاع عن مصالحهم، ولقد أبديت له بعض الأسباب، التي تجعل المغرب يؤخر انضمامه الفعلي للجامعة، وان كان مرتبطا واقعيا في كل عمل تقوم به، لصالح العرب والمسلمين، وبالأخص في الميدان الدولي، الذي يظهر فيه المغرب مع إخوانه العرب، جبهة واحدة متراصة، فاعترف بكل ما ذكرت له، ولكنه أكد انه سبق أن تحادث حديثا طويلا مع سمو ولي العهد المحبوب في الموضوع نفسه، وأنه أخذ وعداً منه، ومن وزير خارجيتنا، بأن المغرب على وشك الانضمام رسميا إليها، ثم ذكر أن في عزمه زيارة المغرب وملكه، في أول مناسبة لتتميم المذاكرة في الموضوع، ويرى أن الظروف الحالية، تساعد على تحقيق هذه الرغبة، لتقوى الجامعة بانضمام المغرب إليها.

والسيد حسونة، متفائل بمستقبل الأمم العربية، رغم النزاع الذي يلاحظ أحيانا بين دولها، وهو يعتقد أن الجامعة حققت بعض الأهداف، وستحقق الباقي في المستقبل.

أما السيد وزير التربية الوطنية السيد كمال حسين، الذي يعد من رجالات الثورة المبرزين، فقد كان الحديث يدور معه، حول توثيق العلاقات الثقافية بين المغرب ومصر، وتبادل بعثات ثقافية بين البلدين، ثم بإلقاء نظرة عابرة حول ثورة الملك والشعب ببلادنا، ومقارنتها بثورة الجيش ببلاد الكنانة، ثم الكلام عن الأحزاب ودورها في توجيه الأمة، وتكوين الفرد، والفروق الواضحة بين أعمال الحزب بالمغرب، وأعمال صنوه بمصر مؤخراً.

إنّ الشخصيات المصرية التي أتيح لي الاتصال بها، تذكر الرئيس جمال عبد الناصر بكل تقدير، وتعتبر أن سياسته سياسة رشيدة، وأنه يعمل مع رفاقه، لصالح مصر والعروبة بأجمعها، وان الله هيأه لمصر في هذه الظروف الدقيقة، التي يجتازها العالم، ليرفع من شأنها، ويدعم استقلالها ويصون كيانها.

وجمال عبد الناصر، يتمتع كذلك بعطف وحب وتقدير، من لدن مختلف طبقات الشعب المصري، ويكاد أن يكون الرجل الوحيد الذي تآلفت عليه القلوب.

إن الشعب المصري، بعد خروجه منتصرا على خصومه في العدوان الثلاثي، يسير قدُماً نحو بناء اقتصادي، وطني، مستقل، ورغم توطيد العلاقات بين مصر، والكتلة الشرقية، الذي كان من جملة عواقبه تلك الحملة المزيفة من بعض الصحافة المغرضة، فإن مصر لم تصبح فريسة للشيوعية، بل ان الرئيس جمال نفسه يعمل جادا لعرقلة تسرب الشيوعية في بلاده، ولوحظت هذه العرقلة أثناء الانتخابات التي جرت أخيرا بمصر، والتي لم ينجح فيها ولا شيوعي واحد، على أن الملاحظ يرى أن النشرات والكتب الشيوعية، تروج كثيرا، وبمنتهى الحرية، في مختلف الجهات.

وإذا كانت مختلف الطبقات الشعبية، تنظر إلى الثورة المصرية نظرة التأييد والتقدير، فهناك طوائف كثيرة من المثقفين، انطوت على نفسها، وابتعدت عن كل تدخل في القضايا العامة، معبرة في غير كلام عن انتقاداتها، وعدم رضاها عن بعض الجوانب في السياسة الداخلية للبلاد، كما أن طائفة أخرى لا تخفي تذمرها، من السيطرة العسكرية، والاستحواذ على تسيير الشؤون، وإبعاد كثير من الأكفاء، من ميادين النشاط، ويخشى أن بقي الحال على ما هو عليه، ان تتوسع

شقة الخلاف، بين المدنيين والعسكريين، وينشأ غن ذلك أضرار، نرجو شقيقتنا أن تتلافاها.

أما عن الصحافة ودورها في التوجيه، فإننا لاحظنا أنها سائرة في وجهة واحدة تقريباً، ولا تكاد تظفر بصحيفة تجرؤ على انتقاد الحكومة، في أي ميدان، بل إن الرقابة آخذة بخناقها، حتى أصبحت كلها في يد الحكومة، تسبّح بحمدها وتؤيدها في كل مواقفها، وإذا كانت ظروف استثنائية دعت لفرض هذه الرقابة، فإن كثيرا من الناس لا ينظرون إليها الآن نظرة التحبيذ والتأييد، بل يود أن تعطي لها بعض الحرية في النقد، لتقوم بواجبها، وتؤدي مهمتها، ومادمت بصدد الكلام عن الصحافة، فلأذكر ان الصحافة المصرية على العموم، لا تهتم إلا بما ساير السياسة المصرية، ولا تعبر أدنى التفات لما يقع في بلادنا من أحداث، بل لا تكاد تنشر عن المغرب أيّ شيء، اللهم إلا بعض الأنباء القليلة في ركن غير بارز، وبدون أدنى توجيه، وهذا من جملة الأسباب التي جعلت أعمال حكومة جلالة الملك ومجهوداته في عهد الاستقلال، غير معروفة لدى كل الشخصيات.

ومن الأسباب التي ساعدت الثورة المصرية على القيام بواجبها، وثبتت النظام الجديد، وركزته، وجود إدارة قوية تدعى إدارة الاستعلامات، وهذه الإدارة قابضة بيد من حديد على زمام الأمور بمصر، فكأنها حكومة وسط الحكومة، فهي التي تنظم الدعاية داخلا وخارجا، وهي التي تراقب سير الأحداث، والأشخاص، وهي التي تشرف على تنظيم المعارض والمؤتمرات، وهي التي توجه الصحافة والإذاعة، وتجابه الدعاية الاستعمارية، بما تستحقه من مواجهة إلى غير ذلك من الأعمال.

والحقيقة أن السياسة الاعلامية بمصر، أتت بثمرة وأفادت إفادة كبرى في تثبيت مركز السلطة، فلعمري لو اتجهت سياستنا هذا الاتجاه، وعلى الأخص في ميدان الدعاية إذا لاستفادت بلادنا، وعرفت في كثير من الأنحاء، بشرط أن تسير في الخط المستقيم العادل ولا تتعدى حدودها.

وإن الحديث عن الدعاية، يجرنا إلى الحديث عن الإذاعة الوطنية المصرية، التي اهتمت بها الحكومة أيما اهتمام، فزادت في أقسامها، وعملت على تقويتها، وأنشأت أقساما خاصة بالتقاط الأخبار العالمية وتعاليق الإذاعات الأجنبية عن مصر وسياستها ولقد شاهدت محررين خاصين بهذه الأقسام لا

شغل لهم الا تسجيل ما تذيعه الإذاعات الأجنبية، وتحريره، ثم تقديمه إلى المختصين في الإذاعة.

توجد بمصر كثير من الهيئات والجماعات تابعة للحكومة، وتعمل حسب وحيها، ومن جملة هذه الهيئات المجلس الأعلى للآداب والفنون، الذي نظم ذكرى المرحوم حافظ إبراهيم، واستدعى مندوبين عن مختلف الدول العربية، ولقد شاركت في هذه الذكرى ممثلا المغرب، بطلب من وزارة خارجيتنا، وألقيت كلمة تحدثت فيها عن الروابط الوثيقة، التي تجمع المغرب ببلاد العروبة، وحييت المؤتمرين باسم جلالة ملكنا المفدى، وحكومته، والشعب المغربي، ولقد قوبلت هذه الكلمة المتواضعة بارتياح من المؤتمرين، فصفقوا لها تصفيقا حادا وبالأخص عندما ذكرت اسم جلالة ملكنا نصره الله.

ولقد دام انعقاد هذا المؤتمر الأدبي، نحوا من خمسة أيام، ألقيت فيها عدة أبحاث، وكان انعقاده وسيلة جديدة من وسائل التعرف إلى عدة شخصيات لامعة، في ميدان العلم، والأدب، مثل الدكتور عبد الوهاب عزام، الذي أبدى لي رغبة في زيارة المغرب، والتعرف إليه، والأستاذ أحمد حسن الزيات صاحب مجلة «الرسالة»، والأستاذ عباس العقاد، والدكتور المهدي علام، والدكتور صبري، وغيرهم من رجال الفكر والأدب، ولقد نظم المشرفون على المؤتمر، عدة رحلات قمنا فيها بزيارة كثير من المعالم، والقصور، والمنشآت، وكانت أهم هذه الرحلات زيارة مديرية التحرير، الذي تعد بحق عملا جبارا قامت به حكومة الثورة.

وأثناء هذه الرحلات، كانت الأحاديث تتبادل بين مختلف مندوبي الدول العربية، يسبر فيها غور نهضتها، ويتعرف إلى حقيقة أحوالها، وتكون وسيلة لتحقيق كثير من الأهداف التي نسعى إليها، فمن جملة ما وقع أن الدكتور شوقي ضيف، لما تحدثت معه حول المخطوطات العربية، وذكرت أن خزائن المغرب توجد فيها كنوز، ربما لا توجد في غيرها، طلب مني بإلحاح أن نختار نحن بعض هذه الكتب، ويتعهد هو بطبعها، والنفقة عليها، كما أن السيد أنور السادات رئيس المؤتمر الاسلامي، عندما جرى الحديث معه حول البعثات

العلمية، إلى الخارج، تعهد بل رغب في أن نبعث على نفقة المؤتمر بعض الطلبة المغاربة ليتخصصوا في الميادين العلمية.

وملخص القول أن الاتجاه في مصر، رغما عمالنا عليه من ملاحظات، سائر في تتبيث دعائم الاستقلال، وبناء مستقبل البلاد على أسس صحيحة، ومعرض الانتاج المصري الذي بقي مفتوحا مدة طويلة، أكبر شاهد على ما يبذل من مجهود، في بناء صرح مستقبل مصر، كما أن تعريب البلاد، وتمصير منشآتها أصبح ملاحظا ملموسا.

وقبل أن أنتقل إلى الكلام عن ملاحظتي في العراق، أذكر أن من جملة الشخصيات، التي اتصلت بها، يوجد البطل محمد بن عبد الكريم الخطابي، وابن عبد الكريم معروف بماضيه الوطني الحافل، كما أن مواقفه المتأخرة، وتصريحاته المتناقضة، يعرفها كل من يتتبع الأحوال العامة، المتعلقة بقضايا بلادنا العزيزة ولكني أود أن أسجل أني وجدت في الرجل عاطفة دينية متأججة، وحبا في الخير عميقا، ولو أتيح لنا أن نزيح عنه بعض العناصر المغرضة، التي تستغل قيمته الوطنية الماضية، لفائدتها الشخصية، وأحطناه بعناصر خيرة، تلازمه مدة طويلة، وتشرح له حقيقة الحالة بالمغرب، لَضاعف من أعماله الخيرة للبلاد، وأمنّا شر من يود أن يصطاد به في الماء العكر.

فالقرار الذي اتخذه سيدنا في شأنه، من مساعدته، وإرجاع أملاكه التي غصبها الاستعمار منه، سيكون له مفعول قوي، إن شاء الله ولاشك أن حكمة سيدنا المنصور وتسامحه، سيغلبان على كل الأخطاء، والأغلاط التي تقع من الغير.

في العراق

اما عن زيارتي للبلاد العراقية، فلقد لاحظت أثناء مُقامي بها، انعدام التجاوب بين الحكومة والشعب، بل يلاحظ أن هناك هوة سحيقة، بين الطبقات الشعبية، وقادتها، وبين المسؤولين في الحكومة، وتأكد لي أن كثيرا من العراقيين، غير راضين عن السياسة التي تنهجها حكومتهم، بل ان الملك نفسه أصبح يفقد من سمعته الشيء الكثير، نظرا لسيرها في ركاب الوصي عبد الاله، الذي أصبح غير محبوب بدوره، كما أن كثيرا من المطلعين، يلاحظون أن الانجليز والاميركان

لازالوا يتدخلون في شؤون البلاد، وان اقتصاديات العراق، تحت تصرفهم، يفعلون بها ما يشاءون، ومن جهة أخرى فإن الحكومة العراقية آخذة بخناق الحريات، معتمدة على قوة الجيش، ورؤساء العشائر، فالصحافة لا تستطيع أن تؤدي واجبها على الوجه الأكمل، ولا يمكنها أن تطرق كل المواضيع التي يتعين الحديث عنها، لأنها تتعرض للعقوبات القضائية، أو المادية، التي من جملتها الحرمان من كل المساعدات.

ويلاحظ من جهة أخرى أن الانجليز والحكومات السابقة، لم تعتن الاعتناء اللازم بإصلاحات البلاد، فالطرق غير معبدة، والبدع التي حوربت بالمغرب منذ مدة، لازالت منتشرة والنظافة منعدمة في بعض الأحياء.

على أن اتجاه الحكومة الجديدة، يبشر بكل خير، فلقد أصبحت تستفيد بعض الاستفادة من مداخيل النفط، فأحدثت جسورا فوق دجلة، ورصفت عدة طرقات، وعملت على تكوين وبناء حياة ثقافية جديدة، والقضاء على الأمية، وأسست مدارس متعددة في كل الأنحاء، لتخريج القدر الكافي من المعلمين والأساتذة الذين تحتاجهم العراق، وسوف لا تمضي مدة طويلة حسب ما ذكر لي وزير التربية، حتى يكون بالعراق القدر الكافي من المعلمين الذين تتطلبهم مدارس العراق.

لقد اغتنمت فرصة وجودي بالعراق فاتصلت بالمسؤولين في الحكومة، وتحادثت معهم حول توثيق علاقاتنا الثقافية مع العراق، وشكرتهم على القرار الذي اتخذوه في شأن فتح معهد بفاس، لتخريج المعلمين، كما اتفقت معهم على بعث بعض الأساتذة الذين نحن في حاجة إليهم، ومن جملة الذين اتصلت بهم وزير الخارجية ومساعدوه ووزير التربية الوطنية ورئيس المجلس النيابي بالنيابة، وكثير من المحامين والصحافيين وغيرهم، ولقد تحدثت إليهم عن المجهودات التي يبذلها المغرب حكومة وشعبا، لبناء استقلال البلاد، وعن العراقيل التي نلاقيها، ونتغلب عليها، وعن الحياة النيابية التي مهد لها تأسيس المجلس الوطني الاستشاري، كما تحدثت بتفصيل عن المجهودات المبذولة في الميدان الثقافي، والبرامج التي درستها لجنة إصلاح التعليم، وعن نشاطنا في

مكافحة الأمية، فقدُّروا بإعجاب هذه المجهودات، ودعوا لجلالتكم بالتوفيق وطول العمر.

ويلذ لي بهذه المناسبة، أن أسجل وأنا جد فخور، أن جلالتكم تحظى في البلاد العراقية بحب عظيم، وتقدير كبير، وأن أحد الصحافيين صرح لي، بأنه لو قدر لجلالتكم أن زرتم العراق، لقابلكم الشعب العراقي أعظم اقتبال، رأته العراق، ولوقعت الحكومة في خجل من نفسها، لأنها ستشعر أن مكانتكم تفوق مكانات كل الأشخاص المسؤولين، ورؤساء الدول الذين سبق لهم أن زاروا البلاد العراقية.

في سوريا

أما عن زيارتي لسوريا، البلاد التي تشغل بال العالم الآن، والتي نرجو أن تتغلب على الصعوبات والأخطار التي تحيط بها، فإن الحالة السياسية فيها غير مستقرة تمام الاستقرار، حيث ان الغربيين والأمريكيين بصفة خاصة، يتخوفون من اتجاه الحكومة الحالية ويخلقون لها شتى المصاعب.

والبعثيون القابضون على زمام الحكم، يسايرون سياسة جمال عبد الناصر، ويقولون بتطبيق سياسة قومية عربية، تهدف لتحقيق العدالة والرفاهية للشعب السوري وتمتين علاقات سوريا بالأقطار العربية، ويتألف حزبهم من الاشتراكيين وبعض المستقلين، والشخصية الموجهة له الواضعة لفلسفته شخصية مسيحية، وهم يعتقدون أن رسالتهم الخالدة هي رسالة القومية العربية، وهم من أجل ذلك لا يقولون بفكرة التضامن الاسلامي، والجامعة الاسلامية، بل لا يهتمون مطلقا بالروح الاسلامية، وأهم ما يلاحظ عليهم من خصومهم، أنهم سائرون في الاتجاه الشيوعي وأن تعاونهم معهم فتح الباب في وجه الشيوعية، التي بدأت تنتشر وسط الفلاحين، بصورة مخيفة والحزب الشيوعي مسموح به قانونيا، وله عضو واحد يمثله في البرلمان، ولكن الوضع الحاضر في البلاد السورية أعطاه فرصة مواتية للزيادة في الانتشار وكسب الأنصار.

ورغما من أن البعثيين المذكورين، قابضون على زمام الأمور بيد من حديد،

ويؤيدهم في سياستهم واتجاههم، أغلبية الشباب السوري، فإن الوطنيين القدماء، والطائفة المتدينة في البلاد، ناقمون، وغير راضين على سير الأمور، وينتظرون الفرص المواتية للضغط على الحكومة الحاضرة، والتخفيف من تطرفها اليساري الذي يعتبرونه مخيفا.

والرئيس شكري القواتلي، في مركز حرج جدا، فهو من جهة، يؤيد حكومته التأييد الضروري، ولكنه في الوقت نفسه، لا يود ـــ على ما يظهر ـــ أن يفقد الجانب الآخر، فهو يقلل من الحدة، ما أمكن، ولربما هدد بالانسحاب من الرئاسة، إذا ما رأى البلاد مقبلة على أزمة لا قبل لها بها، وهكذا تطلع الجرائد في كثير من المناسبات منبئة باستقالته من منصب الرئاسة.

إن سوريا، استطاعت أن تخطو خطوات جبارة، نحو تحقيق اقتصاد وطني، يضمن لها الاكتفاء الذاتي، والاعتماد على نفسها في كثير من ضروريات الحياة، وان الزائر يرى كثيراً من المعروضات، صنعت بسوريا، ونسجتها أياد سورية، كما يبحث أحيانا عن بعض المواد الأجنبية، فلا يجدها، لأن صنع أمثالها بالبلاد لم يترك لها المجال في الانتشار والاقبال، وهكذا لا تستطيع أن تظفر بمشروبات أجنبية مثل كوكاكولا، بل تجد عوضها مشروبا سوريا صرفا.

والثقافة منتشرة بكثرة، والمدارس منبثة في جميع الجهات، كما أن الجرائد اليومية، تصدر كل صباح، وبكثرة مبالغ فيها، ففي كل شارع تلاحظ مكتبا لجريدة، أو جرائد متعددة، وفي كل حي لافتة مكتوب عليها اسم جريدة.

وحرية الصحافة مضمونة بسوريا، عكس مصر، فهناك الصحف المؤيدة للحكومة، وهناك المناهضة لها، ولكن الصحف المقروءة بكثرة هي التي تريد الحكومة، وتؤازرها في مواقفها.

والشعب السوري شعب مومن بعروبته، صادق في وطنيته، مخلص في معاملته مشتهر بالكدّ والجد والبحث عن الإمكانيات، أما الإدارات الحكومية والمراكز الوزارية، فهي متواضعة إلى حد بعيد وحتى قصر رئاسة الجمهورية ليست عليه فخفخة كبيرة.

لقد أتيحت لي فرصة زيارة وزير خارجية سوريا، الأستاذ صلاح الدين البيطار،

الذي اقتبلني بمقر وزارته، ودار الحديث بيني وبينه في مواضيع شتى، كلها ترجع للعمل على ربط علاقات متينة بين المغرب وسوريا، في الميادين الاقتصادية، والثقافية، والسياسية، ولقد طلب مني أن ننظم بعثات تزور سورية وأخبرني بأنه سيوجه بعثة من البرلمانيين إلى المغرب، للدراسة والتعرف إلى قادتنا، كما سيستدعي بعض أعضاء المجلس الوطني لزيارة سوريا، والتعرف إليها، وأكد لي أن سوريا مستعدة تمام الاستعداد لمساعدة المغرب، مساعدة كاملة، فيما يتعلق بتزويده بما يحتاجه من أساتيذ وغيرهم، وتساءل لماذا لم يعرج وزير خارجيتنا على سوريا، أثناء سفره إلى ماليزيا، مع أنها كانت فرصة مواتية للمذاكرة في مصالح الأمتين.

ولم يقتصر اتصالي على وزير الخارجية بل اتصلت بكثير من الشخصيات السورية مثل وزير التربية وبعض البرلمانيين، والأساتيذ الكبار، كما عقدت اجتماعين هامين مع طلبتنا بسوريا، الذين يزيد عددهم على 120 طالبا شرحت لهم فيها الحالة في المغرب، وأجبتهم عن جميع الأسئلة التي كانوا جد متشوفين لمعرفة حقائقها، وهؤلاء الطلبة، يتمتعون بسمعة طيبة من لدن أساتذتهم، وكل من يتصل بهم. ويمكننا أن نستفيد من وجودهم، هناك، إنْ زودناهم بجميع ما يحتاجون إليه من وسائل الدعاية، والتبشير، وأثناء مُقامي بدمشق، اتصلت بزعيم تونسي كبير، لعب دورا هاما في الكفاح التونسي ضد الاستعمار، أعني الأستاذ يوسف الروسي، ولقد حدثني أحاديث كثيرة عن الحالة بتونس منتقدا مُر الانتقاد سلوك الرئيس بورقيبة في كثير من أحواله، ومشمئزا من الوسائل الغير اللبقة، التي استعملها في انقلابه الأخير.

والأستاذ الرويسي يعد من أنصار الأستاذ صالح بن يوسف، الموجود حاليا بالقاهرة، وهو أي الرويسي يود زيارة المغرب، ويتساءل هل لا يكون وجوده هنا محرجا لحكومتنا، ولقد ذكر لي أنه تشرف بمقابلة جلالتكم، بإسبانيا فرأى فيها والحمد لله ما يثلج الصدر، ويطمئن القلب، وازداد إعجابا بكم وتقديرا لكفاحكم وأعمالكم ووطنيتكم.

ومادمت بصدد الكلام عن سوريا فلاتم الحديث عنها بما شاهدته في لبنان الجزء الذي لا يتجزأ من سوريا الكبرى.

في لبنان

زرت لبنان مرتين، اتصلت خلالهما بكثير من الشخصيات الكبيرة، مثل شارل مالك، وزير الخارجية، ووزير التعليم، ومدير الجامعة الأميركية الدكتور صروف، ومدير الجامعة اللبنانية، الأستاذ البستاني وغيرهم من الشخصيات البارزة.

ولبناء بلد عربي صميم، تثقف أبناؤه ثقافة واسعة، ولا تكاد تجد فيه أي أمّيّ، ولكن وجود كثرة المسيحيين العرب فيه، جعله يسلك سياسة خاصة، وجعل التجاوب قليلا بينه وبين مختلف الأقطار العربية الأخرى، إذ أن المسيحيين يشعرون وإن كانوا لا يصرحون بذلك، بأن مصلحتهم تقضي عليهم بانتهاج طريقة تحفظ لهم كيانهم ووجودهم، وحكومة لبنان لا تتمتع برضى جميع الطبقات بل هناك معارضة قوية، ومن أشخاص محترمين، مشهورين بماضيهم المجيد، وأعمالهم الخالدة.

اتفقت مع الحكومة اللبنانية على إمداد المغرب، بأساتيذ ومعلمين، واشترطت ان يكون هؤلاء أكفاء حتى يسهل عليهم أداء مأموريتهم وأثناء أحاديثي مع الشخصيات المسؤولة كنت ألاحظ تحبيذا للخطة السياسية الحكيمة التي يسير فيها المغرب في عهده الحاضر.

في الأردن

أما عن الأردن فقد كانت زيارتي إليها عابرة، حيث لم أمكث بعمان إلا ليلة واحدة، كما أن مقامي بالقدس الشريف، لم يطل كثيرا، ورغما عن ذلك فقد أمكنني الاطلاع على أحوال إخواننا الفلسطينيين الذين يعيشون مشردين، مبعدين، عن ديارهم، فشاهدت أكواخ اللاجئين وخيامهم، ولاحظت ما فعلته الصهيونية الماكرة بإخوان لنا لحما ودما، وقمت بعدة اتصالات مع شخصيات عربية حرة، تحدثت إليها عن الأحوال في المغرب واستمعت إليها وهي تتحدث بمرارة وألم، عما يقاسيه إخواننا هناك من كرب وبلاء.

إن الحالة بالأردن، تدعو إلى الاشفاق، فالأمة منقسمة على نفسها فهناك أنصار الحكومة الحاضرة، وأغلبيتهم من العسكريين، والعلماء، ومن نحا نحوهم،

يذكرون حكومة النابلسي، وأنصارها بكل قبيحة، ويتهمونها بالشيوعية، والمروق من الدين، وهناك من جهة أخرى أنصار النابلسي، وشيعته من المثقفين، ومن يؤيدهم يتهمون الحكومة الحالية بكل مكروه وينعتونها بكل منكر من القول، ويتربصون الدوائر للقضاء عليها، والرأي العام يتماوج بين هؤلاء وأولئك، والصهيونية تغتنم الفرصة، لتثبيت أقدامها بتلك الديار.

ولقد شكا لي أحد المسؤولين من هذه الحالة، وذكر لي أنه يتمنى لو أتاحت الظروف لملكنا، زيارة تلك البلاد، فتتدخل في الخلاف، وتتوسط في حسم النزاع، وتسعى في إصلاح ذات البين، وإرجاع المخطيء إلى الصواب، إذا لسجل صفحة مجيدة أخرى، إلى صفحاته، ولأضاف حسنة جديدة إلى حسناته.

وبعد فهذا عرض موجز عن ارتساماتي في الديار المشرقية، كنت أتمنى أن يكون أكثر تفصيلا، وأعمق بحثا، لولا أن الظروف لم تساعد على ذلك، فعسى أن تكون فيه فائدة، وعسى أن يتقبله جلالة ملكنا ورمز كياننا وقائد نهضتنا بعين الرضى وعدم المؤاخذة والسلام.

سبتمبر 1957م

ملتمس إلى جلالة الملك المنعم سيدي محمد الخامس

كما ذكرت في الرسالة التي قدمت بها تقريري إلى جلالة الملك محمد الخامس، بعد رجوعي من الديار المشرقية، بعد أداء فريضة الحج وذلك سنة 1957، رجوت منه في الوقت نفسه، أن يلتفت التفاتة خاصة، للحياة الدينية ببلادنا، بعد تحريرها من قبضة الاستعمار، فطلب مني أن أزوده ببعض المقترحات في الموضوع، فلم يسعني إلا أن ألبي رغبته، فأصحبت تقريري عن رحلتي، بهاته الاقتراحات المتعلقة بضرورة الاهتمام بالتوجيه الاسلامي السليم، لبناء مجتمعنا على الأسس الصحيحة التي تنشد التقدم في مختلف الميادين الحضارية. وهذا نص التقرير الذي رفعته إليه في الموضوع.

إن المغرب في عهده الجديد، يجتاز مراحل مباركة، في بناء مستقبله السعيد، وهو سائر على النهج القويم، فيما يتعلق بوضع أسس ثابتة، لبناء هذا المستقبل.

ورغما من الصعوبات التي وجدها أمامه، والتي خلفها نظام استعماري، كان يهدف لصالح جالية أجنبية، دون غيرها، فإنه برهن على أنه كفء للتغلب على هذه الصعوبات، والقضاء على كل العراقيل، وذلك يرجع لتوجيهات صاحب الجلالة الحكيمة، وعمل حكومته المخلصة، وتضامن مختلف الطبقات الشعبية.

جانب من الحياة المغربية يتطلب العناية

ولكن جانبا من الحياة المغربية، لم يلق لحد الساعة الاهتمام الذي يستحقه، ولم تعط له العناية الكافية، ونخشى إن نحن أهملناه وتقاعسنا على العمل لفائدته، أن نندم ساعة لا ينفعنا الندم، وهذا الجانب هو الجانب الديني في الشعب المغربي، فالمغرب كان أمة لها ذكر في التاريخ، لتمكن العقيدة الاسلامية من قلوب أبنائها، واستماتتها في الذود عن هذه العقيدة، وعملها على نصرتها والوفاء لها، والمغرب استطاع أن يتغلب على عصبيته الجاهلية، ونعرته القبلية، عندما تمكنت عقيدة الاسلام من قلوب أبنائه، وخالطتها بشاشة الإيمان، فأصبحت هي المتحكمة في نفوسهم، الموجهة لهم، المسيّرة لأعمالهم، وهكذا رأينا أبطالنا في التاريخ من ملوك، وعظماء، يعدون في طليعة من هبوا لنصرة الاسلام، وبث مبادئه، والاهتداء بهديه، والتمسك بسننه.

وهذا التمسك بالاسلام والتمكن من العقيدة، هو الذي حمى المغرب من الاغارات الظالمة المتكررة، التي كانت تقع عليه من خصومه، وجعلته يحتفظ طوال الأحقاب التاريخية، بكيانه وصولته، واستقلاله، بل ينافح عن جيرانه، ويحمي أشقاءه، وإخوانه، من إغارات خصومهم، الذين كانوا يتربصون بهم الدوائر.

وعندما وطئت أقدام الاستعمار هذه التربة المباركة، اتجهت أول ما اتجهت لتحطيم المقومات الاسلامية، والحط من سمعة الإسلام، في صفوف أبنائه، ليسهل عليها ابتلاعه، والقضاء عليه، إن زال من طريقها هذا السد المنيع، الذي يحميه، ولسنا بحاجة للتدليل على ما قلناه، فنظرة بسيطة لبرامج التعليم، ومحاكم القضاء، وكل ما يمت إلى الاسلام بصلة، توضح لنا ماذا كان يقصده الاستعماريون في أعمالهم، وبرامجهم، وما يبيتونه من مكر، وخديعة للاسلام، والمسلمين، بهذه الديار.

ولولا أن شعبنا والحمد لله، شعب متدين بطبعه، متمسك بعقيدته، لكانت العاقبة غير محمودة، ولكان المصير محزنا، ولكنا مع ذلك لا نستطيع أن ندعي أن الاستعمار وأعوانه، لم يستطيعوا أن يؤثروا في بعض الطبقات القليلة، التي لم يسعدها الحظ بالاطلاع على تعاليم الاسلام، ولم يستضيء قلبها بنور الإيمان، هذه الطبقة التي أصبحنا نراها تنظر إلى الاسلام نظرة، إن لم يكن فيها ازدراء، فهي على الأقل، نظرة اللامبالاة، وعدم الاهتمام والاعتبار، بل ربما تجاوز الأمر عند بعضها، أن صارت تعتبر الدين قضية لا تهم الدولة، ولا الأمة، في شيء وانها قضية شخصية، لا ينبغي لنا أن نعيرها أي التفات، متصورة أن الاهتمام كل الاهتمام، ينبغي في الأول والأخير، أن يعطي لِلتَّقدم المادي، والحضارة الميكانيكية حتى يستطيع المغرب أن يسير في ركاب الأمم المتحضرة، ويتدارك ما فاته من وسائل وأسباب النهوض.

الحذر من قشور الحضارة

اننا لا ننكر على هذه الطائفة، من أن الواجب يقضي علينا، أن نأخذ من الحضارة الغربية المادية، كل ما يعرج بأمتنا في ميدان الرقي، وييسر لنا أسباب التقدم، ولكننا في الوقت نفسه، لا نود أن نرتمي في أحضان هذه الحضارة المادية، فنقع فيما وقع الغربيون، من تجرد عن كل ما ليس بمادي، ونفقد كما فقدوا، كثيرا من المزايا الخلقية، التي تعلو بالانسان إلى مراتب الكمال، اننا لا نود أن تصبح لدينا أفكار الخير والحق والعدل والتسامح مثلا عبارات تلاك بالألسن، ولا تنم عن حقيقة واقعية، وإنما يقصد بها التضليل والدعاية، بل اننا بالعكس من ذلك، نريد أن نحتفظ لهذه الكلمات بمدلولاتها، ولا يمكننا ذلك إلا إذا حرصنا كل الحرص على تثبيت الوازع الديني في النفوس، وتركيزه في القلوب، وصيانته من عبث العابثين.

إننا يامولاي منذ هيأنا الله لخدمة شعبنا، وملكنا، جعلنا من جملة أهدافنا الأساسية، ومبادئنا العملية، التي عاهدنا الله على الوفاء والاخلاص لها، هي الدفاع عن ديننا، ونصرته بكل ما نستطيعه من حول وقوة، إذ كنا نعتقد، ولازلنا أن ديننا الحنيف، دين تهذيب للنفوس ورفع لقيمتها، كما أنه دين سياسة ونظام وعمل.

ورغما عما كنا نصادفه في طريقنا من الحواجز والأشواك، من طرف الاستعمار، كنا نعمل ما نستطيع، ونتطلع إلى ذلك اليوم الذي نصير فيه أحرارا في بلادنا، أعزة في ديارنا، لننشيء دولة جديدة، تتمثل فيها تلك الصور الحافلة عن ماضي الاسلام، وما كان له من عز وقوة ونظام، وما ساعد عليه من حضارة وعمران، وما عمل عليه من رفع من مكانة البشرية، والسمو بها إلى العلياء، ونعمل على الاهتداء بهدي القرآن، فنعرض عليه جميع أعمالنا، وتشريعاتنا، لنرى هل نحن ناهجون نهجه، مهتدون بهديه، أم إن حظنا من الاسلام، هو في مجرد الانتساب إليه، والادعاء أننا من أتباعه.

إن الاسلام الذي ندعو إلى التمسك به، والسير على هديه، ليس كما يفهمه خصومه الملحدون، أو محاربوه الجامدون، وإنما هو الاسلام الذي أتى به القرآن، والذي كان العامل الفعال المؤثر، في حياة الأمة العربية وغيرها من الأمم، يدفعها دائما إلى جلائل الأعمال، ويهذب نفوسها، ويدعوها للعمل، واستخدام ما وهبها الله من عقل، وتفكير، فيما يعود بالخير على العباد.

تصميم مدروس يثبت تركيز المبادئ الاسلامية في المجتمع

إننا نرى من واجب الأمانة، لهذا الشعب النبيل، وملكه العظيم، أن نرجو من جلالته باعتباره أمير المومنين، وراعيها الأمين، أن يلتفت التفاتة خاصة لهذه الناحية، التي تتطلب الاصلاح والتوجيه، فيضيف حسنة تضاف لحسناته، التي يلقى جزاءها عند ربه، ويشعر الجميع أن هذا القطر مسلم، وسيبقى مسلما، قولا، وعملا، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وأن يأمر، وأمره المطاع بوضع تصميم يكون من شأنه تثبيت أركان الاسلام، وعقائده بهذه الديار، وتوجيهها توجيها إسلاميا صحيحا، يقضي على الالحاد، والزندقة، من جهة، وعلى الجمود والتخريف من جهة أخرى، ويركز الوازع الديني في النفوس وينشيء الجيل الجديد، تنشئة إسلامية صحيحة.

إننا لا نحتاج إلى تأكيد ما يفعله الوازع الديني في النفوس، من حب للخير، وابتعاد عن الشر، وتعلق بالمبادئ المثلى، ونضال في سبيل السعادة الانسانية، وخير المجموع، فإن العظماء الذين خبروا الحياة، وامتحنوها، وأقاموا الدول

وأسَّسُوها، قد رَأوْا ما للعامل الديني من أهمية، في تكوين الشعوب وتماسكها، وضمان تقدمها، ويكفي للتدليل على ما نقول، الاتيان بكلمة فاه بها مؤسس الدولة الأميريكية العظيمة جورج واشنطون في خطابه الوداعي حيث قال :

«إذا نظرنا في الميول والعادات، التي تقود إلى النجاح السياسي، وجدنا الدين والأخلاق أكبرها شأنا، وأشدها لزوما، لذلك النجاح وأنه لا يستحق أن يوصف بوصف الوطنية، من يحاول أن يهدم هذه القمة العظيمة للسعادة الإنسانية، هذه الدعائم التي تسند السلطان الواجبات بين الناس والمواطنين، فالسياسي، والرجل الصالح، كلاهما ينبغي أن يحترم هذه الدعائم، ويحافظ عليها إلى أن يقول : أين يوجد الضمان للناس في ملكهم، وسيرتهم، وحياتهم، إذا اختفى روح الوازع الديني من الإيمان، التي هي أدوات البحث في محاكم العدالة ؟ وهبنا سمحنا لأنفسنا أن نفترض أنه يمكن المحافظة على الأخلاق من غير الدين، فمهما يكن تأثير التربية التثقيفية على بعض العقول، فإن المنطق والتجربة يمنعاننا أن ننتظر أن يسود سلطان الأخلاقية القومية بدون المباديء الدينية» هذا ما يقوله جورج واشنطون في الدين المسيحي، فكيف القول في الدين الاسلامي الذي اعترف الجميع، أنه أكثر مرونة، ومسايرة للحياة، كما أنه صالح لكل زمان ومكان.

اهتمام المسيحيين بشبيبتهم

لقد لاحظت يامولاي أثناء زيارتي لبعض الأقطار الأوربية، ان القوم مهتمون أشد الاهتمام بقضايا دينهم، عاملون على تثبيت قواعده، وأصوله، رغم ما نسمعه عنهم، من تعالٍ عن الاشتغال بقضايا فات وقتها. وآخر ما رأيته أثناء زيارتي لروما، تنظيم مؤتمر للشبيبة العاملة المسيحية شاركت فيه آلاف الشبيبة المسيحية، من فتيان وفتيات، ممثلة لكل الهيآت، من الشبيبة المسيحية في العالم، ودرست فيه مواجهة الأفكار الالحادية، وما تتطلبه المسيحية من تجديد، وإصلاح للمحافظة على روحها، ودرء الأخطار المهددة لها، هذا في الوقت الذي تنظم فيه الدعاية الاستعمارية ضد الاسلام، بدعوى أنه لم يبق صالحا لركب الحضارة العصرية، وان التقدم والتطور، يتطلبان الانسلاخ النهائي من أفكاره الرجعية العتيقة.

إن الاسلام يامولاي يعتبركم راعيه الأمين بهذه الذيار، واننا نعتقد مخلصين، أنكم أحد أولئك المجددين المخلصين الذين أشار إليهم جدك في حديث صحيح من أن الله يعبث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها، فسيروا أيها الامام العظيم، في نهجكم وسيرتكم المثلى، وبلغوا الرسالة التي حملكم الله إياها، من التمسك بشريعة جدكم الأعلى، واعتقدوا أن الله الذي عودكم النصر والتوفيق، سيكون أكبر عون لكم في أداء رسالتكم وسيكون معكم ولن يتركم أعمالكم.

انني أقترح على سيدنا المنصور أن يغتنم فرصة هذا المولد الشريف، فيلقي خطابا يذكر فيه شعبه بأمجاده، ويدعوه إلى اتباع سنن أسلافه، ويحض شباب هذه البلاد بنوع خاص على دراسة الاسلام والتعرف إلى أسراره.

دور العمال والمسؤولين في الحفاظ على الروح الاسلامية

كما يامر العمال والنواب، وكل المسؤولين بالسير في النهج القويم، والضرب على أيدي المخالفين والمستهترين، وان يأمر بتأسيس مجلس يضم خيرة من الشباب المثقف المسلم الغيور، ويكون تابعا لوزارة الأوقاف مثلا، وتكون مهمة هذا المجلس موجهة ومرشدة من جهة، ومتتبعة لكل المخالفات والمصادمات، التي تقع ضد الاسلام من جهة أخرى، كما تدرس الوسائل التي من شأنها أن تنهض بالروح الاسلامية، بهذه الديار، وتبلغ الجميع لسيدنا المنصور، ليأخذ فيه رأيه ويعمل فيه واجبه، باعتباره الراعي الأول لهذه الأمة المحظوظة بوجوده حفظه الله ونصره.

إن سيدنا إذا فعل، سيكون قد احتاط للأمانة التي طوقه الله إياها، وسيقضي إن شاء الله على كل مظاهر الانحلال الخلقي، ويجعل من أمته أمة صالحة وسطا، يباهي بها الأمم الصديقة وغيرها، وتمتاز عن غيرها بأنها استطاعت بوجوده أن تحافظ على مقوماتها، وتعمل لدينها كما تعمل لدنياها وما ذلك على همة ملك مخلص مومن بعزيز.

وفق الله مولانا الإمام، وحفظه في ولي عهده الشهم الهمام وجميع أنجاله الكرام وعلى تمام الطاعة والولاء والسلام.

شتنبر 1957

رحلتي مع سمو ولي العهد المحبوب
الأمير سيدي محمد إلى الديار المقدسة

في عام 1986، سعدت بأن أكون ضمن الوفد الذي قرر جلالة الملك الحسن الثاني أن يرافق صاحب السمو الملكي الأمير سيدي محمد ولي العهد في زيارته للمملكة العربية السعودية. وبعد العودة من هذه الرحلة نشرت في جريدة «العلم» 25 حلقة حول هذه الرحلة المباركة أفضت فيها في الحديث عن الحرمين الشريفين وما يتصل بهما من ذكريات، وما يرتبط بهما من مآثر تاريخية. وعن زيارتي لبعض المنشآت المدنية والعسكرية، وعن مظاهر العمران والتقدم التي تعيشها المملكة السعودية في عصرها الحاضر.



جلالة الملك الحسن الثاني محفوفاً بولي العهد الأمير
سيدي محمد وصنوه الأمير مولاي رشيد

1 ـ في مدينة الرياض

كانت الرفقة التي حظيت بها مع سمو ولي العهد الأمير سيدي محمد إلى المملكة العربية السعودية الشقيقة، مناسبة للتعرف على النهضة الشاملة والتطور الكبير الذي تشهده المملكة السعودية.

والواقع أن الزائر للمدن السعودية الكبرى والصغرى ينبهر كل الانبهار لهذا التقدم الذي يلاحظ في مختلف المجالات، سواء منها العمرانية أو الاقتصادية أو التجارية أو الثقافية أو غيرها.

لم تتح لي الأقدار أن أزور مدينة الرياض إلا مرة واحدة في عهد الملك الشهيد، فيصل بن عبد العزيز رحمه الله، وكانت زيارة خاطفة حيث اقتصرت على السلام عليه في قصره، ثم مغادرة «الرياض» بعد ذلك. ولذلك فإن الطائرة التي كانت تقل صاحب السمو الملكي الأمير سيدي محمد ونحن معه، عندما حطت بمطار الملك خالد الدولي بالرياض، كانت بداية التعرف على هذه المدينة العظيمة التي صادف الحال أنها تحتفل بعيدها الذهبي.

ومدينة الرياض التي تعتبر عاصمة المملكة العربية السعودية، نمت نموا عظيما، سواء من حيث مساحتها، أو من حيث عدد سكانها، أو من حيث عمرانها ومنشآتها ومؤسساتها.

لقد كانت مساحتها حوالي 85 كلم مربعا أواخر الستينات، فأصبحت الآن تقترب من ألف وستمائة كلم، وكان عدد سكانها أوائل السبعينات مائتين وخمسين ألفا، فأصبح الآن يقرب من المليون والنصف، ويقول المسؤولون : إن رخص البناء التي تصدرها مصالح البلدية، تقدر بمائة رخصة في كل يوم.

لقد أصبحت «الرياض» هي المركز الأساسي للحياة السياسية، بعدما خصص حي راق في المدينة، أصبح مركز جميع البعثات الديبلوماسية، هيئت فيه جميع المرافق الأساسية والخدمات التي تتطلبها راحة المقيمين والساكنين،

فشجرت طرقاته وممراته بالنخيل، وشيد فيه فندق ممتاز، وبنيت فيه مقرات للمنظمات والهيآت التي تدعو الضرورة إلى توثيق اتصالها بالسفارات، كالأمانة العامة لمجلس التعاون لدول الخليج العربي، والمعهد العربي لانماء المدن وغير ذلك. لا أستطيع أن أعطي نظرة كاملة عن مدينة الرياض، فلم يتيسر لي أن أزور معالمها ومرافقها المتعددة، ولكني مع ذلك لابد أن أشير إلى أنه توجد «بالرياض» معلمتان ثقافيتان مهمتان، وصرحان علميان كبيران، هما : جامعة الملك سعود، وجامعة الامام محمد بن سعود، وهاتان الجامعتان تؤديان دورهما الثقافي والعلمي كاملا، وهما مزودتان بكل ما يحتاج إليهما الطلبة والطالبات من أماكن للسكن، وقاعات للاجتماع، ومطاعم للأكل إلى غير ذلك من المرافق الضرورية.

ومن جملة الكليات الموجودة بجامعة الامام محمد بن سعود : كلية الشريعة وكلية أصول الدين وكلية اللغة العربية وكلية العلوم الاجتماعية والمعهد العالي للقضاء والمعهد العالي للدعوة الاسلامية.

أما مطار الملك خالد الدولي، فإني عاجز حقيقة أن أصفه، إذ أنه يعتبر آية في الابداع الفني والتشييد الحضاري والتطور المعماري والتحديث التقني.

إنه قطعة فنية ستبقى خالدة على مدى الأيام، والذين أتيح لهم أن يشاهدوا أو يمروا من مطار جدة الدولي، وينبهروا مما يجدون فيه من آيات الفن المعماري، سيندهشون أكثر لما يرون في مطار «الرياض».

لقد أسس مطار «الرياض» الدولي ليمكنه أن يؤدي خدماته لعشرين مليونا من الركاب في السنة، وفيه مدرجان للرحلات الداخلية وصالة ملكية تبهر بزخرفها وسعتها وجمال ذوقها كما أن فيه مسجدا عظيما قالوا إنه يتسع لخمسة آلاف مصل.

في مطار «الرياض» الدولي استقبل صاحب السمو الملكي ولي العهد الأمير سيدي محمد من طرف الأمراء والوزراء وعلية القوم وكان على رأس المستقبلين سمو الأمير عبد الله بن عبد العزيز ولي عهد المملكة العربية السعودية ونائب رئيس مجلس الوزراء ورئيس الحرس الوطني الذي كانت تظهر على ملامحه

علامات الانشراح والانبساط والسرور بهذه الزيارة التي قام بها إلى الديار السعودية ولي عهد المملكة المغربية.

لقد كان الطقس في الرياض معتدلا ومنعشا، ولم نشعر أبدا بحرارة زائدة، ولا ببرد قارس، إذ كان الظرف ظرف ربيع، وهو أنسب الأوقات لزيارة مدينة «الرياض».

كان اليوم الثاني لاقامة صاحب السمو الملكي ولي العهد سيدي محمد بالديار السعودية مخصصا لحضور المهرجان الشعبي الذي أقيم في «الجنادرية» القريبة من مدينة «الرياض».

ولقد ترأس هذا المهرجان جلالة الملك فهد بن عبد العزيز، وجلس عن يمينه ولي عهدنا المحبوب.

وهذا المهرجان يعتبر الثاني من نوعه في المملكة العربية السعودية، حيث تقررت إقامته إحياء للتراث الشعبي والثقافي وينظمه الحرس الوطني الذي يترأسه الأمير عبد الله بن عبد العزيز ولي عهد المملكة العربية السعودية.

لقد ابتدأ المهرجان بكلمة ألقاها رئيس الحرس الوطني المساعد الأستاذ عبد العزيز عبد المحسن التويجري قال فيها : «إذا كان ما نلتقي عليه اليوم من تراث الآباء والأجداد، يلقى على الذاكرة تداعيا أعمق من ملامح الصورة التي حاول أبناؤكم الذين حضروا إلى هنا من جميع أنحاء المملكة أن يعبروا عنها، فعجزوا أن يستحضروا في يومهم هذا عن أمسهم أكثر مما هو موجود الآن، فإن الطريق الطويل الملئ بالكنوز الثمينة من تاريخ الآباء والأجداد، سيكون حافزا كبيرا لهذا الشباب وتحت رعاية جلالتكم».

ومن خلال ما وقع استعراضه ومنه سباق الهجن، يستطيع الانسان أن يتعرف على بعض تراث الماضي وتقاليد الأقدمين ووسائل أعمالهم، وطرق استخدامهم «للدلو» و«السانية» وامتطاء ظهر الجمل والاعتناء بالأرض والرقص على أنغام المزمار، ويستمع إلى الأهازيج البدوية التي كان يتغنى بها السابقون، ويلاحظ البيوت المبنية من الطين، والخيمات المنسوجة من الشعر واحتفال القوم بحفظة القرآن وأغانيهم للتلاميذ والطلبة وتمنطقهم بالسيوف ومساجلاتهم الشعرية الهزلية إلى غير ذلك من أنواع وأشكال الحياة التي كان يحياها أهل القرى.



سمو ولي العهد سيدي محمد بالمسعى في شهر مارس 1986 ويظهر في الصورة المؤلف، وكاتب الدولة في الخارجية الأستاذ أحمد الشرقاوي، والجنرال عبد الحق القادري، ومؤرخ المملكة الأستاذ عبد الوهاب ابن منصور، والحاجب الملكي السيد إبراهيم فرج، وغيرهم من رفقاء صاحب السمو الملكي.

إن الأغنيات التي يتغنى بها البدويون الأصلاء والرقصات التي يرقصونها، لا يشارك فيها النساء لا من قريب ولا من بعيد بعكس ما يوجد لدى بدويينا في مختلف مناطق المغرب.

لقد كانت العروض الفلكلورية التي عرضت أمام صاحبي السمو الملكي الأمير عبد الله بن عبد العزيز والأمير سيدي محمد متنوعة ومتعددة وفي إحدى هذه العروض التي قامت بها فرقة من رجال الحرس السعودي والتي تستعمل فيها رقصات بديعة بالسيوف، قام سمو الأمير عبد الله من أريكته التي كانت بجانب ولي العهد سيدي محمد وقصد توا مكان المصارعة أو المبارزة فأخذ سيفا من السيوف المعلقة ودخل في وسط المتبارزين الراقصين، ليؤدي بدوره رقصات ممتعة على النغمات التي كانت تشنف الأسماع، وإن دل هذا على شيء فهو يدل على الخصال الأخلاقية الفطرية التي يتمتع بها ولي عهد المملكة السعودية والانشراح الذي كان يشعر به وهو يستقبل أخاه ولي عهد المملكة المغربية.

إن المهرجان الوطني للتراث والثقافة بقرية «الجنادرية» يعطي صورة واضحة المعالم عن حياة وأصالة الانسان العربي في تلك الديار، ويذكر الجيل الجديد بالحياة التي كان يحياها أسلافه الأقدمون، والخصائص التي كانوا يختصون بها.

وما من أمة من الأمم إلا ولها خصائصها وأصالتها وتراثها، عليها أن تتعرف عليها، وتستمد منه، وتعمل على إحيائها، لأن في إحيائها إحياء لشخصيتها وذاتيتها على مر الزمان.

2- النموّ الاقتصادي في المملكة السعودية

التطور الذي تعيشه المملكة العربية السعودية ليس مقتصرا على مجالات العمران والتجارة والتثقيف، ولكنه يتجه بعزيمة إلى النمو الاقتصادي وتنويعه وتعدده. فمن المعلوم أن النمو الاقتصادي الذي شاهدته المملكة منذ سنوات عديدات، كان يعتمد أساسا على البترول الخام وتصديره إلى مختلف الجهات، ولكن المسؤولين أدركوا أنه لابد أن يأتي اليوم الذي يتناقص فيه الزيت الخام ويصير إلى نضوب ونفاد، كما أنه من الممكن أن يقل الطلب عليه، وتضعف سوقه التجارية، فلابد إذن من التفكير فيما يعوضه، ولابد من وضع برنامج تصنيع سريع يهدف إلى تطوير وخلق منتجات أخرى تساعد وتقوي المنتجات الزيتية، وتضمن النمو الاقتصادي المستمر للمملكة.

وهكذا أسست هيأة ملكية مستقلة، أسندت إليها مهمة تطوير المنتجات الزيتية وخلق الصناعات الأساسية والثانوية والمساندة والخفيفة.

وهكذا عملت هذه الهيأة على توفير التجهيزات الأساسية في كل من مدينة «الجبيل» الصناعية الواقعة على ساحل الخليج العربي، ومدينة «ينبع» الصناعية الواقعة على البحر الأحمر والقريبة من قناة السويس حيث الطريق ميسرة إلى الأسواق العالمية.

لقد شيدت هاته المدينتان في ظرف قصير، وأسست فيهما المصالح المختلفة، وزودتا بجميع المرافق التي تتطلبها مدينتان عصريتان صناعيتان متوفرتان على جميع الامكانيات، من دور للسكنى ومدارس للتعليم ومستشفيات ونواد للرياضة وأحواض للسباحة، وطرق معبدة، وتشجير في الطرقات إلى غير ذلك من وسائل الترفيه والتنشيط. وفي مدينة «الجبيل» بدأ العمل في التصنيع فصارت معاملها تنتج وتسوق مواد رئيسية إلى مختلف أنحاء العالم، مثل «الميثانول» و«اليوريا» و«الكبريت» و«الايشلين» و«البولي ايشلين» إلى غير ذلك من أنواع الصناعات الكيماوية.

لقد أصبح استغلال الغاز في الأغراض الصناعية ضروريا ونافعا للمملكة، حيث أصبح مصدرا من مصادر ثروتها الاقتصادية وذلك باستخدامه كمصدر للطاقة اللازمة لبعض الصناعات بالاضافة إلى استعماله كمادة أولية للصناعات البتروكيماوية.

ان برنامج التصنيع في المملكة السعودية يهدف كما يشرح ذلك المختصون إلى استمرار تحسين المستوى المعيشي للمواطن السعودي، وذلك بـ :

1) يرجع القيمة الاقتصادية لاحتياطات المملكة من الثروة النفطية.
2) بتنويع وزيادة الصادرات.
3) بتوسيع توظيف المواطنين السعوديين.
4) ينشر التقنية المتطورة والأساليب الادارية الحديثة.

وفي مجال توظيف وتطوير الشباب السعودي لابد أن أشير إلى أن الهيأة الملكية المكلفة بالتنمية الاقتصادية أسست معهدا لتنمية القوى البشرية الذي سيتخرج منه ما يزيد على آلاف من الطلاب كل سنة بعد أن يتدربوا على مختلف المهارات (والتي تغطي سبعة تخصصات يتم تدريسها بالمعهد) وقامت الهيأة المذكورة (بإعداد برنامج لتطوير كفاءة الشباب من خريجي الكليات في جميع المجالات مثل الهندسة التطبيقية والعلوم والادارة العامة والتعليم والطب والقانون وذلك لتشغيل وإدارة المدينتين الصناعيتين).

إن المنطقة التي أسست فيهما المدينتان الصناعيتان : «جبيل» و«ينبع» كانتا غير متوفرتين على الضروريات الأساسية لتأسيس مدن، كما أنهما غير مؤهلتين للعمل بسبب فقدان السكان وعدم وجود متساكنين، ولذلك كان من الأولويات الضرورية، العمل على إنتاج الطاقة والبحث عن المياه وتوزيعها في المنطقتين لضمان عيش السكان، وهكذا شرع في تشييد محطة تحلية لمياه البحر، ثم العمل على إنتاج الطاقة الكهربائية بواسطة مولدات التوربين الغازية، ثم تشييد شبكة للتبريد بواسطة مياه البحر والتي ستعطي بعد انتهائها ما مقداره أربعمائة ألف متر مكعب من مياة البحر كل ساعة، وهكذا بعد الحصول على

الطاقة والمياه سيشرع بناء على المخطط الموضوع في إنشاء سبع صناعات أساسية في مدينة «ينبع» (1) محطة الزيت الخام النهائية (2) معمل الغاز الطبيعي السائل (3) المصفاة المحلية (4) مصفاة التصدير الدولية (5) مجمع البيتر ← وكيماويات (6) مصفاة زيوت التشحيم (7) معمل تصنيع المعادن.

إن تصدير الزيت الخام السعودي إلى الخارج أصبح يعتمد على الناقلات الضخمة السعودية التي تعبر الخليج العربي كطريق لمرور منتجاتها إلى أسواق العالم، والتي أصبحت تشتغل بعدما اكتملت جميع التجهيزات الأساسية البحرية التي يتطلبها التصدير.

والواقع أنه من الصعب علي في هذه العجالة أن أعطي صورة كاملة عن هاتين المدينتين الصناعيتين الهامتين وما أنشئ فيهما من مرافق ومصانع ومساكن، وما زودتا به من مساكن وشبكات للاتصالات الداخلية والخارجية. وما أحدث فيهما من طرقات وأسواق وموانئ ومراكز إنها في الواقع معجزة أن تتحول الصحراء القاحلة إلى أرض مغروسة، ومعامل مشتغلة، وأياد عاملة، ونشاطات مستمرة، انهما مدينتان نموذجيتان للعمل والتصنيع وجمال الهندسة وحسن الترتيب والتشجيرّ والاعتناء بالنظافة.

لقد استقبل ولي العهد ومرافقوه بكامل الاعتناء والحفاوة من طرف المسؤولين في المدينتين، ولقد ألقى مدير المجمع الصناعي لينبع كلمة أمام سمو ولي العهد المحبوب، تفيض بالمحبة والتقدير. ولقد جاء في هذه الكلمة القيمة مايلي : كيف أرحب بكم في هذا الجزء الصغير من الكيان الكبير في وطنكم الثاني كيف أرحب بكم، وأنتم اخوة لنا، لم تلدكم أمهاتنا ـــ وأحمده أن كلمة التوحيد واللغة والتاريخ ووحدة المصير قد جمعت بيننا، مهما تباعدت المملكة العربية السعودية عن شقيقتها المملكة المغربية جغرافيا، إلا أننا نشعر أنكم أقرب إلينا من حبل الوريد. وبعد أن تحدث عن الأسباب التي دعت إلى تأسيس المجمع الصناعي، والانتقادات التي كانت توجه إلى المسؤولين عندما قرروا الدخول في مرحلة التصنيع قال : منذ عشر سنوات، بدأت القيادة تبحث عن تنويع مصادر الدخل القومي، بدلا من الاعتماد على مبيعات البترول الخام فقط، فبرزت فكرة تصنيع البترول وإيجاد صناعات أخرى، تتوافر لها المواد الخام

اللازمة لها إلى أن يقول : «وعلى بركة الله بدأت المسيرة من صحراء عذراء لم يعبث بها إنسان. أما بالنسبة للصناعات الأولية فقد تم بناؤها اما عن طريق جهات حكومية مثل بترمين وسابك منفردة، أو مشاركة مع من اقتنعوا بجدية القول منا، اما الصناعات الثانوية والمساندة فقام بها القطاع الخاص.

لقد بدأنا من حيث انتهوا، فأتينا بأحدث ما توصلوا إليه في عالم التقنية. وفي بعض الأحيان لم يقوموا هم بتطبيق هذه التقنية في ديارهم، والتي تتولاها أيد سعودية.

واليوم تغزو منتجاتنا الصناعية من مشتقات البترول والبيتروكيماويات أسواق العالم، بعد أن كانت حلالا عليهم حراما علينا، ثم أشار إلى بعض المنشآت التي أنشئت في المجمع فقال : أنشئ مجمع ثلاثي هو الوحيد من نوعه في العالم لتوليد الطاقة وتحلية المياه بصفة دائمة، وتبريد المصانع بمياه البحر.

أنشئ ميناء الملك فهد الصناعي ليصدر منه البترول الخام ومشتقاته والبتروكيماويات بأنواعها والمنتجات الصناعية المختلفة وليستقبل ما تحتاجه المدينة صناعيا.

إن المياه في كافة المنازل والمرافق الحكومية باختلاف أنواعها تسخن بالطاقة الشمسية بالاضافة إلى الكهرباء، وهذه أول مدينة في العالم العربي إن لم يكن في العالم بأسره، تتم فيها الاستفادة من الطاقة الشمسية على هذا المستوى».

لقد كان لهذا الخطاب الذي ألقاه مدير المجمع الصناعي «لينبع» الدكتور يوسف إبراهيم التركي أثر عميق في نفوس كل الذين استمعوا إليه لا بسبب المعلومات التي زودنا بها فحسب، ولكن للأسلوب الذي صيغ به، والتعابير البلاغية التي كتب بها.

بعد خطاب المدير قُدِّم عرض شريط سينمائي عن مشروع تصنيع مدينة «ينبع» أعطى صورة واضحة متكاملة عن جميع محتويات المدينة.

لقد كانت زيارتنا لمدينة «ينبع» الصناعية مفيدة وشيقة ومما يثلج الصدر ويريح الضمير أن المسيرين لهذا المجمع والقائمين عليه من مهندسين

ومساعدين وموظفين وعمال، أغلبيتهم الساحقة من الشباب السعودي الناهض، وبعض الأجانب الموجودين يشتغلون تحت امرة ومراقبة أصحاب البلاد.

إن الأطر السعودية المشتغلة تلقى تشجيعا كافيا من طرف المسؤولين. فلقد خصصت لها دور صالحة للسكنى، وهيئت لها وسائل الراحة والترفيه وأعطيت رواتب كافية تجعلها تؤدي واجبها بنشاط.

بعد زيارتنا «لينبع» الصناعية الجديدة، امتطينا طائرة «هيلوكبتير» أقلتنا «لينبع» النخيل موطن أجداد ملوكنا العلويين، ولقد كان سمو ولي العهد المحبوب الأمير سيدي محمد يستفسر عن المآثر الموجودة في تلك المدينة القديمة التي لم يبق منها إلا أطلال، ولم نقف فيها على اثر يذكر، باستثناء ما قيل من أن الحسن المثنى رضي الله عنه مدفون بمقبرتها.

* * *

3 ـ التوجه إلى المدينة المنورة

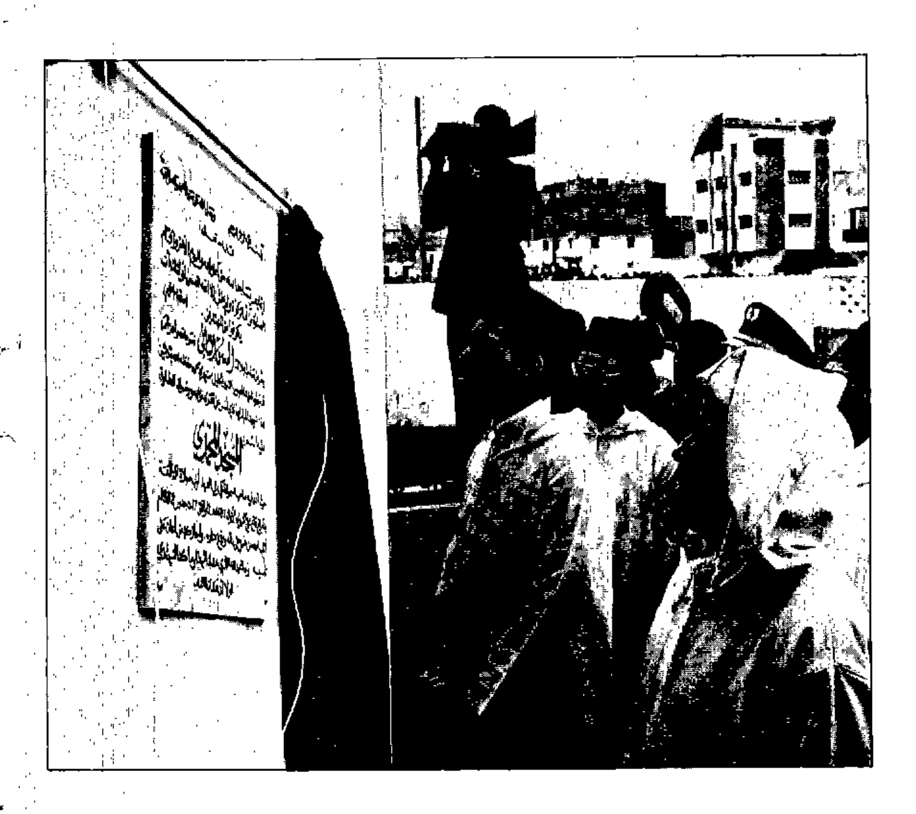
بعد تناول طعام الغذاء بمدينة «الجبيل» الصناعية. جاء دور زيارة مدينة الرسول عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، للصلاة في المسجد النبوي الذي تعدل الصلاة فيه، ألف صلاة في غيره من المساجد، فلقد ورد عن رسول الله ﷺ، أنه قال (الصلاة في المسجد الحرام تعدل مائة ألف صلاة، والصلاة في مسجدي بألف صلاة، والصلاة في المسجد الأقصى بخمسمائة صلاة)، والسلام على سيدي الانام محمد عليه السلام.

امتطى صاحب السمو الملكي ومرافقوه متن طائرة سعودية فاخرة قاصدا مطار مدينة الرسول المنورة، وما هي إلا ساعة أو بعض ساعة حتى كان في مطار المدينة الذي كان غاصا بجمهور المستقبلين في طليعتهم صاحب السمو الملكي الأمير عبد المجيد بن عبد العزيز أمير منطقة المدينة المنورة.

كان الاستقبال في منتهى الحرارة، وكانت القلوب في منتهى الفرحة، وكانت الألسنة لاهجة بالصلاة على النبي المختار، وكان لسان الحال يتغنى منشدا ما قاله الشاعر المتيم بالرسول الأمين عليه السلام :

يارسول الالاه اني محب   لك والله شائق مستهام
يارسول الالاه في كل حين   لك مني تحية وسلام
يارسول الالاه جئتك أسعى   قيدتني الذنوب وهي عظام
يارسول الالاه اني نزيل   ونزيل الكرام ليس يضام

وانطلقنا إلى فندق «شيراطون» حيث حططنا الرحال، متهيئين ومنتظرين الاذن من صاحب السمو الملكي الأمير سيدي محمد للذهاب إلى المسجد النبوي قصد الصلاة فيه والسلام على الرسول الذي بعثه الله ليهدي الناس إلى طريق الحق والخير، وليقود الانسانية كلها إلى طريق الرشد والفلاح، وليخرج الناس من عبودية الأصنام والأوثان إلى عبودية الملك العلام.



سمو ولي العهد الأمير سيدي محمد يترأس تدشين المسجد المحمدي بسلا، ويظهر في الصورة المؤلف. أخذت الصورة عام 1982.

كان الوقت ما بين العشاءين، وتشوقنا إلى أداء صلاة العشاء بالحرم النبوي، وتطلعنا إلى تعجيل المسير، حتى لا يفوتنا فضل الجماعة، وجاء النبأ السار من ولي العهد المحبوب، بأن ما نتمناه ونتطلع إليه سيتحقق، فأمير المدينة المنورة أعطى تعاليمه بأن جميع التسهيلات ستعطى لصاحب السمو الملكي حتى يؤدي صحبة رفاقه صلاة العشاء بالمسجد النبوي ويسلموا جميعهم على الرسول الأعظم وصاحبيه الأكرمين : أبي بكر وعمر في أحسن الظروف.

وانطلقنا بعد آذان صلاة العشاء بنحو الساعة، يتقدم الجميع ولي العهد المحبوب بعدما استعددنا روحيا للسلام على الرسول الأمين عليه السلام، وبعدما تحلينا بملابسنا البيضاء النقية، وبعدما تطيبنا ببخور (العود القماري) الذي كانت مباخره المتعددة، تعطر جوانب فندق «شيراتون» ويستنشق رائحتها كل الحاضرين والرفقاء.

لقد قصدت السيارات التي كانت تقلنا، المسجد النبوي الشريف، حيث الصفوف الأولى من المسجد، أفرغت من المصلين الذين كانوا أدوا صلاة العشاء، ومع ذلك بقي جمهور كبير من المؤمنين من مختلف أنحاء العالم الاسلامي واقفين من وراء الروضة الشريفة، ينتظرون وصول ولي العهد المحبوب، ويتملون بالنظر إلى محياه الوسيم الشريف، وكيف لا يفعلون وهم يعلمون أنه أمير من سلالة النبي الكريم جاء ليسلم على جده الأمين، ويستمد منه النور الذي ينير له الطريق، ويزيد قلبه إشراقا، ويقينه قوة وإضاءة.

في الروضة الشريفة

وقصد ولي العهد المحبوب باب السلام ونحن من خلفه، واتجه توا إلى الروضة الشريفة التي قال عنها جده عليه السلام : «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة».

وأمام محراب الرسول الأمين عليه السلام، وقف ولي العهد يؤدي تحية المسجد، وشاء الله أن أكون بجانبه الأيمن محاذيا له أؤدي بدوري تحية المسجد وأضرع إلى الله أن يتقبل صلاتنا ودعاءنا وزيارتنا وأقيمت الصلاة وتقدم خطيب مسجد السنة الأستاذ المومن السيد عمر الريش ليؤدي بنا صلاة العشاء، وبعد الصلاة رفعت الأكف بالدعاء إلى الله أن يوفق أمير المومنين ويحفظه في

ولي عهده، وأن يرحم الملك الصالح المصلح سيدي محمد الخامس نور الله ضريحه.

لقد كانت ساعة رهيبة، انطلقت فيها القلوب قبل الألسنة من عقالها، وسادها جو من الخشوع والخضوع وصدق الاتجاه، وتذكرت في تلك اللحظات الرهيبات ما قام به ملكنا المنعم محمد الخامس من أعمال، وما بذله من مجهود لصالح المغرب ولصالح الأمة الاسلامية جمعاء، وما يبذله الآن وارث سره جلالة الحسن الثاني لصالح اتمام تحرير بلاده ولصالح الأمة الاسلامية كذلك وكنت ساعتئذ متيقنا كل اليقين أن الروح الصادقة الخيرة التي كان يحملها محمد الخامس لابد أن يسير اشعاعها وقبسها النوراني إلى سميه المسمى باسمه صاحب السمو الملكي ولي العهد سيدي محمد حفظه الله.

إن الموقف ليس موقف مجاملة وتصنع، ولكنه موقف الاتجاه الصادق والاخلاص المكين فنحن في رياض الجنة قطعا، لأن من بشرنا بذلك لا ينطق عن الهوى ونحن مقبلون على ربنا في أشرف مكان في هذه البسيطة الأرضية، ونحن في مكان الاستجابة، فإذا ما دعونا الله أن يكفر عنا الذنوب، ويحط عنا الأوزار، فلابد لنا أيضا أن لا ننسى أمتنا واخواننا وأميرنا، ففي الحديث الشريف ما معناه : «من كانت له دعوة خير، فليدعها لأمير المومنين» لأنه إذا صلح الأمير صلحت الرعية.

لقد كان ولي العهد، وسمي محمد الخامس مقبلا على ربه بصدق يدعو ربه بوقار وهدوء وهو في أشرف مكان، أخبر جده أنه روض من رياض الجنة.

بعد الصلاة والدعاء، قام ولي العهد وقمنا معه، قاصدين السلام على سيد المرسلين، وإمام المتقين، وخاتم الأنبياء أجمعين، وفتح باب الروضة الشريفة الذي لا يفتح إلا للاخصاء والمحظوظين، وسادنا جو من الخشوع والرهبة ونحن نضع أقدامنا داخل مدفن الرسول الأمين عليه السلام، وفي حجرة الصديقة عائشة أم المومنين التي فاضت روحه الشريفة فيها والتي رجا من أمهات المومنين أن يأذنوا له في البقاء فيها، سواء عند مرضه ﷺ، أو بعد موته.

هنا في هذا المكان الشريف كان مقام الرسول في حياته وفي هذا المكان

كان ينزل عليه الوحي من ربه، ومنه كان يطل على الصحابة في المسجد في فترة مرضه، ومن هذا المكان أطل رسول الله ﷺ على جماعة المسلمين في المسجد، وهم ينتظرونه ليؤم بهم صلاتهم، فقال مخاطبا لهم مروا أبا بكر فليصل بالناس، فاستنتج من ذلك الصحابة رضوان الله عليهم، أن الرسول عهد بالخلافة بعد موته إلى أبي بكر الصديق، وقالوا وهم يتشاورون بعد وفاة الرسول نَرَى أن يكون خليفة لَهُ بعده : ان هذا الأمر لا يتولاه إلا من رضيه رسول الله لديننا أي لصلاتنا، فنحن نرتضيه أيضا لدنيانا، وهكذا بويع أبو بكر الصديق بالخلافة.

دخلنا الروضة الشريفة ونحن مشفقون على أنفسنا، كيف يصح أن تطأ أرجلنا أرضا كان يسكنها سيد الأنام، كيف يصح لنا أن نغفل أو ننسى أن هذه البقعة الصغيرة من الأرض كانت مركز الاشعاع النبوي على الخليقة وسرنا قاصدين الضريح الشريف، ونحن في غمرة من الخشوع والأدب، حيث وقفنا بجانب صاحب السمو الملكي، نسلم على الرسول الأمين بما يستحقه من الاجلال والتعظيم والاعتراف له بكل جميل، ألم يكن رسول الله هو الرحمة المهداة إلينا ؟ ألم يكن حريصا كل الحرص على أن يهدينا إلى المحجة البيضاء ؟ ألم يأتنا بأشرف رسالة وأكرم دين ارتضاه الله للبشرية ؟ ألم يتعب من أجل إسعادنا ؟ ألم يترك فينا ما أن اتبعناه لا نضل أبدا ؟ ألم يخبرنا وهو الصادق المصدوق أننا حين نسلم عليه، يرد ربه عليه روحه حتى يرد علينا السلام ؟ رسول الله يرد علينا السلام ؟ ما أسعدنا بهذه اللحظات التي أنعم الله بها علينا ونحن قريبون من رسولنا، انه القرب المادي والروحي، إنها ساعة الاستمداد من نور النبوة الذي يضيء لنا الطريق ويجعلنا نسير إن شاء ربنا في طريق الحق والخير والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

واغرورقت العيون بالدموع، ونحن نستعرض في نفوسنا جهاد الرسول وكفاحه من أجل أن نكون خير أمة، أخرجت للناس، واستحيينا من ربنا، وأشفقنا على أنفسنا أن لا نكون أهلا لهذه الخيرية التي أرادها الله لنا، وبعث إلينا محمداً ﷺ ليدلنا على طريقها، ولقد فعل رسول الله، وبلغ رسالة ربه إلينا، وما قصر في

التبليغ، وبين وما فرط في التبيين، ولكنا مع كل ذلك فرطنا وما حرصنا على أن نهتدي بالهدى الذي دعانا إليه، ونسينا في كثير من تصرفاتنا ربنا فأنسانا أنفسنا، فهل تكون هذه الزيارة للرسول والسلام عليه، حافزا لمراجعة أنفسنا، والعزم الصحيح على السير في النهج الذي خطه لنا رسولنا الأمين، والذي سلكه صحابته الكرام رضوان الله عليهم أجمعين. ان أملنا في ربنا عظيم، وإننا نعتقد جازمين أن من قصده مخلصا صادقا لا يخيبه، واتجهنا إلى ربنا سائلين منه التوفيق والهداية والسداد، ثم سلمنا على صاحبي رسول الله الراقدين بجانبه إزاء قبره الشريف، واللذين صدقا ما عاهدا الله عليه، في نصرة الاسلام، ونشر تعاليمه بين الأنام، سيدنا أبي بكر الصديق، وسيدنا عمر بن الخطاب.

وغادرنا المقام النبوي الشريف لنتجه إلى قبلة الله في المكان الذي كان يأتي فيه «جبريل» أمين الوحي من رب العالمين، ليبلغ رسول الله ما أنزل إليه من ربه، لقد كانت ساعة اتجاه إلى رب العالمين بقلوبنا وعقولنا وأرواحنا أن يكفر عنا سيئاتنا وأن يجمع كلمة المسلمين على الحق والصدق، ويؤلف قلوبهم حتى يحققوا معنى الأمة الواحدة الموحدة، وحتي يعتصموا بحبل الله الذي دعاهم إلى الاستمساك بالوحدة، وحذرهم من التفرق والتشتت، وبين لهم أن طريق نجاتهم الوحيد هو استمساكهم بكتاب الله، واتباعهم سنة رسول الله، وغادرنا المسجد النبوي الشريف، مرددين قول ربنا عزت قدرته (ان الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) قاصدين فندق (شيراتون) لأخذ قسط من الراحة، والاستعداد لأداء صلاة الصبح مع جماهير المومنين بالمسجد النبوي الشريف.

لقد كانت الليلة ليلة جمعة، وكان البرنامج الذي أعده مضيفونا جزاهم الله خيرا أن نؤدي صلاة الجمعة بالروضة الشريفة، وما أن حل الوقت حتى نودي علينا بالاستعداد وأخذ الأهبة للذهاب إلى المسجد النبوي بريادة ولي عهدنا المحبوب، ودخلنا المسجد من باب السلام حيث أخذنا أماكننا من الروضة الشريفة أمام محراب الرسول، وإزاء مكان منبره الذي كان يخطب عليه، وما هي إلا بضع دقائق حتى وصل الخطيب المهيب، ليلقي خطبة الجمعة في موضوع الأمانة، لقد كان يلقي خطبته ارتجالا، وكانت تظهر على ملامحه علامات الصدق والاخلاص في القول، لقد شرح معنى الأمانة، وبين شموليتها

وأنها كما تكون في الأموال، تكون في الأحكام، وكما هي واجبة على الأمير واجبة على مطلق الناس، وان مسؤوليتها ضخمة تنوء بحملها السماوات والأرض والجبال، وان الانسان إذا ما تحملها طائعا مختارا، فعليه أن يحسن أداءها، ويوفي بالتزاماتها، حتى لا يعتبر من الخائنين الظالمين الجاهلين (انا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها، وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا) وبعد صلاة الجمعة وتناول طعام الغداء لدى أمير المدينة صاحب السمو الأمير عبد المجيد بن عبد العزيز، غادرنا المدينة المنورة، قاصدين مدينة «جدة».



واجهة الروضة النبوية بالمسجد النبوي الشريف

4. في البقيع

كان الوقت وقت إسفار عندما غادرنا مسجد الرسول الأمين عليه الصلاة والسلام، بعد أداء صلاة الصبح، وتلاوة ما تيسر من آي الذكر الحكيم، وكان خروجنا من أحد أبواب الجهة اليسرى للمسجد، حيث لاحظنا أن المتاجر والدور والبنايات التي كانت محيطة بالمسجد، جميعها هدم، فأصبحت الساحة فسيحة جدا، وأصبحت جدران البقيع الشريف تلوح لنا من بعيد.

وعلمنا أن جلالة الملك فهد أعطى أوامره لتوسعة المسجد النبوي حتى يمكنه أن يسع جماهير المومنين التي ترد عليه من كل حدب وصوب، وان المخطط الذي وضع لاعادة البناء بالاضافات الجديدة، سيجعل المسجد النبوي يسع خمسمائة ألف من المصلين، وان الذين كانوا يملكون المتاجر والدور التي هدمت لتضاف إلى المسجد، أعطى لهم التعويض الكامل الناجز المغري حتى تكون نفوسهم مطمئنة، وحتى لا تضاف أية قطعة أرضية للمسجد، إلا وأصحابها راضون مسرورون.

والواقع أن حسنات توسعة المسجد الحرام، ستبقى تتضاعف لمن سعوا أو عملوا من قريب أو بعيد على توسعته، وكذلك حسنات توسعة المسجد النبوي الشريف، ستكون إن شاء الله مخلدة في صفحات جلالة الملك فهد الذي قيل لنا أنه سهر بنفسه على هذه التوسعة المسجدية بجميع ملحقاتها التي منها تأسيس مطبعة نموذجية كبيرة تتخصص في طبع الملايين من المصاحف الشريفة لتوزع في أنحاء العالم.

وتوسعة المساجد أو تشييدها من المبرات الخالدات التي أثنى رسول الله ﷺ على القائمين بها، ففي عهد رسول الله زاد سيدنا عثمان من ماله الخاص في المسجد النبوي الشريف، فجعل رسول الله عمله من الأعمال التي لا تنسى له، وأثنى على عمله بما يستحقه من ثناء. وقفت أمام أحد أبواب المسجد النبوي المواجه للبقيع استعرض في مخيلتي وذاكرتي الضعيفة بعض أسماء

الاعلام من الصحابة والصحابيات، والتابعين ومن تبعهم بإحسان، الذين ضمهم تراب البقيع، منذ أربعة عشر قرنا كاملة، والذين يعدون بالآلاف، وكلهم أسدوا لدينهم وأمتهم بل للانسانية كلها كل خير، وكلهم نذكرهم بالجميل، وندعو لهم بالرحمة والرضى والقبول.

وتساءلت مع نفسي هل في استطاعة الأجيال الآتية من بعدنا أن تبقى متعرفة على مواضيع دفنهم ؟ هل في استطاعة أبنائنا وأحفادنا الذين سيزورون المدينة المنورة ويسلمون على الرسول وصاحبيه الأكرمين أن يعلموا ويتعرفوا إلى مكان مدفن فاطمة الزهراء ابنة الرسول وسيدة نساء أهل الجنة. هل يستطيعون أن يتعرفوا إلى مكان مدفن عائشة أم المؤمنين التي أوصى رسول الله ﷺ أن نأخذ شطرا من ديننا عنها ؟ هل في استطاعتهم أن يتعرفوا إلى قبور الصحابة الكرام : عثمان بن عفان وخالد بن الوليد وأبي عبيدة بن الجراح وغيرهم من الصحابة والاعلام. هل في استطاعتهم أن يتعرفوا إلى مكان مدفن إمام دار الهجرة والمغرب : مالك بن أنس وغيره من التابعين وتابع التابعين.

إنهم إذا قدر لهم سيتعرفون عليهم في بطون الكتب ومن خلال الصفحات ولكن الوقوف على قبورهم والترحم عليهم، والدعاء لهم سيبقى بعيد المنال، إذا بقيت الحال كما هي عليه الآن.

إنني لا أود أن أدخل في نقاش موضوع زيارة القبور، ولكني مع ذلك أريد أن أتوجه باقتراح للمسؤولين في المملكة السعودية من العلماء والأمراء، اقتراح من شأنه إذا عمل على تطبيقه أن يجعل اللاحقين من أبنائنا وأحفادنا ومن يأتي بعدهم إن شاء الله يتعرفون إلى أجدادهم وأعلامهم معرفة حقيقية، تجعلهم يحتذون حذوهم، ويسيرون على منوالهم في حياتهم، ولا ينسون مكارمهم، وما أسدوا للأمة الاسلامية من معروف.

لقد علمت أن المسؤولين في السعودية مهتمون بالبحث عن التراث واكتشاف آثار ومعالم الآباء والأجداد، وأرى أن الأسبقية يجب أن تكون للأجداد الذين أبلوا البلاء الحسن في النضال عن العقيدة والاستماتة في سبيل عزة الاسلام ويأتي في طليعتهم رجال البقيع الصادقون، وشهداء بدر وأُحُد والأحزاب وغيرهم من الشهداء الأبرار.

إن ما أقترحه على المسؤولين في المملكة وهم يتهيأون لتوسعة المسجد النبوي أن يعطوا أوامرهم لوضع جرد (لائحة) بأسماء أعلام الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان، المدفونين بالبقيع، توضع مكتوبة كتابة واضحة في ألواح كبيرة مثلا مع تعريف مختصر بكل رجل من الرجالات وتاريخ وفاته، حتى إذا ما زار زائر البقيع الشريف يمكنه أن يخرج بفائدة تجعله من جهة يعترف بالجميل لأهل الجميل وتجعله من جهة ثانية يتطلع إذا وفقه الله أن يحتذي حذو أسلافه الأكرمين.

ولو سمح لي أن أضيف إلى ذلك الاقتراح اقتراحا آخر، لقلت أنني لا أرى مانعا شرعيا من وضع مشخص على شكل خريطة للبقيع، يشار فيه لمكان فلان وفلان داخل البقيع، دون أن يخشى إخواننا العلماء السعوديون الوقوع في أية بدعة لا يرتضيها الدين.

انه ليس تعلقا بالقبور ولا بالأموات، ولكنه اقتراح من أجل أخذ العبرة، والفخر بالأمجاد الهادية.

إن الأمة التي تنسى أبطالها ورجالها وهداتها لا تستحق البقاء واننا في عصر يريد أعداء ديننا أن ينسوا لأبنائنا ما لدى أجدادهم من فضل على الانسانية وما وضعوا لها من أسس حضارية حقيقية، لولاها لكانت تسير دائما في عماية وضلال.

لقد كانت السيرة النبوية، هي المنار الذي اهتدينا به في بداية نهضتنا، وكان الرعيل الأول من صحابة الرسول عليه السلام، هم النجوم التي اهتدينا بها ونحن نعمل لتحرير بلادنا من قبضة الغاصبين الاستعماريين. ولا منجاة لنا، ولا تحريرا حقيقيّاً في مجال الفكر والثقافة إلا إذا تعرفنا وتعرف أبناؤنا تعرفا حقيقيا على أبطالنا الذين صنعوا تاريخنا الحضاري، وكتبوا بأعمالهم وأخلاقهم وإيمانهم وتعلقهم بالمبادئ والتعاليم التي أتى بها رسول الاسلام، الصفحات البيض التي عندما يقف الباحثون عليها، يندهشون، وينبهرون ويدركون تمام الادراك الأسباب والعوامل التي جعلت الاسلام ينتشر في أنحاء المعمور في سنوات معدودات، الأمر الذي لم يكن له مثيل في التاريخ الانساني.

وإذا كنا ننشد لبلادنا الاسلامية جميعها العزة والكرامة، وإذا كنا نريد أن تبقى أمتنا الاسلامية ذات رسالة خالدة في الحياة، وإذا كنا نرغب أن نربط حاضرنا بماضينا لنعمل على بناء مستقبلنا على الأسس الصحيحة، فما علينا إلا أن نسير في النهج الذي دعا إليه رسولنا الأمين، وسار عليه الخلفاء الراشدون، والصحابة الأولون، فرسولنا هو إسوتنا (لقد كان لكم في رسول الله إسوة حسنة) وصحابته هم نجومنا المضيئة كما عبر عن ذلك رسول الله حينما قال كما جاء في بعض الروايات : (أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم) ومن أجل ما ذكر، فعلى اخواننا علماء المملكة العربية السعودية، وعلى أولياء الأمر وفي طليعتهم خادم الحرمين الشريفين الملك فهد وصنوه وولي عهده الأمير عبد الله أن ينظروا في الاقتراح الذي تقدمنا به سابقا بالاضافة إلى اقتراح أخير نتقدم به إلى جلالة الملك فهد بالذات :

لقد قرر جلالته إنشاء مطبعة نموذجية تعمل على طبع كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وتوزيع النسخ المطبوعة في أنحاء العالم الانساني جميعه وهو عمل مشكور، وكم تتعزز هذه المكرمة وتتقوى إذا ما أعطى تعاليمه بإنشاء لجنة من ذوي الكفاءات المختصين في التاريخ الاسلامي والسيرة النبوية الطاهرة، وتكون مهمة هذه اللجنة كتابة السيرة النبوية وسيرة الصحابة الكرام بأسلوب عصري سليم، وبطريقة علمية مدروسة، يستفيد منها الشباب الاسلامي على اختلاف مستوياته، وتتعزز بها ثقافته الاسلامية، ويزيد معرفة بما بذله الرعيل الأول من جهد في سبيل العقيدة والحق والدين.

ان التعرف إلى سيرة الرسول عليه السلام في مختلف أطوار حياته، وفي جميع معاملاته وتصرفاته، وفي النهج الذي نهجه لتكوين ذلك الجيل من الصحابة الأعلام الذين خدموا الاسلام، وعاشوا تعاليمه ومبادئه وقيمه، من شأنه أن ينير الطريق أمام الأجيال الجديدة، ويجعلها تعيش إسلامها كما عاشه السابقون الأولون، وان العمل على طبع ما ينتجه الكتاب الاسلاميون المقتدرون من كتابات في السيرة النبوية، والتعريف بأعمال الرواد المسلمين الأولين وما قاموا به من تعزيز للدعوة الاسلامية، والجهاد في سبيل نصرة المبادئ الاسلامية، وإبراز النماذج المثالية من المسلمين الأولين الذين كانوا الأمثلة الصالحة لما

ينبغي أن يكون عليه الانسان المسلم الذي عاش القرآن، وكان يحيى الحياة التي يدعو إليها القرآن، سيجعل من الشباب الاسلامي المعاصر شبابا محمديا حقا وصدقا.

وان التعريف بصحابة الرسول وفي طليعتهم رجال البقيع، يجعل المسلمين، سواء منهم الذين يقصدون الديار المقدسة لأداء فريضة الحج والسلام على رسول الله وغيرهم من بقية المسلمين، يرجعون بذاكرتهم إلى العهود الأولى للاسلام، ويدفعون دفعا للتأسي برسول الله وبصحابته الكرام رضوان الله عليهم.

انه ليس بعزيز على فهد وعبد الله ان يتبنيا هذا الاقتراح ويعملان على تطبيقه اقتداء بوالدهم عبد العزيز الذي قامت دعوته على إحياء السنة والاستمساك بحبل الله المتين، فهل هما فاعلان ؟

ذلك ما أرجو.

"المسعى"



البقيع قبل التحسينات التي أدخلت عليه في هذا العهد

5. المرأة المسلمة في السعودية

في حفلة الغداء التي أقامها سمو الأمير عبد المجيد بن عبد العزيز أمير منطقة المدينة المنورة على شرف صاحب السمو الملكي ولي العهد الأمير سيدي محمد، ضمني المجلس بنخبة مختارة من علماء ومثقفين وموظفين سامين سعوديين.

ولقد جرى الحديث في مواضيع مختلفة لا تخلو من طرافة، وكان من جملة المواضيع التي أثيرت، قضية المرأة المسلمة ومساهمتها في بناء وترقية المجتمع الاسلامي، وأود أن أشير هنا إلى أن التطور المشاهد في المملكة العربية السعودية، لم تحرم الفتاة السعودية من حظها منه، فلقد كانت محرومة من التعليم والتثقيف في الماضي إلا ما ندر من الفتيات المحظوظات، فأصبحت مدارس البنات معممة في أرجاء المملكة جميعها، بل أصبحت بعض المدن والقرى ــ كما ذكر لي ذلك من كنت أحادثهم ــ يغلب فيها المتعلمات من البنات، المتعلمين من البنين.

ولعل ذلك راجع إلى أن الحرمان الذي كن يشعرن به دفعهن إلى أن يقبلن على المدرسة والتعليم دون تأخر ومن دون استثناء.

لقد أصبح تعليم الفتيات معمما، وأصبحت الفتاة السعودية تلج المدارس الابتدائية والثانوية والعالية، وأصبحت المتخرجات من الكليات يساهمن بدورهن في الحياة الثقافية والعلمية، ويساهمن في تحرير المقالات والأبحاث التي تنشرها الصحافة الدورية، فلا تكاد تتصفح جريدة أو مجلة من مجلات إلا وتجد فتاة أو امرأة تناقش فكرة أدبية أو اجتماعية وتدلي برأيها في موضوع يهم الحياة الأدبية أو الاجتماعية أو حتى الاقتصادية وهناك عدة لجن أو جمعيات خاصة بالنساء تنشط في مجالات الثقافة وشؤون المجتمع والمرأة بصفة خاصة مثل جمعية اليقظة النسائية الخيرية التي أقامت ضمن نشاطاتها المتعددة ندوة تحت عنوان : دور المرأة في ترشيد الاستهلاك، تحدثت فيها كل من الدكتورة زينب

محمد علي الدباغ أستاذة بقسم الاقتصاد المنزلي بكلية البنات بجامعة الملك عبد العزيز بجدة، والدكتورة عصمة الدين كركر حرم الهيلة، وهي أستاذة جامعية ومؤلفة لعدة كتب عن المرأة في الاسلام إلى غيرهما من المدرسات والطبيبات والكاتبات.

لقد أصبحت المرأة المسلمة السعودية تساهم في الحياة الثقافية والاجتماعية، ولكن في دائرة محدودة، وضمن المجتمع النسائي وحده حيث ان مجال عملهن الثقافي والاجتماعي والاقتصادي لازال منظورا إليه بكامل الاحتياط، لقد أتيح لي وأنا أتصفح بعض الجرائد السعودية التي تخصص بعض صفحاتها لقضية المرأة أن نلاحظ أن بعض النساء المثقفات يطالبن وبإلحاح أن يساهمن في الحياة الاقتصادية والتجارية ويقترحن أن تخصص لهن أسواق يتولون فيها التجارة مع بعضهن بعضا، وأن لا تبقى التجارة محتكرة لدى الرجال.

إن تقييدات وتحجيرات لازالت تفرض على المرأة السعودية ومن جملتها حرمانها من التجارة ومن مساهمتها في تنمية بلادها، نعم اننا نقول : إن كل تطور ومساهمة للمرأة في الحياة العامة، يجب أن يكون في دائرة التعاليم الاسلامية التي تحرص كل الحرص على عفة المرأة المسلمة وصيانتها وطهارتها لكن مع ذلك لا نرى موجبا للضغط عليها، وفقدان الثقة بطهارتها وعفتها لمجرد أنها تريد أن تساهم في الحياة الاقتصادية والتنموية في دائرة الالتزام بالتعاليم الاسلامية.

النساء شقائق الرجال، والمجتمع الاسلامي لا يمكنه أن يطير وينهض بجناح واحد، ونظرتنا إلى المرأة يجب أن تتحرر من العقد. والاسلام والحمد لله دين سمح يسير، لا غلو فيه، ولا تفريط ولا إفراط، والغلو في الأشياء لا ينتج عنه إلا عكسها.

إن المرأة المسلمة تعيش في عالم مترابط متصل، أصبحت تسوق الطائرة، وتمتطي الصاروخ الذي يسبح في الفضاء، وتتولى تسيير دفة السياسة والحكم في كثير من الأقطار، فكيف مع هذا كله نريد أن نطمس في نسائنا روح الوثبة واليقظة والعمل لصالح مجتمعها، ونحرمهن مما لم يحرّمه ديننا الحنيف الذي أوصى خيرا بالقوارير.

إن اهتمام الاسلام ورسول الاسلام بالمرأة، يفرض علينا أن لا نبخسها حقها في الحياة بشرط واحد ان تلتزم بالسير في النهج الذي حدده لها الاسلام، سواء من حيث اللباس أو من حيث الاختلاط أو من حيث الأخلاق عموما.

فبعض التضييقات التي يراها بعض العلماء كمنعها من سياقة سيارتها مثلا، لا نرى لها مبررا من الاسلام، وفرض نوع خاص من اللباس عليها لا موجب له. لقد وضح الكتاب والسنة الأسس التي على المرأة المؤمنة التي تلتزم بها في لباسها، فقال القرآن الكريم : (ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها، وليضربن بخمرهن على جيوبهن) أي لا يظهرن شيئا من الزينة للأجانب إلا ما لا يمكن اخفاؤه. قال ابن عباس رضي الله عنه : هو الوجه والكفان والخاتم، وهذا الرأي مروي أيضا عن ابن عمر وعطاء وعكرمة وسعيد ابن جبير وابن الشعثاء والضحاك وإبراهيم النخعي وغيرهم. قال ابن كثير في تفسيره وتفسير ما ظهر منها «الزينة» بالوجه والكفين هو المشهور عند الجمهور، ويستأنس له بالحديث الذي رواه أبو داوود في سننه : عن عائشة رضي الله عنها، ان أسماء بنت أبي بكر دخلت على النبي ﷺ وعليها ثياب رقاق، فأعرض عنها وقال : ياأسماء، إن المرأة إذا بلغت المحيض، لم يسمح أن يرى منها إلا هذا، وأشار إلى وجهه وكفيه، وهو حديث مرسل.

أتيت بهذا لأن بعض الاخوان العلماء الذين تحدثت إليهم أثناء حفلة الغداء كانوا يرفضون أن تكشف المرأة حتى عن وجهها وكفيها، كما كانوا يؤيدون ولو ظاهريا الفتوى التي أفتاها بعض العلماء الذين أجل مكانتهم العلمية، والتي قالوا فيها : ان سياقة المرأة لسيارتها حرام، بدعوى أنها يمكن أن تحمل معها أجنبيا، وهو حرام. وكل ما يؤدي إلي الحرام حرام. ولقد استغربت من هذا الاستنتاج والفتوى بالحرمة دون دليل شرعي مقبول، لأن اتهام المرأة والشك في طهارتها ودينها دون حجة حرام قطعا، ولأننا إذا اعتمدنا الشك والاتهام في مثل هذه الأمور، فإن ذلك يجرنا إلى الشك في المرأة دائما وأبدا حتى إذا ما بقيت وحدها في منزلها، فمن يضمن لنا أنها لا تدخل أجنبيا عليها ؟

إن القضية في نظرنا قضية دين وتربية وأخلاق، فالمرأة إذا ما ربيت على الدين والأخلاق الفاضلة، فإن ذلك يكون سلاحها ويزيد ثقة بها واطمئنانا لها، اما إذا

لم تربَ على الدين والأخلاق، والحصانة فإنها لا تستحق ثقة، ولو لم تسق السيارة أو الطيارة أو الجمل.

لقد قلت ان بعض الذين تحدثت إليهم كانوا يؤيدون الفتوى المذكورة ولو ظاهريا، لأنه بعض انفضاض الاجتماع والانتهاء من الحديث، التحق بي ذلك الشخص الذي كان يناقش وأكد انه متوافق مع الرأي الذي أدليت به، وان مناقشته كانت ظاهرية لا غير.

إن نظرة الرجل إلى المرأة يجب أن تتغير ويجب أن تكون بالميزان الاسلامي الشرعي، وان تعطاها مكانتها التي تستحقها في المجتمع، والتي أعطاها لها الاسلام. فالنبي عليه السلام أوصى بالنساء خيرا في غير ما مناسبة، وقال : رفقا بالقوارير والنبي اعتمد النساء وهو يؤسس المجتمع الاسلامي، وأخذ منهن البيعة مثل ما أخذها من الرجال، عندما قالت الآية الكريمة : «ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما» وتزيد الآية الكريمة فتقول : «وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا ان تكون لهم الخيرة من أمرهم» فالمؤمن والمؤمنة سواء في الأحكام، وما كان لأي كان أن يقول : هذا حلال وهذا حرام، إلا إذا استند لأمر الله ورسوله، فالحلال ما أحله الله ورسوله، والحرام ما حرمه الله ورسوله.

إن مساواة المرأة بالرجل في التكليف، أمر لا يناقش فيه أحد على ما أظن، وإذا كانت مكلفة شرعا، فهي مسؤولة وأمينة في دائرة اختصاصاتها، ومن واجباتها القيام بما يفرضه عليها المجتمع الاسلامي التي هي عضو فيه بما فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مصداقا للآية الكريمة التي تقول : «والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويقيمون الصلاة ويوتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله» ومن هنا كان واجب المرأة وحقها أن تساهم في الحياة السياسية لبلادها، فتقوم بما يقوم به الرجل من

دعوة إلى الاصلاح ورفض للفساد وتعطي صوتها في الانتخابات التي تجري ببلادها، ولا تبقى كمية مهملة كأنها لا إدراك لها ولا عقل ولا علم ولا تمييز.

إن المرأة مطالبة شرعا بأن تقوم بواجب الدفاع عن وطنها إذا ما هاجمه العدو، ودعت المصلحة والضرورة لاستقطاب جميع السكان، وما يمكنها أن تقوم بهذا الدور أو غيره إذا لم تدرب على الاهتمام بشؤون الحياة العامة، وتشعر بمسؤولياتها مثل الرجل سواء بسواء، على أن يكون تدريبها وتكوينها وإعدادها، كل ذلك خاضع للنهج الاسلامي القويم الذي أعطى لكل ذي حق حقه، والذي أعطى للمرأة حقوقها، وبين لها واجباتها، وحدد لها الحدود التي لا ينبغي أن تتعداها في تصرفاتها ومعاملاتها حتى تنال رضا ربها وشكر مجتمعها، وحتى تعطي المثال الصالح لما ينبغي أن تكون عليه المرأة المسلمة الصادقة المصلحة.

إن النهضة التعليمية التي عمت أنحاء المملكة العربية السعودية وشملت الفتيان والفتيات تبشر بكل خير، وان أملنا أن تستفيد النهضة من التطورات التي وقعت في مختلف الأقطار، وتتعرف إلى محاسنها وقبائحها فلا تقتبس إلا ما فيه الخير والصلاح، وتجتنب كل ما من شأنه أن يدوس قيمنا الاسلامية، وتقاليدنا السليمة الشريفة، وعلى الفتاة السعودية والمثقفة السعودية بالخصوص أن يعطيا المثال لما يجب أن تكون عليه المرأة المسلمة والفتاة المسلمة، لا من حيث الثقافة والتعليم فقط، ولكن من حيث الاهتمامات بشؤون وقضايا المجتمع، ومن حيث السلوك القويم والمظهر السليم، والدين المتين.

والله سبحانه يوفق اخواننا المسؤولين، حتى يرعوا نهضتهم المباركة بعنايتهم ورعايتهم، حتى تسير في الخطة الوسطى، وتنهج المحجة البيضاء.

٦ - مدينة جدة في القديم والحديث

كانت زيارتي الأولى للمملكة العربية السعودية في صيف سنة 1957 عندما عينني صاحب الجلالة الملك المنعم سيدي محمد الخامس نور الله ضريحه ضمن الوفد الرسمي الأول الذي وجهه إلى الديار المقدسة لأداء مناسك الحج وزيارة المسجد النبوي الشريف، والسلام على سيد البشر، سيدنا محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه.

لقد حططنا الرحال أول ما حططنا بمدينة جدة، فكيف كانت جدة إذذاك ؟ ان زائر جدة في ذلك الظرف، وزائرها اليوم، لا يأخذه العجب والاستغراب فحسب، ولكنه يندهش كل الاندهاش، ويكاد لا يصدق ان «جدة» الأمس هي «جدة» اليوم، فالمدينة تغيرت ظهرا على عقب، وكل ما فيها وما حولها من معالم ومباني ومتاجر وطرق، تغير تغيرا جذريا، وتطور تطورا صاروخيا. لازلت أذكر وقد مضى على زيارتي الأولى «لجدة» تسع وعشرون سنة، ان الفنادق كانت محدودة، ومن أحسنها فندق حللنا به، كان يدعي فندق «قريش» وكان هذا الفندق الممتاز نسبيا من الفنادق التي تستحق نجمتان على الأكثر، وبعد أدائنا لمشاعر الحج وقرب سفرنا إلى لبنان نزلنا بفندق جديد ربما كان أحسن شكلا من الأول، ولكن معاناتنا فيه، كانت هي فقدان الماء الذي لم يكن يتيسر الحصول عليه إلا الآونة بعد الأخرى، اما البنايات والمتاجر والدور، فأغلبها في منتهى التواضع، أما اليوم فإن كل شيء في «جدة» جديد فشوارعها المتسعة، وجسورها المرتفعة، وفنادقها الفخمة المتعددة، ومتاجرها المتعددة والمكتظة، وعماراتها المرتفعة في عنان السماء، ومساكنها الرحبة، وقصورها المتعددة وأضواؤها اللامعة، وشواطئها الممتدة، كل ذلك وغيره يقضي بالعجب من هذه الطفرة التطورية التي سارت فيها هذه المدينة.

إن الزائر لجدة لا يستطيع أن يتعرف على كل أطراف المدينة فلقد اتسعت اتساعا خارقا للعادة، ومهما كانت ذاكرتك قوية، وانتباهك حاضرا دائما معك،

فإنك عندما تغيب بضعة أشهر عن المدينة، ثم ترجع إليها تندهش لزيادة اتساعها، ولا تكاد تعرف بعض الطرق التي كنت تمر منها.

وإذا ما أتيح لك أن ترقب المدينة ليلا من نوافذ الطائرة فإنك ترى مدينة كلها مصابيح مضيئة، تكاد أنوارها تخطف الأبصار أما الحركة الاقتصادية والتجارية، واما حركة السير وكثرة السيارات على اختلاف أشكالها وأنواعها وأجناسها، فحدث عن البحر ولا حرج. لقد ارتفع عدد سكان «جدة» حتى تجاوز المليون، فهي و«الرياض» أكثر المدن السعودية سكانا، وتليهما «مكة المكرمة» التي لا يتجاوز سكانها نصف مليون حسب ما قيل لي.

الوصول إلى مكة المكرمة

عندما زرت «مكة» أول مرة، كانت تعتبر أهم مدينة من حيث عدد السكان وكان القاصدون إليها من مختلف أنحاء العالم، لا يجدون مستقرات وفنادق مريحة، تذهب عن الحجاج والمعتمرين متاعب السفر ومشاقه، وأذكر أننا نحن أعضاء الوفد المغربي نزلنا بمنزل كان مخصصا لركب حجاج المغرب العربي وكان تابعا لأحباس الحرمين الشريفين. وهذا المنزل الذي كان يشار إليه بالبنان، لم يكن متوفرا حتى على الأشياء الضرورية من وسائد مريحة، وفرش صالحة ولا أقول وثيرة، ولا يوجد به ماء كاف للوضوء والشرب. والميزة الوحيدة التي كان يمتاز بها، انه كان قريبا من المسجد الحرام، فكنا لا نجد مشقة في أداء الصلاة في أوقاتها بالحرم المكي أمام الكعبة المشرفة مع جماهير المؤمنين الذين تواردوا عليه من كل فج عميق، رغم الحر الشديد الوطأة، الذي كان في ذلك الإبان.

الاهلال بالحج

وعندما حل وقت الاهلال بالحج، وعزمنا على الذهاب إلى منى محرمين اكترت لنا سفارتنا بيتا في منى بثمن فاحش للغاية، وكان عبارة عن غرفة متسعة

لجميعنا نحن أعضاء الوفد الستة، خالية خلوا تاما من جميع وسائل الراحة، ولم يكن يوجد أحسن منها، بل كنا سعداء بالحصول عليها، والاستقرار فيها، أما غيرنا من الحجاج فكان يقاسي من الحرارة الشديدة وفقدان الماء وضيق المكان، واكتظاظ البشر.

في المدينة المنوّرة : المتاعب الكثيرة

ولدى زيارتنا للمدينة المنورة فوجئت عندما وقفت بنا السيارة في مكان فسيح، بسطت فيه أسرة عالية من حبال، وجلس أو اتكأ فيها الواصلون من الزوار، والبعض منهم وضع أمامه «نرجيلة» ينفخ فيها ويمتص وهي تغلى وتحدث صوتا غريبا، وجعل بجانبه كأسا من الشاي الأسود يعب منه الآونة بعد الأخرى.

ونظرا لقلة الفنادق أو فقدانها بالمرة، فلقد قصدنا دارا لمهاجر مغربي كان رحمه الله يدعي الحاج بوعزة، لقد انبسطنا جدا لاستطاعتنا الحصول على هذا المنزل الذي كان رغم صغره كافيا لمأوانا واستضافتنا مدة مقامنا بمدينة الرسول.

لم يكن بالمنزل ماء، وإنما كان يرد عليه أشخاص يحملون قربا مملوءة ماء، يفرغونها في أواني كبيرة كانت معدة لذلك، ومن ذلك الماء كنا نشرب ونتوضأ.

لم تكن بالمدينة مدارس عصرية، وإنما كانت كتاتيب قرآنية ودروس مسجدية باستثناء مدرسة واحدة حرة كانت تدعي على ما أظن بمدرسة التهذيب.

وبالرغم عن هذا، فكانت الحركة التجارية نشيطة، وتجار المدينة مسرورون بالوفود التي ترد عليهم من أنحاء العالم الاسلامي. اما طرقات وسكك المدينة فكانت في أغلبها ضيقة، وكثيرا ما كانت تعترضنا ونحن في طريقنا إلى البيت



خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز يضع حجر الأساس لتوسعة عمارة المسجد الحرام، وإلى جانبه صاحب السمو الملكي الأمير عبد الله بن عبد العزيز ولي العهد، وصاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبد العزيز وزير الدفاع والطيران والمفتش العام.

الذي نسكن فيه، ماعزات يخرجن للبحث عن بعض العشب الذي يجدنه في الطريق.

حكيت عن زيارتي الأولى للبلاد السعودية، خصوصا مكة والمدينة وجدة لأدلل عن التطور المدهش الذي تطورته هذه البلاد، خلال ربع قرن من الزمان.

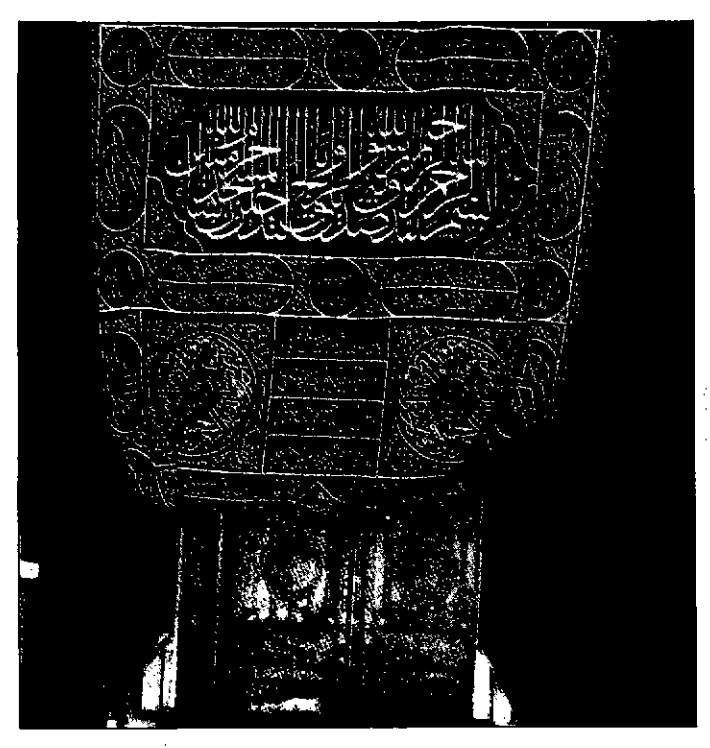
إن الذي زار تلك الديار في تلك الفترة التي تحدثت عنها، وزارها اليوم، لا يأخذه العجب فقط، ولكن ينظر بتقدير للمجهودات الجبارة التي بذلتها الدولة السعودية لتطوير هذه البلاد والنهوض بها، وترقيتها وامدادها بكل ما تحتاج إليه.

فالعمران الذي عم أنحاء المملكة، والاصلاحات التي أدخلت عليها، والمؤسسات التي أسست فيها، والمدارس والجامعات التي شيدت فيها، والأطر التي تخرجت من جامعاتها ومن الجامعات الأجنبية : عربية وغير عربية، والمنشآت الصناعية والتجارية التي أحدثت فيها، كل ذلك يدعو إلى كثير من التقدير والاعجاب. لقد أصبح القاصدون إلى الديار المقدسة، يجدون المأوى المناسب، والفنادق المتعددة، كل حسب مستواه، وأصبحت الطرقات الواسعة والمتعددة مخترقة الجبال الصماء القوية الحجارة، وأصبحت المياه جارية متيسرة أينما ذهبت وحيثما حللت في أية جهة من الجهات بما في ذلك «منى» و«عرفات» اللتان كان الماء يفتقد فيهما خلال موسم الحج، ولا يحصل عليه إلا بأتعاب وتعويضات كثيرة، لقد استجاب الله لدعوة أبينا إبراهيم الخليل عليه السلام عندما كان يدعو قائلا (ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم، ربما ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون) فصارت الوفود ترد عليهم من أنحاء الدنيا، وصارت الأرزاق تتدفق على بلادهم من أنحاء المعمور، فلا تبحث عن شيء من المأكولات أو غيرها الا وتجده، وكأنك في بلاد زراعية تعطي أكلها كل حين بإذن ربها.

لقد رزقهم الله من الطيبات الشيء الكثير، فزيادة على الذهب الأسود الذي كان نعمة عليهم ها هم الآن يصنعون ويصدرون، وها هم يزرعون ويحرثون، وها بلادهم التي كانت غير ذي زرع، بارك الله فيها بدعوة إبراهيم، فصارت أطراف منها، أراضي زراعية تنبت الحب وتعطي النسل، ووصلوا إلى الاكتفاء الذاتي يقمحهم وزرعهم، فحق عليهم أن يشكروا ربهم الذي رزقهم من كل الطيبات.

ظاهرة الأمن والاستقرار

هناك ظواهر أخرى لابد من تسجيلها في هذه الأحاديث، وأعني بها ظاهرة



باب الكعبة المشرفة

لأمن والاستقرار، فالبلاد السعودية بلاد مأمونة بكل ما في لفظة الأمن من معنى، فلا تخشى فيها على نفسك ولا على متاعك ولا على بضاعتك، وحتى إذا ما ضاع لك شيء من الأشياء، فالغالب أن يصل إليك إذا ما اتخذت الاجراءات التي توصلك إليه من إخبار للمكلفين إلى إعطاء الامارات إلى توضيح مظان المكان الذي ضاعت لك فيه أشياؤك. والظاهرة الثانية هي ما يبذله المسؤولون من جهد لتنظيف المدن السعودية، واتخاذ جميع الوسائل الضرورية للوقاية من الأمراض والأوبئة وبالخصوص في موسم الحج وبقية المواسم الأخرى كشهر رمضان وشهر ربيع الأول.

أما البيت الحرام واما المسجد النبوي الشريف، فلا تكاد الأيدي العاملة النشيطة تفرغ من جهة من جهات المسجدين إلا لتلحق بالأخرى، متعقبة

المصلين والطائفين لتنظيف وتنقية الأمكنة التي يتعبدون فيها، والزرابي المبثوثة التي يجلسون عليها والمصابيح المضيئة التي يستضيئون بها.

أضف إلى ذلك المجهود الهائل الذي قرب إلى المتعبدين ماء زمزم البارد الطاهر الذي وضعت أواني مملوءة به في كل جزء من أجزاء المسجدين وكل ركن من أركانهما.

إن البلاد السعودية الشقيقة تغيرت ظهرا على عقب، لا في مظاهرها المادية عمرانية وغيرها فقط، ولكن بصفة خاصة بإعداد الأطر الشابة المثقفة التي أصبحت تسيرها، آخذة بزمام دواليب إدارتها. فابتداء من الحكومة المسؤولة، وانتهاء بتسيير الادارة الصناعية تلاحظ الكثرة الكثيرة من الدكاترة والشباب الجامعي الذي أصبح يسير بلاده بكفاءة واقتدار، الأمر الذي يدعو إلى الفخر والاعجاب والتقدير.



محمد الخامس رحمه الله بثياب الاحرام
أمام باب الكعبة

7- زيارة بعض المنشآت في الرياض

بعد أداء نسك العمرة، رجعنا إلى «جدة» حيث قضينا ليلتنا بقصر الضيافة، وبعد رجوعنا إلى «الرياض» كان البرنامج المعد لزيارة صاحب السمو الملكي ولي العهد الأمير سيدي محمد لم يتمم. وهكذا قام بزيارة تفقدية للكلية العسكرية المبنية في ضواحي «الرياض» وهكذا أخذ سموه الاستعداد التام لهذه الزيارة التقنية التي أعطاها عناية واهتماما خاصين، نظرا لأهميتها من جهة، ولأنها داخلة في الاهتمامات الخاصة التي طوقه بها والده حفظه الله باعتباره المكلف الأول والمنسق الأساسي لجيشنا المغربي الشجاع من جهة أخرى.

لقد ارتدى صانه الله بذلته العسكرية التي زادته مهابة خاصة، وذكرني وأنا أنظر إليه في طريقه إلى الكلية أو لدى استعراضه لبعض فيالق الجيش السعودي الشقيق، بذلك اليوم التاريخي العظيم الذي اعتبره من أبهى وأشرف الأيام في تاريخنا الوطني، والذي كنت فيه، لا أقول منف-لا كل الانفعال، أو منشرحا كل الانشراح، ولكني كنت بجانب ذلك مفتخرا كل الافتخار ومعتزا كل الاعتزاز ببلادي وملكي وجيش بلادي، ذلك اليوم هو يوم فاتح شوال 1375 الموافق لـ 12 ماي 1956 والذي كان فيه أول استعراض للجيش الملكي المغربي في عهد الاستقلال، والذي ظهر فيه الملك الصالح المنعم سيدي محمد الخامس نور الله ضريحه كقائد عام للجيش المغربي وظهر فيه ولي عهده كنائب له مشرف على تنظيم الجيش وقيادته والذي ألقى فيه جلالة الملك المنعم محمد الخامس خطابا موجها إلى الشعب جاء فيه : «هذا هو جيش وطنك الحر، وقطب دائرة استقلاله الثابت، وشارة عزه، وحارس ترابه ووحدته، فسيكون في خدمتك، ساهرا على راحتك وسلامتك، دائما على أهبة لدرء الأخطار عنك».

تذكرت محمدا الخامس وقد ارتدى لأول مرة في حياته اللباس العسكري فبرز رحمه الله في حلته الجديدة مصمما على النضال في سبيل عزة وطنه ووحدة ترابه مستعدا للتضحية بالنفس والدم في سبيل كرامة بلاده وصيانة استقلالها ووحدتها معطيا المثال العملي في ماضيه وحاضره على الوفاء لبلاده وأمته وشعبه والتفاني في الدفاع عنهما. تذكرت كل ذلك وأنا أنظر إلى ولي عهدنا المحبوب

في حلته العسكرية، معتقدا أن هذا الخلف سيكون إن شاء الله سائرا في نهج ذلك السلف. طاف ولي العهد المحبوب على جميع أقسام الكلية العسكرية، منصتا بإمعان للتوضيحات والبيانات التي كانت تقدم إليه، مستوضحا عن بعض الجوانب التي كان يود الاطلاع عليها. والواقع ان الكلية العسكرية السعودية بلغت المنتهى في التقنيات الحديثة، وجهزت بجميع التجهيزات الموجودة في أرقى الأقطار، ولقد سألت أحد الضباط الكبار المرافقين لسمو ولي العهد في رحلته هذه، عن أهمية وقيمة التقنيات التي اطلعوا عليها في الكلية، فأجابني بأن هذه التقنيات تعتبر في أعلى مستوى، ثم عقب قائلا : ان رأيي في المنشآت العسكرية وغيرها ان تؤسس وتكون في أعلى مستوى سواء من حيث التجهيز أو من حيث التسيير، وان ما شاهدناه في هذه الكلية يبعث على الارتياح.

إن جميع التوضيحات والبيانات كانت تعطى باللغة العربية، بما فيها التوضيحات التقنية الدقيقة، وأسماء الآلات والأجهزة المتنوعة والمتطورة، وكذلك البيانات المكتوبة الموجودة داخل القاعات على اختلاف أنواعها، كلها مكتوبة بالعربية وتحتها اللغة الانجليزية.

قضينا صباح يوم الاثنين 7 رجب 1409 كله بالكلية العسكرية، وفي المساء كنا مدعوين للحضور في حفلة سباق الخيول العربية التي أقيمت على شرف صاحب السمو الملكي ولي العهد الأمير سيدي محمد، وهذه الحفلة أقامها مجلس إدارة نادي الفروسية الذي يترأسه صاحب السمو الملكي الأمير عبد الله بن عبد العزيز.

لقد مرت المسابقة في أحسن الظروف وكان سمو ولي العهد يتتبع مراحلها بالمنظار المكبر وبغاية الاهتمام، كما كان سمو الأمير عبد الله بن عبد العزيز منشرحا غاية الانشراح وهو يشرح لولي العهد الذي كان جالسا بجانبه المراحل التي قطعها نادي الفروسية، ويعلق على أهمية الخيول العربية المشاركة في السباق والعناية التي يعطيها لها أصحابها.

لقد خصصت عدة جوائز للفائزين ففي جائزة الدار البيضاء للخيول المبتدئة والتي كانت مسافتها ألف متر كانت الجائزة تسعة آلاف ريال سعودية للفائزين الخمسة وفي الشوط الثاني الذي جرت فيه المسابقة والذي كانت فيه جائزة

الرباط للخيول المبتدئة كذلك في مسافة ألف ومائتي متر كانت الجائزة تسعة آلاف ريال أيضا، أما في الشوط الثالث الذي كانت فيه جائزة فاس لخيول الدرجة الثالثة والذي مسافته ألف وستمائة متر فإن جائزته بلغت أحد عشر ألف ريال واما الشوط الرابع لنيل جائزة «مراكش» فكانت جائزته أيضا أحد عشر ألف ريال وكذلك الشوط الخامس لنيل جائزة «طنجة» أما الشوط السادس والأخير على كأس صاحب السمو الملكي ولي العهد سيدي محمد فقد كانت مسافته ألفي متر وجائزته الموزعة على الخمسة الفائزين ستين ألف ريال ويلاحظ أن الخيول التي جرى عليها السباق والتي تسابقت بالأخرى عرفت بأسماء سميت بها فواحدة اسمها الشيخة وأخرى قطر الندى وثالثة : محاسن وأخرى الناصرية وخامسة : ميسان وأخرى فتاة الحجاز وأخرى : لالا.

وهلم جرا.

لقد مرت الحفلة كما ذكرت في أحسن الظروف وكانت هي مسك الختام بالنسبة للبرنامج الممتع والمفيد الذي أعد لزيارة ولي العهد المحبوب سيدي محمد.

وبعدما أعطيت الجوائز للفائزين من يد صاحبي السمو الأمير سيدي محمد والأمير عبد الله أبى صاحب السمو الملكي الأمير عبد الله بن عبد العزيز إلا أن يكرم ضيفه الكبير بتقديم هدايا إليه من جملتها جوادان عربيان من عتقاء الخيول كما قدم لمرافقيه الأقربين هدايا رمزية نقش فيها ما يلي : إهداء من حضرة صاحب السمو الملكي الأمير عبد الله بن عبد العزيز ولي العهد المعظم ورئيس نادي الفروسية إلى الأستاذ فلان بمناسبة زيارة نادي الفروسية بالرياض.

وبهذه الحفلة الفروسية انتهى برنامج مقامنا بالمملكة العربية السعودية رفقة ولي عهدنا سيدي محمد، وصرنا نحزم أمتعتنا استعدادا للرجوع إلى وطننا الحبيب. لقد كانت زيارة ولي العهد سيدي محمد إلى المملكة العربية السعودية زيارة عمل ونشاط وتوثيق لعرى الأخوة الثابتة بين المملكتين والشعبين : المملكة المغربية والمملكة السعودية، والشعب السعودي الشقيق والشعب المغربي الوفي.

ولقد تجلى فيها بوضوح مقدار الارتباط والمحبة والتقدير الذي يكنه جلالة الملك فهد وصاحب السمو الأمير عبد الله وأشقاؤهم جميعا والشعب السعودي قاطبة لجلالة الملك الحسن الثاني وسمو ولي عهده الأمير سيدي محمد وللشعب المغربي كله.

ففي كل حديث أجريناه مع المسؤولين السعوديين أو غير المسؤولين لا نسمع إلا التنويه بالمغرب وملكه، والتقدير العظيم للنهضة التي تنعم بها بلادنا.

لقد استقبل ولي العهد سيدي محمد في الرياض وغيره من المدن السعودية استقبال الملوك والرؤساء، ولقد كانت الفرحة تعم المستقبلين على اختلاف حيثياتهم ومكانتهم، وكان سمو الأمير عبد الله ولي عهد المملكة السعودية يشرف بنفسه في كل الأوقات وفي كل الظروف على أن يكون مقام ولي عهدنا في منتهى الراحة والانبساط.

8- الإحرام بالعمرة

بعد التوديع الحار من طرف أمير المدينة المنورة وصحبه الكرام لصاحب السمو الملكي الأمير سيدي محمد أقلتنا الطائرة السعودية إلى مدينة «جدة» التي كان احرامنا منها بسنة العمرة.

كانت ساعة الاحرام مؤثرة جدا، فبعد الغسل ولبس الازار والرداء وأداء ركعتين «بالكافرون» و«الاخلاص» ارتفعت الأصوات بالتلبية «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك» ونحن في تلك اللحظات المشرقة الصادقة في التوجه، التحق بنا ولي العهد المحبوب مرتديا بدوره إزارا ورداء مثل بقية إخوانه المومنين، ملبيا دعوة ربه إليه، سائلا منه التوفيق والسداد فيما حمله وسيحمله والده من مسؤوليات وأمانات واتخذ مكانه وسط إخوانه المومنين الذين ساوى بينهم الاسلام فوقفوا أمام ربهم مجردين من كل حول وقوة، خاشعين خاضعين مستشعرين عظمة الرب العظيم الذي دعا خلقه إلى أن يخلصوا في عبادتهم وجميع أعمالهم، حتى ينالوا رضاه سبحانه، وينعموا برحمته. ومكثنا بعض الدقائق ننتظر آذان المغرب لنؤديها في وقتها المختار، قبل أن نمتطي السيارات التي تقلنا إلى بلد الله الحرام : مكة المشرفة وبعد الآذان والصلاة ارتفعت الأصوات بالتلبية، وقصد كل واحد منا السيارة التي خصصت له، حيث سار الركب الأميري بسم الله مجراه ومسراه وما هي إلا ساعة زمانية حتى أشرفنا على مكة المكرمة ولاحت لنا منارات المسجد الحرام المضيئة، وكأنها ترحب بمقدم حفيد الرسول، ولي عهدنا المحبوب.

الطريق من «جدة» إلى «مكة» فسيحة معبدة مريحة، والسائر فيها لا يشعر بتعب ولا ملل، والسيارات المتعددة الألوان والأشكال تمر فيها كالبرق الخاطف من سرعة السير.

كان وقتنا ونحن في طريقنا إلى مكة، مملوءا بالتلبية والذكر والتسبيح وتلاوة القرآن، وكانت الخشية تملأ قلوبنا ونحن في طريقنا إلى البيت الذي جعله الله مثابة للمومنين وأمنا.

في المسجد الحرام

وما هي إلا لحظات، حتى كنا بأحد أبواب المسجد الحرام تالين قول ربنا عزت قدرته «رب أدخلني مدخل صدق، وأخرجني مخرج صدق، واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا» وتقدمنا يسيرا داخل المسجد، فلاحت لنا الكعبة المشرفة مكسوة بغطائها الأسود الحريري، مطرزة جوانبه بخيوط حريرية ذهبية، مكتوب فيها آيات قرآنية وأسماء من أسماء الله، فما شعرنا إلا وألسنتنا تنطلق داعية بالدعاء الذي سمعه سعيد بن المسيب من أمير المومنين عمر بن الخطاب (اللهم زد هذا البيت تشريفا وتعظيما وتكريما ومهابة، وزد من حجه أو اعتمره تكريما وتشريفا وبراً). وانطلقنا توا قاصدين الكعبة المشرفة واقفين أمام الحجر الأسود، حيث سمينا الله وكبرنا وهللنا وشرعنا في الطواف حول الكعبة سبعة أشواط، رملنا أي سرنا مسرعين في الأشواط الثلاثة الأولى امتثالا لأمر الرسول ﷺ، ومشينا مشيا عاديا في الأشواط الباقية. فعن ابن عباس رضي الله عنه قال : قدم النبي ﷺ مكة في عمرة القضية، فقال المشركون : انه يقدم عليكم قوم قد أوهنتهم حمى يثرب (المدينة» ولقو فيها شرا فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك، فأمر أصحابه أن يرملوا في الأشواط الثلاثة الأول، فلما رأوهم قالوا : هؤلاء الذين ذكرتم ان الحمى قد انهكتهم، هؤلاء اجلد منا.

كنا ونحن نطوف بالبيت الحرام بجانب ولي عهدنا المحبوب، في حالة من الانفعال والخشوع والخضوع لرب هذا البيت، وكنا متجهين بكياننا كله إلى الذي خلقنا. تجأر ألسنتنا بالدعاء وتخفق قلوبنا إشفاقا على أنفسنا، ونركض ثم نمشي وكأننا نريد أن نسرع الخطى إلى التوبة وإلى الرب الذي يعفو عن السيآت ويتجاوز عن الخطايا، ويمنح عباده الصادقين الغفران.

الطواف عبادة كبرى

الطواف عبادة كبرى وصلاة. والحكمة فيه الاستجابة إلى الله وإقامة الذكر في هذا البيت الذي يعتبر أقدم معاهد التوحيد المعروفة في الأرض (إنّ أول بيت

وضع للناس مباركا وهدى للعالمين فيه آيات بينات، مقام إبراهيم، ومن دخله كان آمنا) في الحديث الذي رواه أبو داود والترمذي : إنما جعل الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة، ورمي الجمار، لإقامة ذكر الله. هذا البيت الذي رفع قواعده سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام وسيدنا إسماعيل ابنه، يعتبر أشرف بيوت الله في الأرض، والصلاة فيه تعدل مائة ألف صلاة في غيره كما ورد عن رسول الله.

هذا البيت الذي نؤمه وتقصده آلاف المؤلفة من المومنين كل سنة استجابة لدعوة أبينا إبراهيم الخليل (وأذن في الناس بالحج ياتوك رجالاً وعلى كل ضامر، ياتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات) هذا البيت الذي يلتقي فيه المومنون من كل أنحاء الدنيا ليشهدوا لِلّهِ بالتوحيد واخلاص العبودية، وليجتمعوا على كلمة سواء فيجمعوا أمرهم على أن يكونوا أمة واحدة، دستورها القرآن وإمامها محمد عليه السلام، واهدافها نشر تعاليم الاسلام، وهداية الخلق إلى السلام. عاملين ومصممين على أن يكونوا الأمة المسلمة الحقة التي دعا إبراهيم الخليل أن تكون من ذريته (ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك). وبعد الانتهاء من الطواف سبعة أشواط في المكان الذي ابتدأنا منه أي أمام الحجر الأسود الذي وضعه إبراهيم الخليل عليه السلام ليكون مبدأ الطواف ومنتهاه، حيث صار تقبيله من شعائر الحج، رغم أنه حجر لا يضر ولا ينفع كما نطق بذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

الوقوف بالملتزم

بعد ذلك وقفنا بالملتزم وهو الجدار الواقع بين الحجر الأسود وباب الكعبة وفيه يقف المومنون داعين متوجهين متعلقين بأستار الكعبة راجين التوبة والمغفرة وهو المكان الذي تحدث عنه رسولنا قائلا : هنا تسكب العبرات. نعم هناك تسكب العبرات، فبعد أن يطوف الانسان وهو متجرد من ثيابه إلا من إزار ورداء، وبعدما يستشعر أنه لا يملك حولا ولا قوة من نفسه، وبعدما يكون في حالة من الخشية والخوف من الرب العظيم، يقف بالملتزم لاجئا متضرعا باكيا خاشعا، وكم لاحظنا في ذلك المكان من أقوام يجأرون إلى الله بصدق ويقين، وأصواتهم وتضرعاتهم تقطع الأكباد.

في مقام ابراهيم

وتأخرنا قليلا قرب مقام إبراهيم لنؤدي ركعتي الطواف «بالكافرون» و«الاخلاص» تالين قول رب العالمين : «واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى» داعين مثل ما دعا إبراهيم عليه السلام (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم، ربنا واجعلنا مسلمين لك، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك، وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم).

السّعي بين الصّفا والمروّة

وانطلقنا إلى المسعى عن طريق «الصفا» تالين قول الله تعالى (إن الصفا والمروة من شعائر الله، فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه ان يطوف بهما، ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم) ثم صعدنا فوق حجرات الصفا وتوجهنا إلى الكعبة قائلين : بسم الله والله أكبر ولله الحمد وبدأنا بالسعي من الصفا قاصدين المروة داعين مبتهلين، مهللين ومكبرين قائلين : لا اله إلا الله ولا نعبد إلا إياه، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون. حتى إذا ما وصلنا بطن المسيل وهو المكان الذي جعلت فيه إضاءات خضراء خاصة، خبّبْنَا أيْ سرنا مسرعين ومكبرين قائلين : رب اغفر وارحم واعف وتكرم، وتجاوز عما تعلم انك أنت الأعز الأكرم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.

وهكذا قضينا سبعة أشواط السعي، ابتدأنا من الصفا، وانتهينا في المروة. وبوقوفنا فوق المروة واتجاهنا إلى الله ودعواتنا انتهينا من أداء العمرة بعدما قصصنا شعرات من رؤوسنا إشعارا بالتحلل.

والسعي بين الصفا والمروة الذي يعتبر شعيرة من شعائر الحج والعمرة، يرجع إلى قصة «هاجر» زوجة أبينا إبراهيم الخليل عليه السلام فلقد تركها سيدنا إبراهيم في ذلك المكان مع طفلها إسماعيل ولما انقضى لها الماء الذي كان لديها، نهضت تبحث عن عين تسقي منها ما تقربه لولدها كي يطفئ عطشه، فصارت تسعى ما بين الصفا والمروة والهةً حيرى، مشفقة على ابنها من العطش، حتى هداها الله إلى بئر «زمزم» الذي أطفأ ظمأها وظمأ ولدها.

الدخول إلى الكعبة المشرفة

بعد الانتهاء من أداء نسك العمرة، اتجهنا مع ولي عهدنا مرة أخرى إلى الكعبة المكرمة، حيث أعطيت التعاليم لفتحها والدخول إليها وهكذا أوتي بالمفتاح الذي لازال يتوارثه أبناء وأحفاد عثمان بن طلحة منذ عهد الرسول ﷺ، فلقد ورد أن رسول الله ﷺ خاطب سدنة العكبة وهم بنو شيبة قائلا : هاكم المفتاح يابني شيبة وكلوا بالمعروف. قال العلماء : هذه ولاية من رسول الله ﷺ لا يحل لأحد أن ينزعها منهم.

وضعت تحت باب الكعبة درج (سلوم) فصعد ولي العهد أولا ولحقنا به نحن رفقاءه، فصلى وصلينا، ودعا ودعونا، وتمتع وتمتعنا.

صفة الكعبة

والكعبة كما قال القاضي عياض سميت بهذا الاسم لتكعيبها أي تربيعها وكل بناء مرتفع كعبة، ومنها البيت العتيق، لأن الله اعتقه من الجبابرة، فلم ينله جبار قط. والكعبة مربعة الشكل تقريبا وارتفاعها عن الأرض كما ذكر ذلك بعض الرحالة خمسة عشر مترا وطول ضلعها الشمالية 92م.9 وطول ضلعها الجنوبية 25م.10 وطول ضلعها الغربية 80م.12 وطول ضلعها الشرقية 11.88 ويوجد في الضلع الشرقي من الكعبة باب مرتفع يصعد منه إلى أعلى الكعبة ويقال له باب التوبة وهي مبنية من الحجارة الصماء وبداخلها ثلاثة أعمدة من الخشب على صف واحد من الشمال إلى الجنوب.

الصلاة في الكعبة

وبعض الناس يؤدون الصلاة داخل الكعبة على الأركان الأربعة ولم أقف على شيء وارد في ذلك. ولكن جاء في صحيح مسلم عن ابن عمر رضي الله عنه قال : قدم رسول الله ﷺ يوم الفتح فنزل بفناء الكعبة، وبعث إلى عثمان ابن طلحة فجاء بالمفتاح، ففتح له الباب، فدخل رسول الله ﷺ البيت وعثمان بن

طلحة وأسامة وبلال، فلما خرجوا ابتدرهم الناس، فقلت لبلال : أصلى رسول الله ﷺ في البيت قال : نعم : قلت أين : قال بين العمودين المقدمين تلقاء وجهه.

ولم يقل انه صلى على الأركان الأربعة ولا تصح صلاة الفرض في الكعبة على ما ذهب إليه المالكية والحنابلة اما النافلة فتجوز خلافا لمن منع ذلك. اما الحنفية والشافعية فيجيزون صلاة الفرض والنفل معا فيها.

وصلاة النافلة في الكعبة تصح في الجهات الأربع فهي كلها قبلة.

عندما دخلت الكعبة وأديت بعض الركعات التي أرجو أن تكون متقبلة رجعت بي الذاكرة إلى مجيء رسول الله ﷺ إلى مكة عام الفتح أي في السنة الثامنة للهجرة وصعوده إلى الكعبة وتحطيمه كل الأصنام التي كانت موجودة بها وقضائه النهائي على كل إشراك وعبودية لغير الله، ونزول القرآن الكريم بأن المشركين نجس فلا يقربوا المسجد الحرام. فالحمد لله الذي نصر عبده وأيد جنده وهزم الأحزاب وحده، والحمد لله الذي هدانا للاسلام، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

في غار حراء



الصورة تمثل المؤلف وبجانبه الأستاذ محمد العبدلاوي في غار حراء

في ربيع الثاني عام 1394هـ، قدر لي أن أرقى ذلك الجبل الحبيب غار حراء، لأنعم بنفحات الرسول المصطفى ﷺ. وكان هذا الفصل من الرحلة من وحي تلك الزيارة المباركة.

كانت أمنية طالما فكرت في تحقيقها، وكانت رغبة ملحة أنتظر الفرصة الملائمة للعمل على تنفيذها. فكلما زرت مكة حاجا أو معتمرا، إلا وأجد نفسي تواقة إلى الصعود إلى جبل النور، وزيارة غار حراء، متعبد الرسول محمد عليه السلام قبل البعثة النبوية، والمكان الذي سطع منه نور الحق، والغار الذي استضاء فيه قلب الرسول بضوء المعرفة، فتجلت له الحقيقة الكبرى أعظم ما يكون التجلي، وخاطبه فيه جبريل بعد أن ضمه إليه ثلاثا، وعلمه الله فيه ما لم يكن يعلم، وأعطاه فأرضاه وكان فضل الله عليه عظيما.

وهكذا قر العزم هذه المرة على أن نحقق الرغبة، ونلبي النداء الذي تنادي به النفس منذ أعوام وأعوام.

واتفقنا أنا ورفيقي[1] الذي التقيت معه في المسجد الحرام، مع السائق أن يكون لدينا باب الحرم لدى إسفار الصابح، وقبل طلوع الشمس، ليأخذنا إلى سفح جبل النور، حيث نأخذ طريقنا إلى الغار راجلين رغم ما كان القوم يصفونه لنا من صعوبة الطريق، ووعورة الجبل، ومشقة السير، والخوف من الانزلاق.

وما لنا نتخوف ونحتاط كل هذا الاحتياط ؟ ألم يكن رسول الله ﷺ يقصد هذا الجبل راجلا في كثير من السنوات للتعبد والتحنث، ألم يتحنث فيه قبل ذلك جده عبد المطلب وغيره من حكماء قريش. ففي سيرة ابن هشام، كان رسول الله ﷺ يجاور في حراء من كل سنة شهرا، وكان ذلك مما تحنثت به قريش في الجاهلية، والتحنث الخروج من الحنث أي الإثم، كما يقال التأثم الخروج عن الإثم.

وأدينا صلاة الصبح مع الجماعة بالحرم المكي، وقرأنا حصتنا من قرآن الفجر المشهود، وبدأ النهار يسفر عن وجوده وضيائه، فغادرنا مصلانا، لنجد السائق والسيارة في انتظارنا بباب الحرم الكبير. وامتطينا السيارة قاصدين جبل النور، ونحن أقوى ما تكون غزما على تحقيق أمنيتنا الغالية وتشوقا إلى التملي من هذا المقام العظيم، الذي أشرقت منه الأنوار القدسية على الكون.

---

(1) كان رفيقي هو الأستاذ العالم السيد محمد العبدلاوي.

ولم تقطع السيارة إلا مسافة ثلاثة أميال، حتى كنا بسفح جبل شاهق، تتراءى آثار طرق منعرجة في أسفله، ويتصوره الناظر عندما يراه، وكأنه برج عظيم شاده الانسان، أو كأنه جدار ارتفع ارتفاعا شاهقا، واستوى استواء يستحيل معه التسلق والصعود، لم نكن إذذاك نفكر في المستحيل، أو البعيد، أو الشاهق، أو المستوي، وإنما كنا مقررين بلوغ قمة الجبل، قمة النور، حيث الغار الذي أشرقت فيه أنوار الوحي على سيد الخلق، غار حراء. وشددنا من عزيمتنا، وقوينا من إرادتنا وسرنا مستعينين بربنا، في الطرق الصالحة في سفح الجبل، نبحث عنها ذات اليمين وذات اليسار، نصعد في الجبل شيئا فشيئا، ونتحدى الوعورة والتعاريج، مصممين على تحقيق الهدف المنشود، صرنا نعلو شيئا فشيئا، وأصبحت الصخور تتراءى لنا وكأنها حيطان تتحدانا بدورها قائلة : احذروا، وأصبحت أنفاسنا تضطرب، وأخذ العياء والتعب يدبان إلى أجسامنا، قلوبنا تنبض بقوة، وأرجلنا تضطرب وتنزلق عندما نضعها على بعض الصخور، وأيدينا بدورها تساعد على التسلق وتخطي بعض العقبات.

وأخذ مني العياء مأخذه فجلست أستريح متكئا على صخرة في الطريق، لتهب نسمة من نسمات ذلك الصباح فتنعش نفسي، وتخفف من حدة التعب الذي كاد يرهقني.

ونمضي في طريقنا متسلحين بعزيمتنا وإيماننا، وإرادة الوصول إلى تحقيق ما إليه قصدنا، نرفع رؤوسنا إلى أعلى، فلا نرى إلا الجبل الذي يتراءى لنا كأنه برج مستقيم، ونسير متيامنين أحيانا، ومتياسرين أحيانا أخرى، ثم نسأل السائق الذي يصاحبنا كم بقي لنا لكي نصل إلى قمة الجبل ؟ فيجيب : ربع ساعة، فنسير ونسير، ونتسلق ونتسلق وتمضي الربع ساعة، والنصف ساعة، فنسائله مرة أخرى كم بقي ؟ فيقول : ربع ساعة فنضحك ونتندر على هذه الربع ساعة التي لا تنقضي، ويأخذ منا العياء مبلغه، فنجلس تحت ظل شجرة صغيرة لنستريح، ونلاحظ من بعيد جماعة من الاخوان الباكستانيين تأخذ بدورها طريقها في المنعرجات والسبل الوعرة. وألقى نظرة في ساعتي اليدوية، فألاحظ أننا سرنا في الجبل ساعة ونصف ساعة وأسأل السائق، كم بقي للوصول ؟ فيقول : ربع ساعة، فنضحك ونتندر عليه مرة أخرى ثم نعاود المسير والتسلق والانزلاق، وقد

هدأت أنفاسنا، واستقامت ضربات قلوبنا، نسير ونسير مطرقين صامتين، لا هم لنا إلا بلوغ الهدف والوقوف في القمة، وإدراك الغار، وما هي إلا عشرون دقيقة أخرى حتى نشعر أننا أوشكنا أن نصل، فلقد تراءت لنا قمة الجبل، ونحن في ميمنة ثم اختفت عندما أخذنا المسير في طريق منعرج. وألقينا نظرة إلى الأسفل، فإذا نحن في علو شاهق، واتبعناها بنظرة إلى الأعلى فإذا نحن قاب قوسين أو أدنى من قمة الجبل، وتعالى صوتنا بالتكبير والتمجيد. ها نحن أوشكنا أن نحقق الرغبة ونطفئ الغلة، ونبلغ غار حراء. وتقدمنا بضع خطوات فإذا نحن في قمة جبل النور، وإذا جماعة من الرجال والنساء واقفون : فيهم من يدعو، وفيهم من يتأمل، وفيهم من يصلي داخل مكان حطمت بعض جدرانه. كما حطمت قبته التي كانت ترمز إلى وجود الغار متعبد الرسول عليه السلام، نزلوا إليه بمرقاتين أو ثلاثة. وأشار إلينا شاب جلد، أن تقدموا بضع خطوات في انحدار لتصلوا إلى الغار، وتسللنا منحدرين فإذا نحن أمام صخرتين يكادان يكونان ملتصقتين، وإذا بنا نتساءل مع بعضنا كيف نستطيع المرور بين الصخرتين، وإذا نحن داخلون بينهما ببعض التحايل، وإذا نحن أمام الغار وجها لوجه، وإذا هو محجوب وواقف بين صخور ضخمة تميل إلى الاحمرار ومنحدر عن قمة الجبل لا يكاد يتسع إلا لشخص واحد، وتقدمت مندفعا إلى قلب الغار، وسرحت سجادتي، وأديت ركعتين شكرا لربي ومتأملا وداعيا. هذا هو المكان الذي تلقى فيه الرسول عليه السلام ما تلقى، بعد أن مكث فيه الليالي ذوات العدد. ترى أي قدسية لهذا المتعبد المنعزل، أي شرف لهذه البقعة من الأرض التي شاهدت من الأسرار ما لم يشاهده أي إنسان. الله أكبر، الله أكبر، هنا كان يقصد الرسول عليه السلام ليجاور في شهر رمضان من كل سنة، هنا كان متعبده بالاتجاه والتفكير في عظمة الله وملكوته، هنا صفت نفسه الطاهرة وارتقت وتعلقت بالملأ الأعلى، فتلقت القول الثقيل، والأمانة العظمى.

ومن هنا انبعثت الحقيقة الكبرى، ومن هذا المكان إستضاء الكون ومن هنا انبثقت الأنوار القدسية، هنا كان اللقاء الأول للرسول مع الوحي، هنا وقف جبريل يقول للرسول الكريم : اقرأ، فيجيبه ما أنا بقارئ، فيضمه ويغطه ثم يقول له ثلاثا اقرأ، حتى إذا نفى كل علم بالقراءة، تلا عليه : «اقرأ باسم ربك الذي

خلق، خلق الانسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم».

في سيرة ابن هشام روى عبيد بن عمير قال : كان رسول الله ﷺ يجاور ذلك الشهر من كل سنة، يطعم من جاءه من المساكين، فإذا قضى رسول الله ﷺ جواره من شهره ذلك، كان أول ما يبدأ به إذا انصرف من جواره، الكعبة قبل أن يدخل بيته، فيطوف بها سبعا، أو ما شاء الله من ذلك، ثم يرجع إلى بيته، حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله تعالى به فيه ما أراد من كرامته، من السنة التي بعثه الله تعالى فيها وذلك الشهر شهر رمضان خرج رسول الله ﷺ إلى حراء كما كان يخرج لجواره، ومعه أهله حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته ورحم العباد بها، جاءه جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى. قال رسول الله ﷺ : فجاءني جبريل وأنا نائم بنمط (وعاء كالسفط) من ديباج فيه كتاب، فقال اقرأ، قلت ما أقرأ ؟ قال : فغتني به (الغت : حبس النفس) حتى ظننت انه الموت، ثم أرسلني، فقال : اقرأ فقلت : ماذا أقرأ ؟ قال فغتنى به حتى ظننت انه الموت، ثم أرسلني فقال : اقرأ، قال : فقلت : ماذا أقرأ ؟ ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لي بمثل ما صنع بي فقال : اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم. قال : فقرأتها ثم انتهى فانصرف عني، وهببت من نومي فكأنما كتبت في قلبي كتابا. قال : فخرجت حتى إذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتا من السماء يقول : يامحمد أنت رسول الله وأنا جبريل. قال فوقفت أنظر إليه، فما أتقدم ولا أتأخر، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء، قال : فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك فما زلت واقفا، ما أتقدم أمامي وما أرجع ورائي، حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي، فبلغوا أعلى مكة، ورجعوا إليها وأنا واقف في مكاني ذلك، ثم انصرف عني إلى آخر الحديث. وفي حديث عائشة أم المومنين أنها قالت كما ورد في البخاري : أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي، الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رأيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه (وهو التعبد) الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم

يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك، فقال له اقرأ، قال ما أنا بقارئ قال : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ، فقلت ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثانية (ضمني وعصرني) حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال : اقرأ فقلت ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الانسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم، فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده (الحديث).

نعم في هذا المرصد الروحي العظيم، شرح الله تعالى صدر حبيبه محمد عليه السلام فهداه وعلمه ما لم يكن يعلم، ورفع ذكره في العالمين وأمره بتبليغ رسالته للثقلين «ياأيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر، والرجز فاهجر ولا تمنن تستكثر، ولربك فاصبر».

هنا في هذا المرصد الروحي الذي لبث رسول الله يقصده كل سنة في رمضان، يفكر ويطيل التفكير، ويستجم ويكثر الاستجمام، ويتوجه بكل قلبه وكيانه إلى ربه، بعيدا عن آثام القوم وعبوديتهم للأصنام، ويهيأ من ربه دون أن يدرى لتحمل أعظم رسالة تهدى إلى الحق، وتنير الطريق أمام الضالين والحائرين، وتدعو إلى الوحدانية المطلقة وتوحد الأمم على اختلاف أجناسها وألوانها على كلمة سواء.

نعم في هذا المرصد الروحي وفي هذا الغار العتيق الذي احتفظ بصلابته وقوته، فلم تغير منه مرور الأعوام، ولم تعد عليه عادية الزمان زادت نفس سيدي وسندي رسول الله صفاء، وتهيأت لتلقى الحقيقة الكبرى التي تجلت له عندما خاطبه الملك جبريل قائلا : «اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم، علم الانسان ما لم يعلم» كأني برسول الله وهو يتلقى أول آية نزلت عليه فزعا مشفقا، تتحول نفسه الكريمة من حال إلى حال، فترفرف روحه في عالم الملكوت، ويحس بالمسؤولية الملقاة على عاتقه وينظر عن يمينه وعن شماله ومن بين يديه ومن خلفه فيرى جبريل يخاطبه : أنت رسول الله وأنا جبريل، فهو رسول الله إلى الخلق كافة يهديهم إلى الحق، ويبلغهم رسالة ربه، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ظلمات الجاهلية وعبادة الأصنام والأوثان إلى نور القرآن والعلم والعرفان.

كأني به وقد علمه الله ما لم يكن يعلم واختاره للرسالة العظمى، والدعوة الحنفية السمحاء، وإرشاد الخلق إلى الحق، إلى الايمان، إلى بعث ملة إبراهيم الخليل، وتطهير البيت الحرام للعاكفين والقائمين والراكعين والساجدين، والساعين والطائفين والدعوة لما دعا إليه اخوانه الأنبياء قبله. «شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه، كبر على المشركين ما تدعوهم إليه، الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب» كأني به فداه أبي وأمي وهو يحكي لورقة بن نوفل ما رأى وما تلقى في الغار، يقول له ورقة : ليتني فيها جدعا إذ يخرجك قومك، فيقول : أو مخرجي هم ؟ فيقول نعم لم يأتِ رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي. فبدأ ﷺ يدرك أعباء الرسالة وأثقالها وآلامها وتضحياتها، يدرك ما سيلقاه من قومه من عنت وإرهاق، وإذاية ومكروه، ويستعد لأداء الأمانة التي تحملها، والرسالة التي تلقاها مهما تعنت المتعنتون وقاوم المقاومون، وعاند المعاندون. وتصورت رسول الله ﷺ يدعو إلى ربه سرا ثم يأمره ربه بأن يصدع بالأمر، فيقوم يدعو ويدعو، غير مبال بما يعترضه من صعوبات وما توضع في طريقه من عقبات، وما يتعرض له من أذى «يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك، وان لم تفعل فما بلغت رسالاته، والله يعصمك من الناس» تصورته ﷺ تاليا للقرآن، داعيا إلى التوحيد، مصارعا للكفر والالحاد مقارعا بالحجة، موضحا بالبرهان، مجادلا بالحكمة والموعظة الحسنة، متسامحا مع خصومه وأعدائه قائلا لهم : (اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون). تصورته عليه السلام مجاهدا مناضلا، مبشرا ونذيرا، معطيا المثل من نفسه في التحلي بكل الصفات التي يدعو إلى التحلي بها، سائرا في حياته جميعها طبق تعاليم القرآن الذي أنزل عليه.

استعرضت سيرة الرسول في شريط أمام عيني، سواء قبل البعثة أو بعدها حيث كانت كلها طهر وأمانة وصدق ووفاء للمثل العليا، حتى دعى في الجاهلية بالأمين، تصورت أمام عيني ثلاثا وعشرين سنة قضاها عليه السلام بعد البعثة، وهو يدعو وينصح ويجاهد ويبين، يدعو إلى ربه، وينصح البشرية جمعاء، ويجاهد الكفر والزيغ والانحراف، ويبين ما أنزل إليه من ربه بلسان عربي مبين.

ورجعت إلى نفسي، فوجدتني واقفا مكاني أمام غار حراء، وإذا الجو مملوء طهرا، وإذا الفضاء الواسع يحدث عن سعة الرسالة التي أتى بها محمد من عند ربه، وإذا الجبال المحيطة بحراء تتراءى أمامي صغيرة ضئيلة، وإذا أنا أنظر إلى مشارف مكة، وإذا الحرم يتراءى أمامي في قدسيته ونورانيته، وإذا لساني يتلو ما تلاه إبراهيم الخليل عليه السلام عندما كان يرفع قواعد البيت الحرام «ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا انك أنت التواب الرحيم، ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم». ثم قلت لرفيقي وقد طال بنا المقام، وأخذنا بروعة وقدسية المكان : هيا بنا يا أخي إلى النزول، فالشمس آخذة في الطلوع، ونخشى أن يصيبنا من التعب والارهاق عند النزول، ما لا يستطيع أن يتحمله جسمنا الضعيف.

وأخذنا طريقنا نتحايل في الهبوط مثل ما تحايلنا في الصعود ونبحث عن المسالك السهلة، والسبل القريبة نمشي ونتسلق أحيانا، نسير ونحن قابضون بأيدينا على الصخور خوفا من الانزلاق ولطالما انزلقت أرجلنا فكدنا نقع من العلو الشاهق، وكثيرا ما أخذ رفيقي جازاه الله ــ بيدي، يساعدني خصوصا وان حذائي المغربي كان يفلت من رجلي المرة تلو المرة، فيكاد يجرني معه.

وأخذ مني العطش مبلغه ولم نفكر عندما قررنا صعود الجبل أن نحتاط ونأخذ معنا ما يمكن أن نحتاجه من ماء وطعام، ولم أكد أميل بوجهي ذات اليمين مشتاقا لشربة ماء، حتى يقدم لي أحد الاخوان الباكستانيين ــ وكان صاعدا بدوره ــ شربة من ماء زمزم، فكانت بردا وسلاما على نفسي العطشى، ثم ما لبث الشاب الذي قادنا إلى الغار أن قدم لنا بدوره تفاحتين، إحداهما لي والأخرى لرفيقي.

وانطلقنا نسير ونتنزل إلى أن بلغنا سفح الجبل ولساننا يردد : ربنا آت سيدنا محمدا الوسيلة والفضيلة، وابعثه المقام المحمود الذي وعدته، انك لا تخلف الميعاد، «ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة، انك أنت الوهاب» وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا أثيرا إلى يوم الدين.

18 ربيع الثاني 1394

ستة أيام
في المملكة العربية السعودية

قدر لي أن أزور المملكة العربية السعودية مرات عديدة للحج أو للعمرة ولله الحمد. ولم أكن أدوّن رحلاتي إلى الديار المقدسة بانتظام. أما هذه الرحلة التي تمت في عام 1993، فقد حرصت على الكتابة عنها بالتفصيل، وهذه الفصول هي جزء من رحلاتي الحجازية. وقد رافقني فيها ابني الدكتور محمد الناصر وابن أخي سيدي محمد الدكتور المرحوم عبد الرحمان القادري.

إلى مطار المدينة المنورة

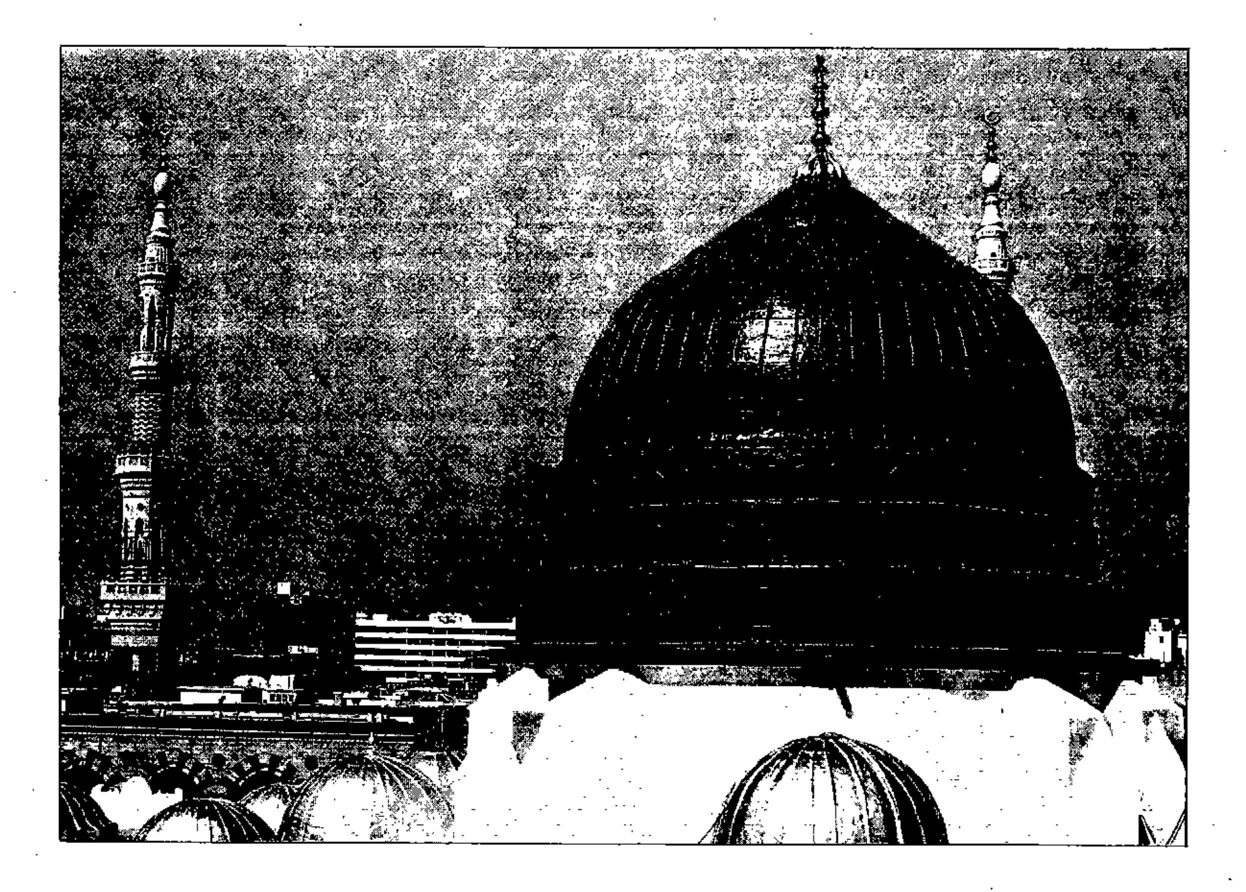
قرأنا في أحاديث سيدنا رسول الله ﷺ : (عمرة في رمضان تعدل حجة) وهكذا قررنا شد الرحلة إلى المدينة المنورة للصلاة في مسجد خير الأنام، والسلام عليه وعلى صاحبيه أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب، ثم نأخذ طريقنا من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة لأداء سنة العمرة.

حطت الطائرة السعودية أرجلها المطاطية بمطار المدينة، وجميع ركابها متطلعون إلى مسجد رسول الله ﷺ، ومتشوقون إلى زيارة قبره والسلام عليه وعلى صاحبيه، وتذكرت أبياتا يتغنى بها مادحو الرسول الكريم عليه السلام فأنشدتها سريا مع نفسي قائلا :

يارسول الاله إني محـــب لك والله شائق مستهـــام
يارسول الاله في كل حيـــن لك مني تحية وســـلام
يارسول الاله شوقي عظيـــم زائد والغرام فيك غـــرام
يارسول الاله جئتك أسعـــى قيدتني الذنوب وهي عظـام
يارسول الاله إني نزيـــل ونزيل الكرام ليس يضـــام

كان اليوم يوم جمعة، وكان وقت الصلاة قد قرب جدا ونحن لازلنا بالمطار، وامتطينا سيارة صغيرة مسرعين، حتى لا تفوتنا صلاة الجمعة في المسجد النبوي، ونحن في طريقنا إلى قلب مدينة الرسول عليه السلام تلقانا جبل «أحد» الذي قال فيه رسول الله ﷺ : (أُحد يحبنا ونحبه) وكأنه يرحب بنا، ويحكي لنا واقعته، وما وقع لرسول الله وصحابته فيه من معارك وأهوال، دفاعا عن رسالة الاسلام.

ولاحت لنا من بعيد منارات المسجد النبوي، رافعة رؤوسها، معلنة أن الله أكبر من كل كبير، وان سيدنا رسول الله ﷺ خاتم المرسلين، وفي جانب من هذه الجوانب، برزت القبة الخضراء، يسطع منها النور الوهاج، مشيرا أن جثمان الرسول العظيم عليه السلام يوجد بتلك البقعة الطاهرة التي يسطع منها النور.



القبة الخضراء أعلى الروضة النبوية المطهرة في المسجد النبوي الشريف

كان بجانبي في السيارة ابني محمد الناصر، وابن أخي عبد الرحمن، اللذان صاحباني في رحلتي، فما شعرت في تلك اللحظة إلا بلساني ينطق مصوتا : الله أكبر، السلام عليك يارسول الله، فردد المصاحبان لي بدورهما التكبير والصلاة على رسول الله.

كنا نخشى أن تفوتنا صلاة الجمعة بمسجد الرسول العظيم عليه السلام، ولذلك كنا مستعجلين وصول السيارة إلى الفندق الذي أقمنا فيه، لإنزال أمتعتنا وحقائبنا، والاسراع إلى المسجد النبوي لأداء صلاة الجمعة مع المومنين الذين أتوا من كل فج عميق، ثم السلام على سيد المرسلين.

وصلنا إلى المسجد النبوي وخطيب الجمعة شرع في خطبته الأولى، فلم نستطع أن ندخل المسجد، إذ هو مكتظ ــ رغم سعته ــ بالمصلين، والطرقات المؤدية إلى أبواب المسجد بدورها مكتظة، فتحايلنا حتى وجدنا مقاعد مع المصلين في أحد الأبواب. المصلون كأن على رؤوسهم الطير، فهم ينصتون إلى الخطيب بكل اهتمام، وهم يؤمنون لدى شروعه في الدعاء عند قرب انتهاء الخطبة، وانتهى الخطيب من خطبتي الجمعة، فأقيمت الصلاة، وتوجه جميع المصلين إلى القبلة، بقلوب خاشعة، ووقفات معتدلة، وصفوف متراصة، وارتفع صوت الإمام مفتتحا الصلاة بكلمة «الله أكبر» فارتج جميع المصلين بالتكبير، وكأن جدران المسجد وسواريه بدورها تنطق بالتكبير (وإن من شيء إلا يسبح بحمده، ولكن لا تفقهون تسبيحهم). بالنطق بكلمة «الله أكبر» خرج الجميع من هذا العالم المغري الزائف، ليحلق في أجواء روحانية عُلّيا، يبتدئها بحمده لله العلي العظيم، وثنائه عليه سبحانه، بما يستحقه من تعظيم واجلال، ثم يأخذ بالاعتراف بأنه يخصه وحده بالعبادة، ولا يشرك معه أيا كان، لا من بشر، ولا من ملك، لا من إنس ولا من جان، إذ هو المعبود الحق، لا يقبل الشريك، ولا يغفر أن يشرك به، وإذا ما علم سبحانه، «وهو بكل شيء عليم» إذا ما علم أنّ عبده المتجه إليه، صادق كل الصدق فيما يقوله وينطق به، أجابه قائلا : حمدني عبدي ــ أثنى على عبدي، وبإجابة الرب العظيم، يتحقق الرضى، فتطمئن نفس المصلي، وتزيد إشراقا على إشراق حتى ما إذا طلب المصلي الهداية، بقوله : (اهدنا الصراط المستقيم) صراط الذي أنعم عليهم من النبيئين والصديقين

والشهداء والصالحين، فاستقام سلوكه في الحياة، ولم ينحرف عن جادة الطريق، وهداه الله النجدين، فصار يعمل لدنياه كأنه يعيش أبدا، ويعمل لآخرته كأنه يموت غدا، وشعر شعورا قويا أنه من أتباع الرسول الأمين الصادقين، وجنود دعوته المجندين، هو الآن قريب من رسول الله محمد عليه السلام، قربا ماديا جثمانيا، وقربا روحانيا ربانيا، هو في مثوى جسد رسول الله، ليسلم عليه، ويعترف أمام قبره بأنه رسول الله حقا وصدقا، وانه أدى الرسالة، وبلغ الأمانة، أتى ليسلم عليه حتى يظفر برده عليه السلام، فالأنبياء أحياء في قبورهم حياة برزخية خاصة، ورسول الله ﷺ، وعد كل فرد من أفراد أمته بأنه إذا ما سلم عليه، فإن الله يرد عليه روحه، حتى يرد عليه السلام، وانطلقنا أنا وابني وابن أخي بعد الصلاة متزاحمين، قاصدين الروضة الشريفة، لنصلي فيها ركعتين، ثم لنسلم على رسول الله ﷺ، وعلى صاحبيه أبي بكر وعمر، كنا في حالة من الخشوع والأدب والتشوق إلى مواجهة قبر الرسول ما عليه من مزيد، نرفع أصواتنا بالصلاة على رسول الله والسلام عليه سائلين ربنا العظيم أن يفتح لنا أبواب رحمته، ويعمنا بفضله وإحسانه، ويتقبل منا زيارتنا وسلامنا على رسول رب العالمين.

واقتربنا من الروضة الشريفة التي قال عنها الرسول العظيم : (انها روضة من رياض الجنة) فحاولنا تأدية ركعتين فيها، ولكن اكتظاظ المصلين فيها، وكثرة الازدحام منعانا من ذلك، فأدينا ركعتين لله في مكان آخر من المسجد، ريثما تهيأت لنا الظروف لنأخذ أمكنتنا بعد ذلك في الروضة الشريفة لنصلي ونتلو ما تيسر من آي الذكر الحكيم وبعد أداء الركعتين بخشوع وأدب سرنا بأدب ونيَّة صادقة لنواجه قبر الرسول مصلين عليه ومسلمين قائلين : السلام عليك يارسول رب العالمين، اللهم آت رسولنا الأمين الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة، وابعثه المقام المحمود الذي وعدته، انك لا تخلف الميعاد، اللهم جازه عن أمته أفضل الجزاء وأحسنه، اللهم انا نشهد انه أدى الأمانة وبلغ الرسالة، وجاهد في الله حق جهاده، اللهم إنا نشهدك ونشهد ملائكتك اننا آمنا به وبرسالته وبكل ما جاء به من عند ربه، فثبتنا على القول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، اللهم انك قلت في كتابك الكريم : (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسَهُمْ جاؤوك فاسْتَغْفروا الله واسْتغفر لهمُ الرَّسول لَوَجدوا الله توَّابا رحيماً) وكان ذلك في حياة الرسول وحياة

صحابته الكرام، ونحن قد وقفنا أمام قبره عليه السلام، مستغفرين تائبين خاضعين لك يارب العالمين، فشفع فينا رسولك الأمين، واجعله يستغفر لنا، كما استغفر لمن سبقونا بالايمان، يارب العالمين، ثم تحولنا إلى اليمين حيث قبر أبي بكر الصديق صاحب رسول الله ورفيقه في الغار، فسلمنا عليه بدوره، سائلين الباري أن يكافئه أعظم المكافأة، على ما قدم من معونة لنصرة رسالة الاسلام، ومؤازرة نبينا عليه السلام، ثم تحولنا قليلا إلى اليمين لنقف أمام قبر أمير المومنين عمر بن الخطاب، فسلمنا عليه بدوره، وسألنا الباري تعالى أن يجازيه على ما قدم من معونة ونصرة لرسول الله، ولهذا الدين الحنيف الذي هو آخر الأديان السماوية، ثم توجهنا إلى حائط المقصورة الشرقي قريبا من باب فاطمة الزهراء، فسلمنا ودعونا، ثم أدينا ركعتين متجهين إلى القبلة قريبين من باب جبريل عليه السلام، فدعونا وبالغنا في الدعاء.

حكم زيارة قبر رسول الله

وزيارة قبر الرسول عليه السلام والصلاة في مسجده، مرغب فيهما شرعا، وكيف لا يكون ذلك كذلك، وفي ذلك المسجد يوجد جثمان من اهتدت بهديه الانسانية، وبرسالته أضاءت الأكوان، وزكت الأرواح، وعُبد الله سبحانه حق العبادة، وزالت عن العقول الخُرافات والأوهام، وبالاضافة إلى ذلك، فقد وردت أحاديث وأخبار، تحث على زيارة قبر الرسول العظيم عليه السلام منها ما جاء في شفاء القاضي عياض اليحصبي المغربي السبتي دفين مدينة مراكش، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال النبي ﷺ : من زار قبري وجبت له شفاعتي، وعن أنس بن مالك قال : (قال رسول الله ﷺ : (من زارني في المدينة محتسبا، كان في جواري، وكنت له شفيعا يوم القيامة) وفي حديث آخر (من زارني بعد موتي فكأنما زارني في حياتي) وجاء في كتاب : (شفاء الفؤاد، بزيارة خير العباد) للعلامة السيد محمد المالكي الحسني ان الامام مالكا رضي الله عنه كان يكره أن يقال : زرنا قبر النبي ﷺ، أي ينبغي أن يقال : زرنا رسول الله ﷺ وسلمنا عليه في قبره.

ويطيب لي بهذه المناسبة أن آتي بأبيات من قصيدة في زيارة الرسول الكريم عليه السلام، نظمها محي السنة، ومميت البدعة الامام ابن القيم رحمه الله قال :

فإذا أتينا المسجد النبــوي   صلينا التحية أولا ثنتـــان
بتمام أركان لها وخشوعهــا   وحضور قلب فعل ذي الاحسان
ثم انثنينا للزيارة نقصــــد   القبر الشريف ولو على الأجفان
فنقوم دون القبر وقفة خاضــع   متذلل في السر والاعــلان
فكأنه في القبر حي ناطــق   فالواقفون نواكس الأذقــان
ملكتهم تلك المهابة فاعترت   تلك القوائم كثرة الرجفان
وتفجرت تلك العيون بمائها   ولطالما غاضت على الأزمان
وأتى المسلم بالسلام بهيبة   ووقار ذي علم وذي إيمان
لم يرفع الأصوات حول ضريحه   كلا ولم يسجد على الأذقان
كلا ولم ير طائفاً بالقبر أسبــــوعا كأن القبر بيت ثــان
ثم انثنى بدعائه متوجهــا   لله نحو البيت ذي الأركــان
هذي زيارة من غدا متمسكا   بشريعة الاسلام والايمـــان
من أفضل الأعمال هاتيك الزيارة   وهي يوم الحشر في الميزان

وجاء في كتاب العلامة المالكي المذكور نقلا عن المغني لابن قدامة راويا عن العتبي قال : كنت جالسا عند قبر النبي ﷺ، فجاء أعرابي، فقال : السلام عليك يارسول الله، سمعت الله يقول : (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما) وقد جئتك مستغفرا لذنبي، مستشفعا بك إلى ربي ثم أنشد يقول :

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه   فطاب من طيبهن القاع والاكم
نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه   فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم انصرف الأعرابي، قال العيني : فحملتني عيني : فنمت، فرأيت النبي ﷺ في النوم، فقال : ياعتبي : الحق الأعرابي، فبشره ان الله قد غفر له.

إن زيارة الرسول في قبره والسلام عليه أمر مندوب إليه، بل قيل بوجوبه، ولكن

بعض العلماء المتشددين يمنعون أن يقول القائل : سأشد الرحال لزيارة رسول الله ﷺ في قبره، مستدلين بالحديث المروي عن رسول الله ﷺ لا تُشدُّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، التي منها مسجد الرسول عليه السلام، ولكن الامام ابن تيمية وهو من أشد العلماء في التمسك بالسنة والدفاع عنها، أعطى تأويلا هاما لمن يشدُّ الرحال لزيارة الرسول في قبره قائلا : ما ملخصه : ان سفر المسافر إلى زيارة الرسول في قبره، مفروض فيه قطعا انه سيصلي في مسجده عليه السلام ولذلك فإنه سيسافر إلى الصلاة في مسجده أيضا، فهما مرتبطان، وإذا كان كذلك فليس في الأمر حرج.

الدعاء أمام القبر

وإذا كانت زيارة رسول الله والسلام عليه في قبره أمر مندوب إليه ومرغب فيه، ويحصل الثواب بالزيارة والسلام عليه، عليه السلام، فهل بعد السلام على الرسول يجوز الدعاء والتوجه إلى الله، والزائر متوجه بوجهه إلى القبر الشريف ؟ لقد لاحظنا أن الساهرين على تنظيم الزيارة، يطلبون من الزوار أن يتجهوا إلى القبلة عندما يشرعون في الدعاء، ولا يقبلون بحال من الأحوال أن يبقوا متجهين بأوجههم إلى القبر الشريف، وكأنهم يرتكبون إثما لدى دعائهم وهم متجهون إلى القبر، ويظهر لنا أن في الأمر سعة، فلقد ورد عن الحسن البصري أنه قال : وقف حاتم الأصم على قبره ﷺ فقال : يارب إنا زرنا قبر نبيك فلا تردنا خائبين، فنودي يا هذا، ما أذنا لك في زيارة حبيبنا الا وقد قبلناك، فارجع أنت ومن معك من الزوار مغفورا لهم، وجاء في كتاب «الغنية» للشيخ عبد القادر الجيلاني الحنبلي العقيدة ــ كما جاء في كتاب المالكي ــ : (ثم يأتي القبر الشريف وليكن بحذائه بينه وبين القبلة، ويجعل جدار القبلة خلف ظهره، والقبر أمامه تلقاء وجهه، والمنبر عن يساره وليقل، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ثم يقول : اللهم إني أتوجه إليك بنبيك عليه سلامك، نبي الرحمة يارسول الله إني أتوجه إلى ربي، ليغفر لي ذنوبي، اللهم إني أسألك بحقه، أن تغفر لي وترحمني. وجاء في كتاب «الشفا» للقاضي عياض : قال : مالك في

رواية ابن وهب : إذا سلم على النبي ﷺ ودعا، يقف ووجهه إلى القبر، لا إلى القبلة ويدنو ويسلم ولا يمس القبر بيده، فالأمر فيه سعة كما ذكرنا، ولا حرج على الذي يدعو وهو متوجه إلى القبر، فليس مشروطا أن لا يكون الدعاء إلا لدى التوجه إلى القبلة.

شعور فياض

عندما يضع الزائر قدمه بباب السلام، قاصدا زيارة رسول الله ﷺ والسلام عليه في قبره. يشعر شعورا خفيا، فيه اطمئنان، وفيه راحة، وفيه انجذاب قوي إلى مدفن الرسول، وكأن الزائر سيرى الرسول بأم عينيه، وكأنه سيسلم عليه حقيقة وهو حي. فالزائر في فرحة عارمة من قربه من الرسول، ويشعر أيضا بهيبة وجلال يملآن عليه جميع كيانه. فهو قاصد القبر الشريف، يريد السبق إليه، وهو في حالة من الخضوع والخشوع، قل أن يشعر بهما في غير هذا المكان. حتى إذا ما وقف أمام المقصورة الشريفة التي يوجد بداخلها القبر الشريف تملكته الرهبة، وصار يحدق ببصره في الشباك، وكأنه يريد أن يخترقه، فصار ينطق بالسلام على رسول الله والصلاة عليه، وصارت الدموع تنهمر من عينيه، وهو يقول السلام عليك يارسول الله، مستلهما ربه أن يفتح عليه بالكلمات والجمل التي تليق أن يخاطب بها سيد الخلق أجمعين، شعور خاص يستولي على المسلم في تلك اللحظات لا يستطيع القلم أن يعبر عنه، فرحة تغمر قلب الزائر، يكسوها جلال الموقف. أمنية كان يتمناها طوال حياته، ها هو ذا يحققها، وهو قريب من الرسول، يسلم عليه ويدعو أمامه، معتقدا أن سلامه يبلغه عليه السلام. فيرد عليه السلام، يا فرحتاه، رسول الله يرد عليه السلام، ما أسعده بهذه اللحظات، ليته كان يسمع صوت الرسول يرن في أذنيه جوابا عن سلامه، ليته كان يستمع لرسول الله وهو يستغفر له، ليته كان يسمع صوت الرسول يرن في أذنيه جوابا عن سلامه، ليته كان يستمع لرسول الله وهو يستغفر له، مصداقا للآية الكريمة التي تقول : (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما) الرسول يستغفر له، ما أسعده بهذا الاستغفار ! ما أسعدها من ساعة ولحظات في هذه الحياة

المليئة بالمتاعب والأهوال، انه سعيد وسعيد حقا، وصدقا بهذه الزيارة التي ظفر بها، لقد تغيرت أحواله، لقد كسى بنور وهاج، انه يشعر بحياة جديدة تغمر جوانحه، إنه يشعر انه شخص آخر يختلف عن الشخص الذي كانه قبل أن يواجه بذاته وروحه وجميع كيانه قبر الرسول عليه الصلاة والسلام، لقد انفك انفكاكا كليا من شخصيته السابقة التي كانت مغموسة في الماديات، ليصبح إنسانا ذا روحانية متألقة، وكأن أنوار النبوة قد كسته حلة جديدة، فصار ينعم في ظلها، ويستضيء قلبه بأنوارها.

لقد تذكرت وأنا أكتب هذه الكلمات، قصيدة شعرية رائعة نظمها أحد الشعراء الفحول من شعراء مدينة «سلا» الفقيه العالم الأديب الشاعر السيد الحاج الطيب عواد المتوفى عام 1336 هجرية رحمه الله، جاء في مطلعها :

حثني الشوق للحبيب مرارا ... يارفاقي البدار ثم البـــدارا
ليس بعد اشتداده من تــراخ ... ان قلبي لذلك الحي طــارا
فاخلعوا عنكم رداء التوانـــي ... وهلموا بنا نخوض البحــارا

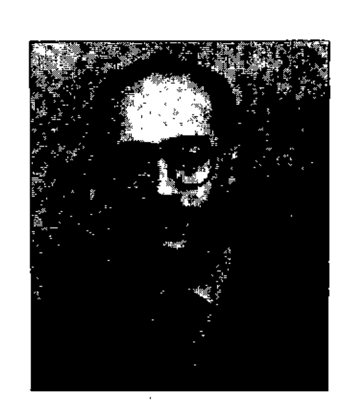
إلى أن يقول :

وبباب السلام نعليك فاخلع ... ثم واجه نبيك المختــــارا
هو أولى بالمومنيـــن وأدرى ... بالذي صير العقول حيــارا
وتأدب أمام خير إمـــــام ... جاءنا رحمة لنا وادخــــارا
وتحرى الصواب قولا وفعــلا ... وكن الطيب اللبيب الحذارا[1]
فمن القول ما يقال اختيارا ... ومن القول ما يقال اضطرارا
ولتسل ما تشاء دينا ودنيــا ... وانتخب من ميقاتك الاسحارا
فهناك الدعا أتى مستجابــا ... فاتل في ذا الحديث والآثارا
يا غريب الحمى وجيران سلع ... فارحموا جائرا يروم الجوارا
قد أتى حائرا من أقصى بلاد ... حل فيها ما حير الأفكــارا
ساقه سائق السعادة يشكو ... دولة غرها هواهـا اغتـرارا
فترامت على رعايانا جورا ... واستطالت عليهم استكبارا

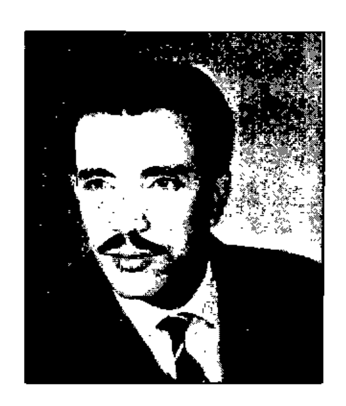
(1) الحذارا : المتيقظ.



المؤلف مع عقيلته المرحومة بكرم الله أمام المسجد النبوي الشريف
والمنارة البارزة أعلى الصورة، في 16 ذي الحجة 1396هـ/ديسمبر 1976م



د. محمد الناصر نجل المؤلف



د. عبد الرحمان القادري ابن أخي المؤلف

وأباحت دماءهم واستباحت ما لهم ثم لفقت أعـذارا

إلى أن يقول :

خاتم الرسل والمشفع فينا يوم لا يرحم الكبار الصغارا
وينادي أنالها يالقومي فادخلوا جنة الخلود اختيارا

المسجد النبوي

نقرأ في السيرة النبوية أن رسول الله ﷺ، أسس أول مسجد في الاسلام بقباء. فمسجد قباء أول مسجد أسس على التقوى، وفيه نزلت الآية الكريمة : (لَمَسْجِدٌ أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه. فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين).

وعند دخوله عليه السلام المدينة المنورة التي كانت تسمى قبل الاسلام (يثرب) ثم سميت بطيبة، اشترى أرضا من غلامين ليجعلها مسجدا فأراد الغلامان أن يتبرعا بها، ولكن رسول الله أبى إلا أن يبتاعها منهما، ولم يقبل أن تكون هبة، ثم خط بها المسجد النبوي الذي كان يعمل فيه بنفسه ﷺ، فكان ينقل اللبن، وكان الصحابة رضوان الله عليهم يبنون ويعملون مثله، وكان رسول الله ﷺ وهو ينقل اللبن ينشد ويقول :

اللهم ان الأجر أجر الآخرة فارحم الأنصار والمهاجـرة

والحرم النبوي الشريف، يحتوي الآن على المسجد النبوي وعلى بيت عائشة أم المومنين الذي فيه مدفنه ومدفن صاحبيه أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي اله عنهما، وعلى حجرات زوجاته رضي الله عنه. وكانت تحيط بالمسجد بيوت بعض الصحابة مثل أبي بكر الصديق، ودار عبد الرحمن بن عوف، وهذه الدور كانت لها فتحات على المسجد، فرأى ﷺ أن تسد تلك الفتحات، ولا يبقى منها إلا فتحة بيت أبي بكر الصديق، فقال ﷺ : (لا يبقين في المسجد خوخة إلا خوخة أبي بكر) ولعل في ذلك إشارة إلى أن أبا بكر الصديق، هو الذي سيخلفه في الصلاة وفي الإمامة الكبرى، ويؤيده ما جاء في السيرة النبوية من أن رسول الله ﷺ قال في مرض موته : (مروا أبا بكر فليصل بالناس)، وكل هذه الدور دخلت في المسجد النبوي بعد ذلك.

ويذكر المؤرخون أن أول من جدد عمارة المسجد النبوي هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ثم زاد فيه عثمان بن عفان وبناه بالجبص والحجارة، ثم زاد فيه عمر بن عبد العزيز بأمر من الوليد بن عبد الملك وأدخل فيه حجرات أزواج النبي ﷺ، وبنى له أربع مآذن وجعل فيه المحراب المجوف وفرش أرضه بالرخام، وأدخل عليه كثيرا من التزيين، حيث وشى جدرانه بالفسيفساء وجعل أساطينه من المرمر، وتقدر زيادة الوليد بن عبد الملك بنحو 2369م.

وفي عهد المهدي العباسي، زاد فيه ووسعه أكثر، ثم زاد فيه وعمره الخليفة المستعصم ثم الظاهر بيبرس، وفي عهد الناصر قلاوون بنيت قبة الحجرة الشريفة، وتوالت بعد ذلك بعض الإصلاحات والزيادات، خصوصا في سنة 886 ست وثمانين وثمانمائة التي انقضّت فيها صاعقة عليه، فأحرقته جميعه باستثناء الحجرة الشريفة التي لم تمس بأذى، ولم يصبها الإحراق. ويقول المؤرخون ان السلطان قايتباي ملك مصر لما بلغه خبر إحراق المسجد، اتخذ قرارات عاجلة لتجديد بنائه، فأمر بتوجيه عمال كانوا يشتغلون في الحرم المكي، وشرعوا في بنائه من جديد بهمة ونشاط حتى أتموه على أحسن وجه وأكمله وجددوا بناء الحجرة الشريفة على الشكل الذي هي موجودة عليه الآن، وأقاموا على القبة الشريفة، قبة أخرى أعلى منها.

وفي عهد الأتراك العثمانيين، اهتم السلطان سليم الثاني باعمار المسجد، وبني فيه بين المنبر ومدرسة قايتباي قبة جميلة وشاها بالفسيفساء المنقوشة بماء الذهب، وفي سنة 1233 هجرية بنى السلطان محمود القبة الشريفة، ثم أمر بترميمها ودهانها باللون الأخضر بعد ذلك أي في سنة 1255 (1813) ومن ثم سميت بالقبة الخضراء، وفي عهد السلطان عبد المجيد خان زيد في المسجد من ناحية الشمال، وتمت توشيته وعمارته، وكتب على جداره سورة الفتح بالخط الثلث المجوف، وفي السطر الذي تحتها سورة أخرى بخط جميل أيضا ومن تحته سطر آخر أصغر من الذي فوقه، فيه أسماء النبي ﷺ، وقصيدة البردة للامام البوصيري مكتوبة في محيط قباب المسجد.

ويقول الرحالة محمد لبيب البتنوني الذي نقلنا عنه الكثير من هذه المعلومات : ان الخطاط الذي كتب كل ذلك هو المرحوم عبد الله بك زهدي

الذي أوفده السلطان عبد المجيد إلى المدينة لهذه الغاية، وانه مكث بالمدينة أزيد من عشر سنين يعمل في بيت رسول الله بما آتاه الله من أحكام في صناعته ونبوغ في مهنته، وتعتبر التوسعات والاصلاحات والتزيينات التي أدخلت على المسجد النبوي في عهد السلطان عبد المجيد آخر التوسيعات قبل التوسيعات التي قام بها السعوديون.

والواقع أن الخطوط المكتوبة على جدار المسجد الواقع في القبلة والخطوط الأخرى سواء في القبب أو غيرها من أركان المسجد تأخذ بالألباب، وتلفت الأنظار، لجمالها وفنها وحسن ترتيبها، وكل ذلك يؤكد مقدار اهتمام الملوك والأمراء المسلمين بمسجد الرسول عليه السلام، وعنايتهم به، ورغايتهم له، جازاهم الله أحسن الجزاء. لقد كان المسجد ينار في الليل بالزيوت والشموع، ثم في عهد السلطان عبد الحميد صار يضاء بأسلاك النور الكهربائي، وكان الابتداء بإنارته بالكهرباء يوما تاريخيا مشهودا، وهو اليوم الذي احتفل فيه بافتتاح السكة الحديدية التي كانت تربط الحجاز بالشام ثم وقف العمل فيها في الحرب العالمية الأولى.

كيفية بناء المسجد النبوي

والمسجد النبوي على صاحبه أفضل الصلاة وأزكى التسليم قبل أن توسعه المملكة العربية السعودية. كما سنتحدث عنه — بني على شكل مستطيل، يلاحظ الزائر له أن جدرانه مصبوغة باللون الأحمر، وعدد أمتاره من الشمال إلى الجنوب مائة وستة عشر مترا وربع المتر، وعرضه من الشرق إلى الغرب من جهة القبلة ستة وثمانون مترا و 35 سنتمتر، ومن جهة الباب الشامي ستة وستون مترا، وينقسم إلى قسمين : المسجد والصحن، ولقد أحصوا أعمدة الحرم فقالوا انها تبلغ ثلاثمائة وسبعة وعشرين عمودا، منها 22 عمودا داخل المقصورة الشريفة، ويوجد داخل المسجد دكة يجلس فوقها الأغوات (عبيد الحرم) المعينون لخدمة الحرم الشريف وطولها اثني عشر مترا تقريبا، وعرضها ثمانية أمتار وكانت في عهد الرسول عليه السلام مخصصة لجلوس أهل الصفة، وهم جماعة من

الصحابة كانوا يظلون تقريبا في المسجد، ويمونهم الرسول عليه الصلاة والسلام بما يقتاتون به من مأكل ومشرب وملبس، وكان منهم أبو هريرة وأبو ذر الغفاري رضي الله عنهما، وأمام هذه الدكة أو المصطبة، توجد دكة أخرى أصغر منها وأقل ارتفاعا، وتقع متصلة بالمقصورة الشريفة من جهة الشمال، وكانت كما يقال مصلى يتجهد فيه رسول الله ﷺ، وما بين الدكتين الصغرى والكبرى توجد طريق تؤدي إلى باب جبريل عليه السلام، وفي غرب المقصورة الشريفة توجد الروضة الشريفة التي قال عنها سيدنا رسول الله ﷺ : ما بين قبري (أو بيتي) ومنبري روضة من رياض الجنة، ويبلغ طول الروضة الشريفة كما جاء في رحلة البتنوني اثنان وعشرون مترا في نحو 15 مترا عرضا.

الروضة الشريفة

والروضة الشريفة تكون مزدحمة دائما بالمصلين والتالين للقرآن الكريم، فلا تكاد تجد فيها أي مكان فارغ خصوصا في أوقات الصلاة وبجانب المنبر الشريف، يوجد مخرج يؤدي إلى باب الروضة الشريفة التي يسلم منه الزائرون على الرسول المصطفى عليه السلام، كما يوجد قريبا من يسار المنبر مكان المحراب الذي كان يصلي فيه سيدنا رسول الله ﷺ، والذي يتزاحم عليه المصلون ليؤدوا ركعتين فيه، والمنبر الموجود في الحرم النبوي مصنوع من الرخام المنقوش وهو مهدى من السلطان مراد الثالث العثماني على ما قال البتنوني في رحلته وكان لهذا المسجد خمسة أبواب : (1) باب السلام، (2) باب الرحمة، (3) والباب المجيدي، (4) وباب النساء، (5) وباب جبريل أو باب البقيع، ولكن الأمور كلها تبدلت الآن فكثرت الأبواب، وتوسع المسجد توسعا عظيما كما سنتحدث عنه بحول الله.

حجرة الرسول ﷺ ومدفنه

عندما نقف للسلام على سيدنا رسول الله ﷺ وصاحبيه أبي بكر وعمر، نتجه إلى الشباك المواجه للقبلة، فتكون القبلة وراءنا، وذلك الشباك أمامنا.

وراء الشباك بالضبط يوجد قبر رسول الله، وقبر صاحبيه، ومن المعلوم أن مدفن رسول الله مع صاحبيه، يوجد في بيت المومنين عائشة رضي الله عنها، ويقع في الجنوب الشرقي للمسجد، وكان في عهده عليه السلام مبنيا من اللبن (بكسر الباء) والجريد، ولم يكن سقفه مرتفعا، وكان في منتهى البساطة، خاليا من كل زخرف.

وحين توفي رسول الله ﷺ في 12 ربيع الأول سنة 11 للهجرة، دفن في حجرة عائشة، رأسه إلى الغرب، ووجهه الشريف نحو القبلة، ولما توفي أبو بكر الصديق بتاريخ 22 جمادى الأولى سنة 13هـ دفن إلى جانبه من جهة الشمال، رأسه خلف منكب رسول الله ﷺ ولما توفي عمر بن الخطاب بتاريخ 27 ذي الحجة سنة 32هـ، دفن بجوارهما شمالي أبي بكر، رأسه عند منكبه، وبقي مكان فارغ يصلح لقبر آخر، اقترح على عمر بن عبد العزيز أن يدفن في ذلك المكان الشريف فأبى قائلا ما معناه : انه لا يليق به أن يدفن في ذلك المكان الشريف، لأنه ليس في درجة الصحابيين الجليلين أو كلاما هذا معناه.

ولدى دفن رسول الله ﷺ وصاحبيه، قسم بيت عائشة إلى قسمين اثنين، قسم به القبور، وقسم بقيت تسكن به عائشة، وبينهما حائط وكانت رضي الله عنها تدخل أحيانا، للقسم المخصص للقبور سافرة قبل دفن عمر فيه، فلما دفن فيه عمر، صارت تدخل متحجبة، معتبرة أن الحجاب المطلوب منها ومن زوجات رسول الله الأخريات، سواء في الحياة أو في الممات.

لقد بقي القسم المدفون فيه رسول الله ﷺ على حاله في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وفي عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أدخل عليه بعض التجديد، وبقي على حاله بعد ذلك إلى أن كانت خلافة الوليد بن عبد الملك الأموي حيث أدخل عامله على المدينة المنورة وهو عمر بن عبد العزيز إصلاحات وتوسيعات على المسجد بإدخال بيوت أزواج رسول الله ﷺ الأخريات فيه، وأقام في الوقت نفسه بناء حول الحجرة الشريفة التي بها قبر رسول الله ﷺ وصاحبيه في شكل خماسي لا رباعي خشية أن يستقبله الناس كما يستقبلون الكعبة المشرفة.

وجاء في كتاب : مرآة الحرمين الشريفين لابراهيم رفعت باشا، «ان الباحث

السمهودي، ذرع الحجرة الداخلية، فإذا بضلعها الجنوبية من الداخل، عشرة أذرع وثلثا ذراع (الذراع 49 سنتمتر) وضلعها الشمالية أحد عشر ذرعا و5/12 من الذراع، وطول كل من الضلعين الشرقية والغربية 8/5، 7 أذرع، وارتفاع الحجرة 15 ذراعا، وطول الضلع الجنوبية من الذائر المخمس 15 ذراعا إلا قليلا، وطول الشرقية منه 12 % ذراعا وطول الغربية الشمالية 14 ذراعا، وارتفاعا الدائر المخمس من أرض المسجد ثلاثة عشر ذراعا وثلث، وبين جدار الحجرة والدائر المخمس، فضاء واسع من جهة الشمال، ونحو ذراع من جهة الشرق والجنوب، ولكنه يضيق إلى شبر تجاه وجهه ﷺ أما الجداران الغربيان، فليس بينهما فضاء، ولم يتغير هذا الوضع إلى يومنا هذا «انتهى ما جاء في مرآة الحرمين عن مساحة الحجرة الشريفة.

لقد كانت الحجرة النبوية الشريفة، مسقوفة بالخشب وفي عهد المنصور قلاوون، بنى عليها قبة مربعة من أسفلها مثمنة من أعلاها، صنعت من خشب أقيم على رؤوس الأساطين المحيطة بالحجرة، وسقفت بألواح منه، فوقها ألواح الرصاص منعا للمطر أن ينزل داخل الحجرة، وقد جددت عدة مرات، ولما احترق المسجد للمرة الثانية، جدد الأشرف قايتباي سنة (886) القبة، وبناها بالحجر الأسود المنحوت، وكملها بالحجر الأبيض، ثم بنى فوقها قبة أخرى سنة 892هـ وفي عهد السلطان محمود بن عبد الحميد، جددت وأعيد بناؤها ثم صبغت باللون الأخضر، وبقيت تصبغ باللون نفسه كلما تأثرت بحرارة الشمس.

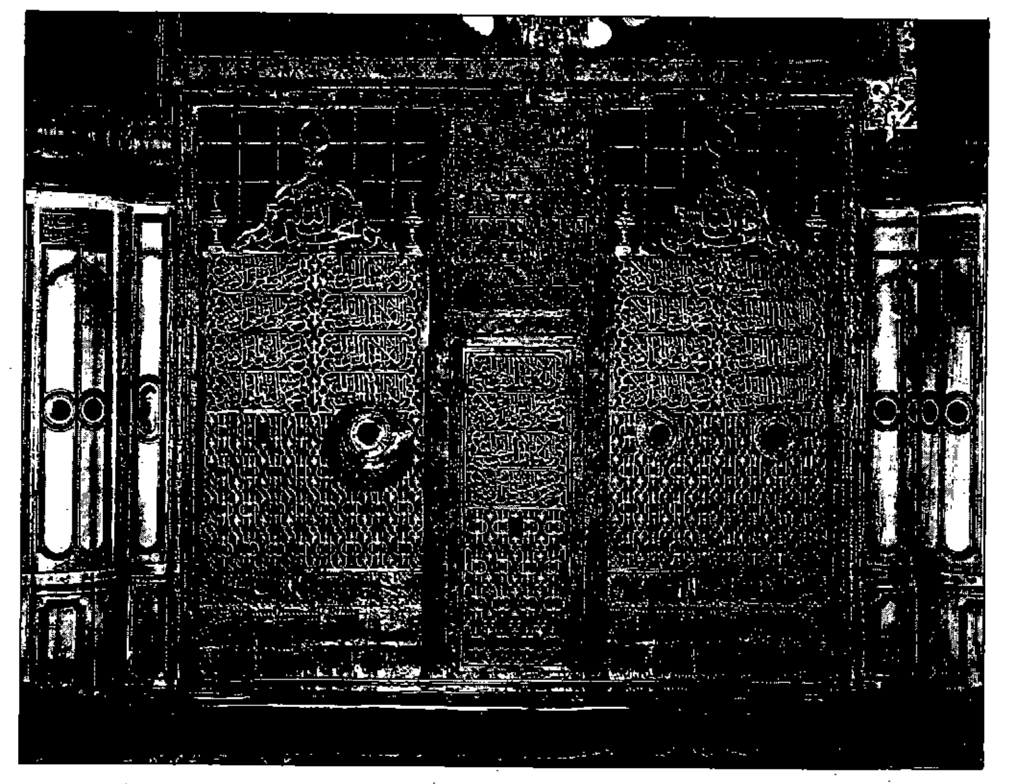
وقد أمر الملك العادل نور الدين الشهيد بحفر خندق عميق صب فيه الرصاص، حتى لا يستطيع أي أحد أن يخترقه، والسبب في ذلك يرجع إلى أن أحد اليهود أو النصارى كان يدبر ويمكر ليصل إلى جثة النبي ﷺ ويخطفها، ويحكي بعض المؤرخين أن السلطان نورالدين هذا، رأى رُأيا أفزعته كثيرا، ذلك أنه تمثل له في نومه شخص يحاول أن يسرق جثة رسول الله من قبرها، فأعطى أوامره بتتبع الأشخاص الذين يقصدون الضريح النبوي باستمرار واستنطاقهم ان اقتضى الحال. وهكذا استنطق المسؤولون في المدينة، الكثيرين من الأشخاص ولكنهم لم يتوصلوا إلى نتيجة، ولما أحاطوا السلطان علما بما وصلوا إليه، قال لهم : لابد أن هناك شخصا يكيد لرسول الله ولم تعثروا عليه، فأجابوه بأنهم لم

يتركوا أي واحد يشك فيه إلا استنطقوه، وان شخصا من الأخيار الصلحاء، يلازم المسجد آناء الليل وأطراف النهار، ولا يفتر عن العبادة، ولذلك لم يبحثوه، فأمرهم أمرا قاطعا ببحثه، فإذا هو من اليهود أو من النصارى الماكرين، تظاهر بالاسلام، واشترى منزلا قريبا من مسجد الرسول، وصار يحفر ممرا تحت الأرض حتى وصل إلى المسجد قصد الوصول إلى القبر الشريف، ولما افتضح أمره بسبب رؤيا هذا الملك الصالح، حوكم وقتل وارتاحت من مكره البلاد والعباد. وكان هذا هو السبب في جعل خندق مملوء بالرصاص حول الضريح النبوي حتى لا تستطيع أية يد أثيمة ماكرة أن تصل إلى القبر الشريف.

ويحدثنا التاريخ أن السلاطين والملوك العثمانيين كانوا يهدون إلى الحجرة الشريفة الجواهر والأحجار الكريمة والقطع الذهبية العديمة المثال، والستائر الحريرية الممتازة والمطروزة والأكسية الديباجية المرقومة بالحرير وخيوط الذهب والفضة الخ.

أمام قبر الرسول

عندما نقف أمام الشباك الفارق بين الحجرة النبوية الشريفة وبين المسجد النبوي للسلام عليه عليه الصلاة والسلام، لابد أن نستشعر أن قبره الشريف أمامنا، وانه عليه السلام وهو موضوع في قبره متجه إلى القبلة بوجهه الشريف، فنحن وإن كنا لا نرى قبره، ولا نرى بالأحرى وجهه، فإنه متجه إلينا وهو يتلقى منا السلام، ويرد علينا السلام، كما جاء في الحديث الشريف، فلنستحضر كل هذا ونحن واقفون للسلام عليه، ولنستشعر أن وقفتنا أمامه وهو في قبره، لا تختلف عن وقفتنا أمامه لو كان حيا، ولنتأدب الأدب اللازم في هذه اللحظات، ولندع الله بعد السلام عليه أن يأتيه الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة والمقام المحمود الذي وعده، وأن يغفر لنا ربنا خطايانا، ويكفر عنا سيئاتنا، ويمن علينا بشفاعة الخلق أجمعين، ولندرك كل الادراك اننا ونحن متوجهون إلى قبره الشريف، ولنستحضر أيضا الحديث الشريف الصحيح الذي أكد أن قبره ان زاره الزائرون، ووقف أمامه الصادقون المحبون المولهون، فيجب أن تكون وقفتهم



واجهة القبر الشريف في المسجد النبوي

خالية من كل بدعة، ومن كل شرك، لأنه ﷺ دعا أن لا يكون قبره وثنا يعبد، فقال : (اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد، اشتد غضب الله على قوم، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد).

لقد كان يدرك كل هذا المحبون لرسول الله ﷺ، الزائرون لقبره والسلام عليه، فكانوا يفرقون بين وقفة العبادة التي هي خاصة لله تعالى، ووقفة السلام والتعظيم لسيدنا رسول الله، ولذلك فإن الخليفة الصالح الصادق عمر بن عبد العزيز عندما أدخل إصلاحات على المسجد النبوي، وعلى الحجرة النبوية الشريفة في عهد الوليد، أمر أن تبنى الحجرة الشريفة كما ذكرنا ذلك من قبل في شكل خماسي لا رباعي، حتى لا تكون شبيهة بالكعبة، وحتى لا يتوجه الزائرون ويطوفون كما يطاف بالكعبة، وكل هذا فعلوه، صيانة لفكرة التوحيد، وعدم الوقوع في الشرك، والمومنون والحمد لله كيفما كانت درجتهم العلمية، وقيمتهم الفكرية، وحتى البسطاء منهم يفرقون بين العبادة وبين الزيارة، ويعطون للألوهية حقها، وللنبوة والرسالة حقها، نعم، ونحن نؤكد على أن العبادة لا تكون إلا لله الخالق الفرد الصمد، الذي لم يلد ولو يولد، ولم يكن له كفؤا أحد. لا نقول بالتشدد الذي يقول به اخواننا في المملكة السعودية من أن الدعاء والتوجه إلى الله أمام قبر الرسول محذور، وان الداعي لابد أن يتوجه إلى القبلة ساعة الدعاء، ففي الأمر سعة إن شاء الله، بشرط التأكيد على أن العبادة لا تكون إلا لله. وكثير من العلماء والصالحين والأولياء كانوا يدعون الله لدى زيارتهم للرسول بعد سلامهم وصلاتهم عليه، عليه السلام وعلى صاحبيه الكرام، ولقد روى الامام ابن تيمية في كتابه : (اقتضاء الصراط، الصراط المستقيم، عن أبي وهب فيما يرويه عن مالك : (إذ سلم على النبي ﷺ، يقف ووجهه إلى القبر، لا إلى القبلة، ويدنو ويسلم ويدعو ولا يمس القبر بيده) وقال السبكي كما أشار إلى ذلك الخفاجي شارع الشفاء :

(صرح أصحابنا بأنه يستحب أن يأتي القبر ويستقبله، ويستدير القبلة، ثم يسلم على النبي ﷺ، ثم على الشيخين، ثم يرجع إلى موقفه الأول ويقف فيدعو) وجاء في الحوار الذي جرى بين الامام مالك وأبي جعفر المنصور في المسجد النبوي قال مالك : ياأمير المومنين، لا ترفع صوتك في هذا المسجد، فإن الله تعالى أدب قوما فقال : (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبيء) الآية.

وقد مدح قوما فقال : (ان الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله) الآية. وذم قوما فقال : (ان الذين ينادونك) الآية. وان حرمته ميتا كحرمته حيا، فاستكان لها أبو جعفر، فقال ياأبا عبد الله، أأستقبل القبلة وأدْعُو، أم أستقبل رسول الله ﷺ ؟ فقال : ولم تصرف وجهك عنه، وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله تعالى يوم القيامة ؟ بل استقبله واستشفع به، فيشفعه الله، قال الله تعالى : (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم) الآية. ويتلخص من كل ما ذكر أن كثيرا من الأئمة والعلماء لم يروا مانعا في استقبال قبر الرسول عليه السلام وقت الدعاء، وان بعضهم لم ير ذلك فالقضية خلافية كما قال الامام ابن تيمية. ولقد جاء في المبسوط : لا أرى أن يقف عند القبر ويدعو، لكن يسلم ويمضي، ولعل ذلك كان لأنه رأى أشخاصا لا يفرقون بين العبادة وغيرها، (انظر شفاء الفؤاد بزيارة خير العباد ص 151).

ويعجبني أن آتي هنا بدعاء دعا به أحد العلماء وهو الحبيب بن محمد الحبشي، كما ذكر ذلك صاحب كتاب : (شفاء الفؤاد، بزيارة خير العباد) قال بعد الصلاة والسلام على صاحب القبر الشريف :

اللهم انا قد وفدنا إلى مشاهدك العظام، وبيتك الحرام، وقبر نبيك عليه أفضل الصلاة والسلام، ولنا آمال أملناها من واسع فضلك، ومطالب كمنت في صدورنا وليست خافية عنك، وأنت أجل مقصود، وأكرم من عهد منه الجود، وفي حسن ظننا بك ما تحققنا به إجابة سؤالنا، ونجح مطالبنا، فبحق حبيبك وصفيك، سيدنا وحبيبنا وشفيعنا محمد بن عبد الله ﷺ، وبحق أنبيائك ورسلك والصالحين من عبادك، لا تردنا اللهم عن هذا الموقف صفر الأيدي، وأقبل على مقبلنا بما أمل، وعلى مدبرنا بواسع رحمتك الشاملة، اللهم قرب بعيدنا، واشف مريضنا، وافكك أسيرنا، ويسر عسيرنا، وهب لنا علما يصحبه النفع، وعملا يصحب القبول، ومعرفة يصحبها الأدب، ووفقنا للقيام بآداب العبودية لك في كل نفس، اللهمَّ إني اقبل بكليتي عليك، واجعل جميع توجهاتي إليك، واصرف عني كل هم دونك، واجعلني في ديوان من تحبهم ويحبونك، اللهم اكشف علي حجب الأغيار، وخذ بي جادة أصفيائك الأخيار، اللهم افض على روحي ما افضته على روح الكامل من هذه الأمة، واكشف عني كل

مدلهمة وظلمة، واغفر لي ما جنيت، وسامحني فيما أتيت ولا تعاقبني بما نويت، واقبلني على ما في، وادخلني تحت وريف ظل لطفك الخفي، واستر عيبي، وأزل ريبي، وأجل ريني، ونق جيبي، واذهب غيني، وأقر بما تحبه وترضاه عيني، وهب لي زهدا كزهد الكامل، وورعا كورعه، وعلما كعلمه، ونورا كنوره، وفهما كفهمه، وإقبالا كإقباله، واجعل عين العناية ناظرة إلي، وجودك الكامل، وعطاءك الشامل، مقبلا علي، اللهم أطو مسافة البعد بيني وبين حبيبك المصطفى صلى الله عليه وسلم، واجمع بيني وبينه في هذه الدار، وفي تلك الدار جهرا وخفيا، اللهم اجعل لي حظا وافرا من حبك وحبه، وسهما كاملا من قربك وقربه، اللهم ان قلبي يدعي حبك، وروحي تشتاق قربك، فاجعل للدعوى حقيقة، وأسلك بي في قربك أقوم طريقة، اللهم إنك جعلت العلامة على حبك، اتباع حبيبك ولا طاقة لي على ذلك، إلا بتوفيقك لي فوفقني، اللهم لذلك، لأكون من المحبين لك حقيقة، ياأرحم الراحمين، آمين يارب العامين.

الدخول إلى المقصورة الشريفة

إن الزائرين لقبر الرسول الأمين عليه السلام، لا يتمتعون بالنظر إلى القبر الشريف، ولا إلى الحجرة النبوية نفسها، نظرا لحاجز الشباك الفاصل بين المسجد النبوي والحجرة النبوية الطاهرة، ولكن القليلين جدا هم الذين أتاحت لهم الأقدار، أن تفتح لهم الأبواب، فيدخلون المقصورة الشريفة، فيقفوا أمام الحجرة النبوية المغطاة من أعلى بالقبة الخضراء، والمكسوة بكساء من الديباج المرقوم بالحرير الأبيض وبخيوط ذهبية وفضية.

لقد هيأت الأقدار لي دخول المقصورة الشريفة، والوقوف مباشرة أمام الحجرة النبوية الطاهرة، وذلك عندما حضرت مؤتمر الطائف الاسلامي بدعوة من صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله، فلقد أبى حفظه الله بعد انتهاء المؤتمر، وبعد أداء سنة العمرة إلا أن يقوم بزيارة للمدينة المنورة ليصلي في المسجد النبوي ويسلم على الرسول الأمين سيدنا محمد ﷺ وعلى صاحبيه رضي الله عنهما، أبى نصره الله إلا أن يستدعيني مع نخبة من العلماء والمسؤولين للذهاب معه إلى المدينة المنورة فكانت ساعات من أمتع ساعات العمر، ولحظات من لحظات الحياة السعيدة في هذه الدنيا، فبعد حلولنا

بالمدينة المنورة انطلقنا توا بإذن منه حفظه الله، إلى المسجد النبوي للصلاة والسلام على سيدنا رسول الله والتوجه إلى الله سبحانه أن يعمنا بعفوه ومغفرته ورضوانه، وبعد أدائنا لصلاة المغرب والعشاء، والسلام على رسول الله ﷺ، والجلوس بالروضة الشريفة لتلاوة القرآن الكريم والصلاة على الرسول العظيم، وبعد فراغ المسجد من المصلين الذين كانوا من كل فج عميق، بقى الوفد المغربي المصاحب لجلالة الملك الحسن الثاني، آخذا مكانه في الحرم النبوي منتظرا وصول جلالته للصلاة في المسجد، والسلام على رسول الله، وما هي إلا لحظات انتظارية، حتى أقبل حفظه الله بدوره إلى المسجد حيث صلى ثم سلم على الرسول، ثم جلس وسط أعضاء الوفد في الروضة الشريفة، وشرع أصحاب دلائل الخيرات للإمام الجزولي يقرأون الدليل الذي قال عنه صاحبه الامام عبد الرحمن بن أبي بكر بن سليمان الجزولي المتوفى بمراكش 870 هجرية، إن الغرض منه ذكر الصلاة على النبي ﷺ وفضائلها، ابتغاء لمرضاة الله تعالى، ومحبة في رسوله الكريم محمد ﷺ تسليما، وكان صاحب الجلالة حاملا بيده نسخة خطية من كتاب دلائل الخيرات، أتى بها معه من خزانته، وكنا بالقرب منه حاملين نسخا بأيدينا، فكنت لا تسمع إلا الصلاة على رسول الله ﷺ والاشادة بفضله، والتعلق بأعتابه الشريفة، ومكثنا ما شاء الله نصلي على رسول الله ﷺ.

وبينما نحن في حالة من الهيجان الروحي، والشوق النبوي لاحظنا أن صاحب الجلالة الحسن الثاني قام وبجانبه وزير التشريفات قاصدا الحجرة النبوية الشريفة التي فتحت له أبوابها، ليدخل إليها ويسلم على جده المصطفى وهو في مواجهته، وما هي إلا لحظات حتى وقف أمامنا وزير التشريفات الملكية ينادي علينا نحن ثلاثة أفراد، المرحوم سيدي عبد الله كنون والمرحوم الشيخ محمد المكي الناصري وكاتب هذه السطور أبو بكر القادري، فنهضنا بسرعة قاصدين بدورنا باب المقصورة الشريفة الذي بقي مفتوحا، لنجد صاحب الجلالة واقفا أمام الحجرة النبوية الطاهرة، ولنقف بجانبه أمام قبر رسول الله ﷺ وأمام قبري صاحبيه أبي بكر وعمر، والقبور جميعها تعلوها القبة الخضراء، وعليها كسوة حريرية لم أتبين لونها، وهي موضوعة على شباك، لا أدعي أنني تبينته كذلك،

فلقد كنت في حالة من الانبساط والفرح، والخشية والرهبة في آن واحد، ما لا أستطيع أن أصفه. لقد شعرت وأنا أضع قدمي في باب مقصورة الرسول، لأتقدم إلى حجرته عليه السلام. ان قدمي ترتجفان، فكيف أضع قدمي في موطئ قدمي رسول الله ﷺ الشريفتين، كيف سمحت لنفسي أن تتجرأ هذه الجرأة الكبيرة ؟ لقد خجلت من نفسي، وارتعت من عملي وإقدامي، ومع ذلك لم أشعر إلا وأنا واقف وقفة خشوع ورهبة، أمام ضريح الرسول عليه السلام وصاحبيه رضي الله عنهما، لم أشعر الا بلساني يتلعثم بالسلام عليه، والصلاة عليه، وعيناي تنهمران بالدموع وأنا أدعو ربي في ذلك المكان الطاهر النقي الذي يعتبر بحق روضة من رياض الجنة، لقد دعوت اللّهَ أن يغفر لي ذنوبي، ويصلح أحوالي، ودعوت لملكي الحاضر بجانبي بالتوفيق والسير في النهج الذي جاء به الرسول العظيم محمد ﷺ، ودعوت لأمتي الاسلامية أن يجمع الله كلمتها على الحق والصدق واليقين.

لا أدعي أنني استطعت أن أرى وأتبين ما في المقصورة مما ذكره المؤرخون من هدايا متنوعة، أو ستائر حريرية، أو لؤلؤات وجواهر، أو ثريات وشمعدانات أو غير ذلك لم أر والحق أقول أي شيء من ذلك، لأنني كنت مأخوذا بالمكان وصاحب المكان، كنت منغمسا في عالم آخر ليس عالم الماديات والأرضيات كنت راضيا ومسرورا وفرحا فرحا داخليا وفي الوقت نفسه كنت خجلان من جرأتي التي تجرأت، حتى وجدتني أجعل قدمي حيث كان رسول الله يسكن ويخطو ويتعبد، وحيث هو الآن موضوع في قبره الشريف، يستمع إلى سلام المسلمين عليه، والذين حضروا من جميع أنحاء الأرض، فيرد عليهم السلام، ويستغفر لهم، كما كان يستغفر للذين ظلموا أنفسهم، وهو عليه السلام قيد الحياة، فإنه عليه السلام حي في قبره، ولكنها ليست الحياة التي نحياها نحن، ولكنها حياة برزخية خاصة، الله أعلم بحقيقتها، وأثر انتهائنا من السلام والدعاء. غادرنا المقصورة الشريفة من رياض الجنة، فاللهم تقبل منا الصلاة والسلام والدعاء، ونور قلوبنا بما نورت به قلوب أصفيائك من الصلحاء والأولياء والصادقين، واختم لنا بالسعادة التي ختمت بها لأوليائك، واجعل خير أيامنا أسعدها يوم لقائك، يارب، ياكريم والحمد لله رب العالمين.

خادم الحرمين الملك فهد بن عبد العزيز يعطي أوامره لتوسعة هامة جدا للحرم النبوي

بعد الاصلاحات والترميمات والتزيينات التي أدخلت على الحرم النبوي في عهد السلطان عبد المجيد العثماني، والتي بلغت مساحته إذذاك ثلاثة وتسعين ومائتين وألف متر (1293) وبعد تكاثر الواردين على المدينة المنورة لأداء الصلاة بالمسجد في الطرقات والممرات، وبعد تولي المملكة السعودية أمر تسيير البلاد، أعطى المؤسس الأول للمملكة السعودية الملك عبد العزيز آل سعود أمره بالزيادة في المسجد وتوسعته، شرط المحافظة على الهيأة والشكل والعمارة التي كان عليها في عهد السلطان عبد المجيد العثماني، ودام الاصلاح والتوسعة خمس سنوات ولم ينته إلا عام 1375هـ الموافق 1955 وهكذا أصبح الحرم النبوي مقسما إلى قسمين اثنين : القسم الأول، وهو القسم القبلي للمسجد وفيه المحراب والروضة الشريفة والحجرة النبوية الطاهرة، والقسم الثاني الذي يفصله عن القسم الأول ساحة غير مغطاة، وهو أكبر من القسم الأول، إذ تبلغ مساحته أربعة وعشرين ومأتين وستة آلاف متر مسطح، فأصبحت مساحة المسجد بعد التوسعة التي أدخلت عليه : عشرين وستمائة وسبعة عشر ألف متر وفي أول زيارة لي للمسجد النبوي سنة 1957، لاحظت أن هذه التوسعة رغم أهميتها لم تبق كافية نظرا لكثرة المصلين الزائرين الذين لم يكن الكثيرون منهم يجدون مكانهم في الصلوات المفروضة، ولكن الأمر تدورك بعد ذلك بأعوام، حيث ان خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز لاحظ لدى بعض زياراته للمسجد النبوي الشريف، ان المسجد أصبح يضيق كثيرا بالمصلين، وان الطرقات والممرات المؤدية إليه تكون غاصة، سواء في موسم الحج أو في غيره من الأوقات، فأعطى تعاليمه مشكورا ــ وأقولها من كل قلبي ــ لوضع الخطط والدراسات اللازمة لتوسعته، توسعة كافية حتى يستطيع كل المصلين أن يجدوا أمكنتهم في كل الأوقات وفي كل الظروف، وبعد الدراسات الكافية، ووضع التخطيطات المتقنة، شرع في توسعة المسجد التوسعة الكافية الهامة سواء من الشمال أو الشرق أو الغرب لتصبح المساحة الاجمالية للدور الأرضي وحده في

المسجد : ثمانية وتسعين ألفا وخمسمائة متر مسطح (98500) وهكذا ارتفعت المياتر من (17620) إلى (98500م) ويمكن لأكثر من مائتين وسبعة وخمسين ألفا من المصلين ان يؤدوا صلواتهم فيه، كما أن التخطيط عمل على إنشاء طابق سفلي بمساحة الدور الأرضي كله، وذلك لاستيعاب تجهيزات التكييف والتهوية التي ستجعل المصلين يؤدون صلواتهم في منتهى الراحة والاطمئنان، وأخذ التخطيط بعين الاعتبار إمكانية بناء دورتين في المسجد، مثل ما هو واقع في الحرم المكي، حيث يصبح المسجد النبوي يسع خصوصا في موسم الحج ما يقرب من مليون مصل.

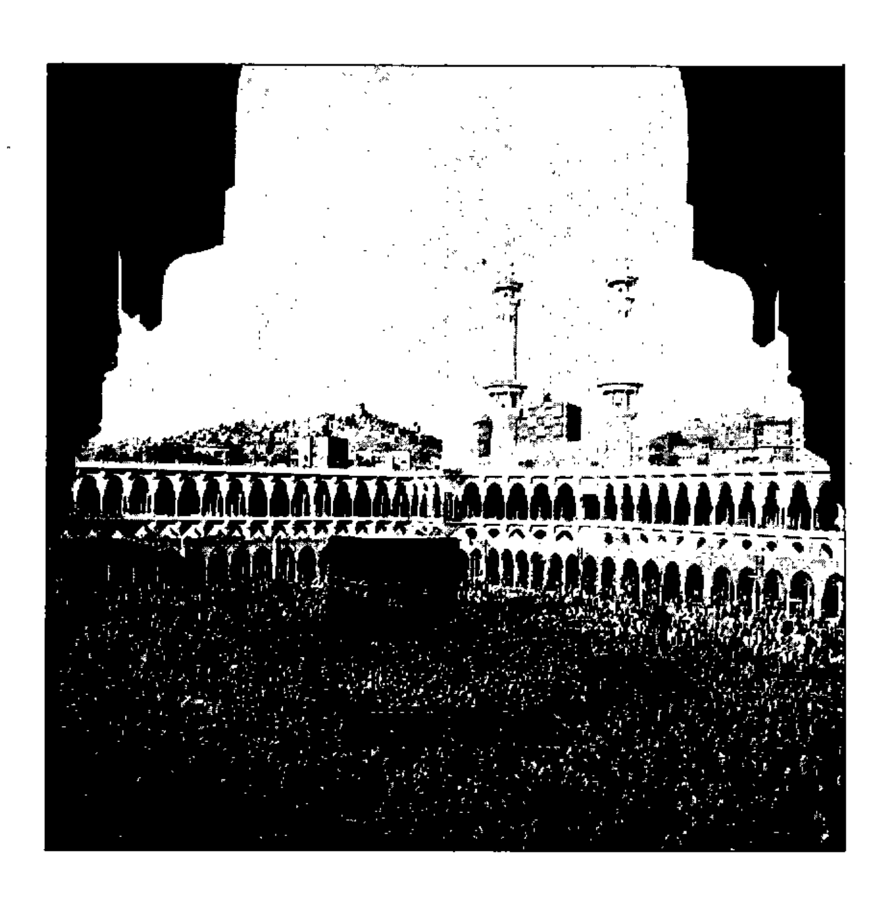
وبالاضافة إلى هذه التوسعة التي أنجزت عملها في المسجد النبوي، فإن الزيادة في الأبواب والمآذن التي يبلغ ارتفاعها اثنان وتسعون مترا وتفريشه بالرخام الممتاز الذي لو وطئته أقدام ملكة سبأ لكشفت عن ساقيها، كما فعلت عندما استدعاها سيدنا سليمان ودخلت الصرح، ان الزائر لمسجد رسول الله ﷺ الآن، يتملكه الاعجاب والتقدير لهذا العمل الجبار الذي أنجزته أياد صناع، والذي لا أستطيع مهما حاولت أن أصفه، سواء من حيث إتقان البناء وضخامة فنه المعماري الاسلامي، أو بالأحرى هذه التوسعات الكبيرة الممتازة التي تلهج كل الألسن بالثناء على الذي أمر بإنجازها والدعاء له جازاه الله كل خير.

في مسجد قباء

لابد لزائر المدينة المنورة، أن يقوم بزيارة أول مسجد أسس على التقوى في الاسلام، والذي نزلت فيه آيات محكمات في الذكر الحكيم في سورة «التوبة» وهي قوله تعالى : (لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين).

فلقد ذكر الجمهور أن المقصود من ذلك المسجد هو مسجد قباء، وقيل هو مسجد الرسول ﷺ.

ان مسجد «قباء» أول مسجد بناه رسول الله ﷺ قبل دخوله إلى المدينة، بعد هجرته من مكة، فلقد جاء في السيرة النبوية ان رسول الله ﷺ لما قرب



من المدينة أثناء هجرته، كان المسلمون ينتظرون وصوله على أحر من الجمر، وكانوا يخرجون كل يوم إلى الحرة ــ وهي أرض ذات حجارة سوداء نخرة ــ أول كل نهار، فينتظرون وصوله، ولا يصرفهم عن الوقوف إلا اشتداد الحر. وذات يوم بعد أن رجعوا إلى بيوتهم، سمعوا صوت يهودي يصيح بأعلى صوته : هذا جدكم ــ أي حظكم ــ الذي كنتم تنتظرونه قد وصل، (وكان هذا اليهودي واقفا على اطم من آطامهم، (الاطم : القصر، وكل بيت مربع مستطيل أو حصن بني بالحجارة) لأمر يخصه، فبصر برسول الله ﷺ ومن معه من الصحابة مبيضين ــ أي لابسين البياض ــ فما أن سمع المسلمون صوت اليهودي حتى خرجوا مسرعين حاملين أسلحتهم بأيديهم يحمون رسول الله، ويرحبون به، فنزل رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف (بقباء) على كلثوم بن الهدم بن أمرئ القيس وكان لكلثوم هذا، (مربد) وهو الموضع الذي يبسط فيه التمر لييبس، فأخذ رسول الله هذا المربد من صاحبه وبنى فيه مسجد قباء، وكان يعمل فيه بنفسه، هو وأصحابه، ثم بعد مكوثه ﷺ بالمدينة، بقي يزوره وصار المسلمون يصلون فيه، وصار هذا المسجد موضع التقديس والاحترام وكان يؤمهم فيه معاذ بن جبل وسالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنهما، وكان الصحابة رضوان الله عليهم يقصدونه ويصلون فيه.

ولقد جدد هذا المسجد عدة مرات ابتداء من عهد عبد الملك بن مروان الأموي إلى عهد المملكة العربية السعودية.

وهو يبعد عن المدينة المنورة بنحو خمسة كيلو مترات أو أقل من ذلك والوصول إليه سهل يسير، فالسيارات الصغيرة (سيارات الأجرة) ذاهبة إليه آئبة منه في كل وقت.

لقد زرنا هذا المسجد المبارك المؤسس على التقوى في إحدى العشايا وحرمنا من التنقل فيه، لأن الوقت كان وقت كراهته للنافلة أي بعد صلاة العصر، ولكننا قرأنا آيات من القرآن الكريم، ودعونا الله دعوات، رجونا أن تكون مقبولة.

والمسجد فسيح ومتسع، وعليه جاذبية وروحانية لا توجد في كل المساجد، وبإحدى أجنحته، يوجد صبيان يتعلمون ويتدارسون كتاب الله على أستاذ لهم،

وفيه جناح خاص بالنساء، وحكى بعض الرحالة الذين زاروه أوائل القرن الهجري أن فيه داراً تنسب إلى أبي أيوب الأنصاري، وفيه مصلى النبي ﷺ، وموضع معروف يقال إنه مبرك ناقة رسول الله ﷺ لدى وصوله، وكان يوجد قربه مسجدٌ آخر كان ينسب لسيدتنا فاطمة الزهراء وقربه يوجد ـــ بئر أريس وتسمى : بئر الخاتم، لأن خاتما لرسول الله ﷺ سقط في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه كما جاء في البخاري من حديث أنس قال : كان خاتم رسول الله ﷺ في يده وفي يد أبي بكر بعده وفي يد عمر بعد أبي بكر، قال : فلما كان عثمان جلس على بئر أريس، فأخرج الخاتم، فجعل يعبث به، فسقط، قال : فاختلفنا ثلاثة أيام مع عثمان ننزح البئر فلم نجده.

إن مسجد «قباء» من المساجد التاريخية المباركة في الاسلام، ويكفي أن الرسول محمدا ﷺ هو الذي بناه وخططه، وكان يعمل فيه بنفسه ولقد سبق لجلالة الملك المنعم سيدي محمد الخامس أن فرشه بالزرابي المغربية الممتازة، ولكنه اليوم مفروش بزرابي سعودية جديدة وممتازة ـــ ومعتنى به، مثل بقية المساجد اعتناء لا مثيل له ـــ سواء من حيث نظافته ونقاؤه، أو من حيث الموظفون الدينيون القائمون على شؤونه، فجزى الله الساهرين على بيوت الله، لتبقى مكرمة معززة، تؤدي فيها الصلوات، ويتلى فيها كتاب الله، وتعمر بالصالحات من الأعمال والأقوال.

جبل أُحُد

أثناء ركوبنا سيارة الأجرة التي أقلتنا من مطار المدينة المنورة إلى المدينة لاحظنا من بعيد، جبل «أحد» (بضم أوله وثانيه) وهو جبل شهير معروف لدى الذين قرأوا سيرة الرسول المصطفى ﷺ، ويقع في شمالي المدينة المنورة، ويبعد عنها بنحو أربعة كيلومترات، وقد وقعت فيه معركة من المعارك التي ابتلى فيها المسلمون ابتلاء عظيما، نتيجة عدم امتثالهم للتعليمات التي أعطاها لهم رسول الله ﷺ.

لم نستطع نظرا لضيق الوقت أن نقوم بزيارة لهذا الجبل للترحم على الشهداء

السبعين الذين استشهدوا فيه، وهم يدافعون ويجاهدون لتبقى كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، والذين كان في طليعتهم عم النبي ﷺ وأخوه من الرضاع، سيدنا حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه الذي دفن في قبر واحد هو وسيدنا عبد الله بن جحش.

لقد سبق لي في زيارة سابقة للمدينة أن قصدت مقبرة الشهداء الواقعة شمال قبر سيدنا حمزة، للترحم عليهم والدعاء لهم، هم وسيد الشهداء : حمزة رضي الله عنه وعنهم أجمعين.

لقد اكتفينا أن نترحم عليهم من بعيد، ونذكر هذا الجبل، الذي قال عنه سيدنا رسول الله ﷺ (أحد، جبل، يحبنا ونحبه) ومحبة رسول الله ﷺ لهذا الجبل تلميح إلى أنه عليه السلام يحب المدفونين فيه، وأنهم هم بدورهم يحبونه عليه السلام، وكيف لا يحبهم رسول الله، وهم قدموا أعز ما يملكون وهي أرواحهم، دفاعا عن بيضة الاسلام، وفداء للرسول سيد الانام، وقصة غزوة «أحد» ينبغي التعرض لها في هذه المرحلة، لأن فيها دروسا وعبرا كثيرة، ولأنها من الغزوات الهامة في تاريخ الدعوة الاسلامية، وان لم يقدر الله فيها الانتصار للمسلمين، فكيف تقررت هذه الغزوة ؟ وما هي أسبابها ودوافعها ؟ وما هو تاريخ وقوعها ؟

غزوة أحد، والعبرة منها

إننا نعلم أن أهم الغزوات التي غزاها رسول الله ﷺ وانتصر فيها انتصارا ساحقا على المشركين، هي غزوة (بدر) الكبرى، التي وقعت بتاريخ 17 رمضان في السنة الثانية من الهجرة، لقد هز هذا الانتصار الذي حققه المسلمون على أعدائهم، والذي سقط فيه صرعى صناديد قريش مثل أبي جهل وأمية بن خلف وغيرهما من الصناديد، هز هذا الانتصار حمية الجاهليين، من قريش وغيرهم، فلم يقبلوا بهذه الهزيمة المنكرة، ولم يرتضوا ويستسيغوا أن يسقط زعماؤهم وقادتهم صرعى، ولم تسمح لهم نفوسهم الخبيثة أن يفقدوا مكانتهم في القبائل العربية ويتحدث الناس أن المسلمين هزموهم وانتصروا عليهم، وهكذا قرروا أن

يتهيأوا لمعركة أخرى مع المسلمين، ترجع إليهم هيبتهم ومكانتهم لدى القبائل العربية، وهكذا صاروا يستعدون كل أنواع الاستعداد، ويهيجون الأفكار القبائلية، ويستقطبون كل من يمكنهم أن يكونوا بجانبهم من الجيران والحلفاء.

لقد عقدوا اجتماعات في دار ندوتهم، فقرروا شراء العتاد، وكل ما يلزم لحرب طاحنة مع المسلمين، وصاروا يجمعون الأموال الكافية لما سيقدمون عليه، وفي ذلك نزلت الآية الكريمة في سورة الأنفال : «ان الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون».

لقد ترأس هذه الاجتماعات قادة قريش الذين لم يسقطوا صرعى في غزوة «بدر» وفي طليعتهم أبو سفيان بن حرب، وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية، وعبد الله بن أبي ربيعة، ثم قرروا فتح باب التطوع للغزاة، كما استدعوا الشعراء، لينظموا أشعارهم المثيرة للحزازات، والداعية إلى الالتحاق بجيش الغزاة.

ولم يكتفوا بذلك بل قرروا أن تصحبهم بعض نسائهم، حتى لا ينكص أي واحد منهم على عقبيه، فتعيره النسوة ويضحكن عليه، وبعد اكتمال جمعهم، جعلوا قائدا عاما عليهم أبا سفيان بن حرب، وكان معهم خالد بن الوليد، لأنه لم يكن أسلم إذذاك، فجعلوه قائدا على الفرسان، ثم قصدوا المدينة المنورة بجيشهم الجرار الذي بلغ عدده ثلاثة آلاف مقاتل.

لم يكن خافيا على علم رسول الله ﷺ ما يدبره زعماء قريش من محاولة غزوهم للمدينة، فلقد كان عمه العباس بن عبد المطلب موجودا بمكة إذذاك، وكان مشفقا على ابن أخيه من هذا الغزو، فهو وإن كان لم يعلن إسلامه إذذاك، فإن عاطفة الرحم تحركت فيه، فكتب كتابا إلى رسول الله، بعث به إليه مع رجل من قبيلة «غفار» يخبره فيه بتحركات قريش، وعزمهم على غزو المدينة، ومحاربة رسول الله، لأخذ الثأر مما وقع لهم في غزوة بدر.

وبمجرد ما قرئت الرسالة على رسول الله، أمر بإعداد العدة لمقابلة الأعداء القادمين، والدفاع عن المدينة وعن المسلمين، واستشار أصحابه في طريقة الدفاع، هل يبقى المسلمون في المدينة حتى يقرب منهم العدو، فهناك يدافعون عن أنفسهم وعن ديارهم ؟ أم يخرجون إليهم فيقاتلوهم قبل أن يصلوا إلى

المدينة ؟ وكان رأي الرسول عليه السلام أن يتمسك المسلمون بمدينتهم، يدافعون عنها دفاع الأبطال إذا ما هاجموهم قائلا : «فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة، وتدعوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام، وان هم دخلوا علينا قاتلناهم بسيوفنا» وكان هذا الرأي أيضا رأي بعض الصحابة الكبار، أما الشباب من الصحابة فكانوا على الرأي الثاني قائلين : «يارسول الله، كنا نتمنى هذا اليوم، وندعو الله، فقد ساقه إلينا، وقرب المسير» وكان من جملة هؤلاء المتحمسين للخروج، سيد الشهداء، حمزة بن عبد المطلب، فلقد قال للنبي ﷺ : «والذي أنزل عليك الكتاب، لا أطعم طعاما، حتى أجالدهم بسيفي خارج المدينة) لقد كان الشبان كعادتهم متحمسين كل الحماس مندفعين كل الاندفاع، مطالبين بالخروج لتلقي الأعداء قبل وصولهم إلى المدينة قائلين : (أخرج بنا إلى أعدائنا، لا يرون أننا جبنّا عنهم وضعفنا، والله لا نطيع العرب في أن تدخل علينا منازلنا).

وهكذا لم يسع رسول الله ﷺ إلا أن يتنزل لرأيهم، ويستجيب لقرارهم، رغم أنه كان يرى خلاف ذلك الرأي، وهكذا أمر بالاستعداد، واستعد هو بدوره عليه السلام، فتدجج بسلاحه، ولبس درعين، وخرج على قومه مدججا بالسلاح، مهيأ للحرب، قائلا : «لقد أبيتم الخروج، فعليكم بتقوى الله، والصبر عند البأس، وانظروا ما آمركم به فافعلوا».

لقد كان جيش المسلمين ألف مقاتل، قبل أن ينسلخ منه (ثلاثمائة كان على رأسها شيخ المنافقين عبد الله بن أبيّ، وزمرته الخائفة) فبقي مع رسول الله سبعمائة لا غير.

سبعمائة مقاتل مسلم، تقابل ثلاثة آلاف مشرك، مزودة بالسلاح والعتاد والفرسان، سبعمائة مسلم مستعدة للموت في سبيل عقيدتها، وبناء دولتها الاسلامية، تتكل على ربها وإيمانها لتجابه أعداء الله وأعداء الملة الاسلامية، وأعداء رسول الله ﷺ، (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين).

لقد طلب بعض اليهود، أن يلتحقوا بجيش المسلمين، ولكن الرسول عليه السلام، لم يقبل طلبهم قائلا : انا لا ننتصر بأهل الكفر، على أهل الشرك،

والواقع أن هؤلاء اليهود كانوا حلفاء لعبد الله بن أبيّ رأس المنافقين، وهذا المنافق الكبير كان تخلف عن رسول الله وصحبه، معتذرا بأعذار واهية، شأن كل المنافقين في كل العصور والأزمان، يظهرون الشجاعة والاقدام والمناصرة أيام السلم والرخاء، ولكنهم عندما يشتد الأمر، ويدعو داعي الواجب للجهاد، يختلقون اعذارا واهية، لتخلفهم وجبنهم وخيانتهم.

وفي عبد الله بن أبي نزلت الآية الكريمة في سورة آل عمران تفضحه وتفضح أصحابه وزمرته المنافقة، يقول الله سبحانه في سياق الحديث عن غزوة أحد وما وقع فيها : «وما أصابكم يوم التقى الجَمْعَانِ فبإذْن الله وليعْلَم المومنين، ولِيَعْلَمَ الذين نافقُوا وقيل لَهُم تعالَوْا قاتِلوا في سبيل الله أو ادفعوا، قالوا لو نعلم قتالا لاتَّبَعْناكُم، هُم لِلكُفر يومئذ أقربُ منهم للايمان، يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، والله أعلم بما يكتمون» ويقول سبحانه في سورة التوبة : «لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم، والله عليم بالظالمين».

لقد قرر رسول الله مقابلة المغيرين من المشركين، وبعد أن رتب جيشه، وأحكم تنظيمه، وأعطاه التوجيهات الضرورية والتعاليم القاطعة، مضى قاصدا جبل أحد، ليلتقي جيش الأعداء المغيرين هناك، قبل أن يصلوا إلى المدينة، ومن جملة ما قاله عليه السلام من تلكم التوجيهات النبوية : «ما أعلم من عمل يقربكم إلى الله تعالى، إلا وقد أمرتكم به، ولا أعلم من عمل يقربكم من النار، إلا وقد نهيتكم عنه، وانه قد نفث وألقى في روعي، الروح الأمين، أنه لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها، لا ينقص منه شيء، وان أبطأ عنها، فاتقوا الله، واجملوا في طلب الرزق، لا يحملنكم استبطاؤه أن تطلبوه بمعصية الله والمؤمن من المؤمن، كالرأس من الجسد، إذا اشتكى تداعلى له سائر جسده».

وكان من جملة الترتيبات التي رتبها رسول الله ﷺ، تعيينه فرقة من الرماة الماهرين، أعطاهم أمرا قاطعا أن لا يبرحوا مكانهم مهما كانت الظروف قائلا لهم : «انضحوا الخيل عنا بالنبل، لا يأتون من خلفنا»، «احموا لنا ظهورينا لا يأتون من خلفنا، وارشقوهم بالنبل، فإن الخيل لا تقدم على النبل، إنا لا نزال غالبين، ما تبثم مكانكم»، «إن رأيتمونا تتخطفنا الطير، فلا تبرحوا مكانكم، حتى أرسل إليكم، وإن رأيتُمونا ظهرنا على القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى

أرسل إليكم، وإن رأيتمونا غنمنا فلا تشركونا، وإن رأيتمونا نقتتل فلا تغيثونا ولا تدفعوا عنا» كل هذه التوصيات أعطاها رسول الله ﷺ لفرقة الرماة، لأنه كان يعرف أهمية الدور الذي تقوم به، وكان يريد منها أن تبقى متحصنة في المكان الذي وضعها فيه، لتحمي ظهر المجاهدين من كل هجوم غير متوقع، وليبقى المجاهدون مطمئنين من غارات الأعداء المتوالية الذين يتجاوز عددهم أربعة أضعاف عدد المسلمين، ثم رتب بقية كتائب الجيش الذين كان فيه الأقوياء المتحمسون، أمثال علي بن أبي طالب وحمزة عم الرسول، وأبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب، وأبو دجانة وغيرهم من الصحابة الأشداء.

وبعد انتهائه عليه السلام من ترتيب جيشه، وإعطاء تعاليمه، أخرج سيفه من غمده، وجرده أمامهم قائلا : «من يأخذ هذا السيف بحقه» فتطلع الكثيرون إلى أخذه، وهم في منتهى الحماس، ولكن واحدا نطق متسائلا : وما حقه يارسول الله ؟ فقال عليه السلام : «تضرب به حتى ينحني» فأجابه «أنا آخذه يارسول الله» لقد كان هذا المتسائل الذي أخذ السيف بحقه، هو الصحابي الجليل (أبو دجانة) وهو من الأنصار الذين أبلوا البلاء الحسن في غزوة بدر وغيرها، وهو الذي سيلعب دورا من أهم الأدوار في هذه المعركة الجديدة، وكان مشهورا بالشجاعة والاقدام والبطولة، ولهذا فإنه ما أخذ السيف من رسول الله ﷺ، حتى أخرج عصابة له حمراء وعصب بها رأسه، ثم خرج يختال في تبختر وخيلاء أمام الجيوش فلما رآه رسول الله ﷺ يختال في مشيته قال : «إنها لمشية يبغضها الله، إلا في مثل هذا الموطن».

وبعد التهييئات من الطرفين، ووقوف أحدهما أمام الآخر، المشركون وعددهم ثلاثة آلاف، وقائدهم أبو سفيان بن حرب، وسبعمائة مسلم، وقائدهم الرسول الأمين ﷺ، جاء وقت الاصطدام، وكانت خطة الرسول أن لا يبدأ أصحابه بالهجوم بل ينتظرون حتى يبدأ المشركون به، حيث يتلقون بعد إذن رسول الله «لا يقاتلن أحد منكم حتى نأمره بالقتال» هجومهم بالنبال، وكانت خطة سليمة محكمة حيث كانوا يردون على أعقابهم خاسرين ثلاث مرات متتابعات، وأمام فشلهم في الهجوم صاروا يطلبون البراز، فتبارز معهم كل من الزبير بن العوام وحمزة بن عبد المطلب وسعد بن أبي وقاص، وكانت النتيجة انهزام المشركين

وقتل مبارزيهم، ثم جاء دور علي بن أبي طالب الذي قتل شر قتله مبارزه، ارطأة بن شرحبيل، ثم احتدمت المعركة وبرز (أبو دجانة) بسيف رسول الله وبصحبته حمزة بن عبد المطلب فصارا يصولان ويجولان ويبيدان كل من يلقاهما، وصارت الهزيمة تدب في صفوف المشركين حيث سقط لواؤهم إلى أن رفعته عمرة الحارثية (فالتفت حوله قريش من جديد)، وإلى ما وقع يقول حسان بن ثابت رضي الله عنه :

فلولا لواء الحارثية أصبحوا يباعون في الأسواق بيع الجلائب

لقد كانت بداية المعركة كلها في صالح المسلمين، وصار المشركون يولون الادبار، فارين خائفين منهزمين، ولكن حدثا وقع كان له الأثر ولا شك في ضعضعة معنوية المسلمين، ذلك أن عبدا من عبيد جبير بن مطعم يسمى «وحشي» كان اتفق مع مالكه أن يعتقه إن هو اغتال (حمزة) فما كان من هذا الوحش، إلا أن يغتنم فرصة الظلام، فيتربص لسيدنا حمزة ليقتله غيلة، ولكن هذا الاغتيال لم يكتشف إلا بعد انتهاء المعركة. وكيفما كان الأمر، فلقد استعرت الحرب بين الجانبين وظهر (أبو دجانة) الذي حمل سيف رسول الله، يقاتل ذات اليمين وذات اليسار، وهو واضع عصابته الحمراء على رأسه، والمشركون من حوله منهزمون.

قال الزبير بن العوام رضي الله عنه : «وجدت في نفسي حين سألت رسول الله فمنعنيه، وأعطاه أبا دجانة، وقلت أنا ابن صفية عمته، ومن قريش وسألته إياه قبله. فأعطاه أبا دجانة، وتركني، والله لأنظر ما يصنع، فأتبعته فأخرج عصابة حمراء فعصب بها رأسه، فقالت الأنصار : أخرج أبو دجانة عصابة الموت، وهكذا كانت تقول له إذا تعصب، فجعل لا يلقى أحداً إلا قتله» إلى آخر ما قاله الزبير رضي الله عنه، وتحكي كتب السيرة أن أبا دجانة كاد يقتل هند بنت عتبة زوج أبي سفيان وكانت متنكرة بلباس رجل، فلما عرف أنها امرأة كف عنها قائلا : أكرمت سيف رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأة.

وهذه المرأة التي لم يستسغ أبو دجانة أن يقتلها بسيف رسول الله، هي التي أجازت «وحشي» قاتل حمزة رضي الله عنه بحليها وثيابها ومالها الذهبي، وهي التي بقرت بطن، سيد الشهداء : حمزة رضي الله عنه، وانتزعت منه كبده في

وحشية منكرة، وصارت تمضغه وتلوكه انتقاما منه وحقدا عليه، نظرا لمواقفه البطولية في غزوة بدر وصارت تنشد قائلة :

نحن جزيناكم بيوم بـــدر … والحرب بعد الحرب ذات سعر
ما كان من عتبة لي من صبر … ولا أخي وعمه وبكـــري
شفيت نفسي وقضيت نذري … شفيت وحشي غليل صدري
أشكر وحشي على عمـــري … حتى ترم أعظمي في قبـــري

ولقد أجابتها الصحابية الجليلة هند بنت أثاثة بن عباد بن المطلب شعرا أيضا على نفس الروى فقالت :

خزيت في بدر وبعد بـــدر … يابنت وقاع عظيم الكفـــر
صبحك الله غداة الفجـــر … ملها شميين الطوال الزهـــر
بكل قطاع حسام يفـــري … حمزة ليثي وعلى صقـــري
إذ رام شيب وأبوك غـــدري … فخصبا منه ضواحي النحر
ونذرك السوء فشر نـــذر

لقد سارت المعركة أولا في صالح الجيش الاسلامي، ولكنها انقلبت فجأة لصالح المشركين، بسبب أخطاء وقعت من كتيبة الرماة الاسلامية، حيث أنها لم تبق متبعة التوصيات التي وصاها بها رسول الله ﷺ قبل احتدام المعركة، حيث انه عليه السلام، أوصى تلك الكتيبة من الرماة أن لا تتحرك من موضعها مطلقا، سواء انتصر المسلمون أو انهزموا، لأن الكتيبة هي التي كانت تحمي ظهر المسلمين، ولكن ظهور بوادر الانتصار، وفرار المشركين عندما غلبوا على أمرهم أول الأمر، جعل الكثيرين من أفراد الكتيبة، ينسون تعاليم الرسول، فيتركون مواقعهم التي كانوا فيها، معتقدين أن المعركة انتهت، والانتصار تحقق، وقال قائلهم : «لم تقيمون ههنا في غير شيء ؟ وقد هزم الله عدوكم، وهؤلاء إخوانكم ينتهبون عسكرهم، فادخلوا فاغنموا مع الغانمين» ثم استأذنوا في مغادرة الجبل، وترك مواقعهم.

لم يكن هذا رأي قائد الكتيبة : عبد الله بن جبير الأنصاري الذي لم تغب عن ذهنه تعاليم الرسول عليه السلام المشددة للبقاء في مواقعهم كيفما كان

الأمر، ولكنهم لم يستمعوا إليه، واختاروا أن يستفيدوا من الغنائم التي كانوا يظنون أنها ربما تضيع لهم «منكم من يُريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة» وهكذا كما قلنا انكشفت مؤخرة الجيش الاسلامي، حيث بقيت دون حراسة كافية، وان كان بقي فيها عبد الله بن جبير مع عشرة من الصحابة لا غير، وهكذا اغتنمها جيش المشركين فرصة سانحة، فلموا شملهم من جديد وأعادوا الكرة على المسلمين، وكان قائدهم آنذاك خالد بن الوليد، ومساعده عكرمة بن أبي جهل، فهاجموا أفراد الكتيبة القليلي العدد الذين بقوا في أماكنهم وأبادوهم عن آخرهم، وتابعوا هجومهم ضد جيش المسلمين لأنه لم يبق محميا كما كان من قبل، فتغير الموقف وصار المنهزمون منتصرين، والمنتصرون منهزمين، فدب الرعب في صفوف المسلمين وافتقدوا توازنهم، واختلطوا مع بعضهم بقتل بعضهم بعضا، وصار المشركون يشيعون الاشاعات بأن محمدا قتل في المعركة، فزادت هذه الاشاعات في الارتباك والفوضى، ورغما من ثبات بعضهم مع رسول الله، ومحاربتهم الجيوش المشركة بشجاعة وثبات نادرين، فإن البعض الآخر فر من المعركة قاصدا المدينة، ملتجأ إليها خوفا من الهلاك وفي هذه الفئة الهاربة نزلت الآية الكريمة التي تقول : «إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا، ولقد عفا الله عنهم، إن الله غفور حليم».

وأمام هذه التقلبات، وقطعا لدابر الدعايات والاشاعات بأن رسول الله ﷺ قتل، صاح رسول الله صيحة مدوية في جيشه قائلا : «هلم إلي، أنا رسول الله» مثبتا أفئدة المومنين الصامدين، مقويا من عزائمهم في الذب عن دينهم وعقيدتهم ورسولهم، وفي ذلك يقول القرآن الكريم في سورة آل عمران : «إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم فأثابكم غما بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون».

لقد أرجع صوت الرسول عليه السلام الطمأنينة لنفوس الصادقين في جيش المسلمين، فساروا يتسابقون للالتفاف حول رسول الله، يحمونه من كيد الأعداء الذين عندما تأكدوا أنه عليه السلام لم يصب بمكروه في المعركة، وأنه وإن كان بقي في مقر القيادة مع نفر قليل جدا من أصحابه، فإن الله كفاه شر أعدائه،

رغم تحرشهم به، وهجماتهم عليه، ورغم إصابته بجراحات كثيرة في وجهه الشريف، بقي أثرها في وجهه حتى التحق بربه، كما تكسرت رباعيته السفلى، وانشقت شفته عندما قذفه أحد المشركين، بحجر كبير، كما وقع ﷺ أثناء اشتداد المعركة في حفرة عميقة، جرحت فيها ركبتاه الشريفتان، ولقد تألم عليه السلام لما أصابه من مكروه، فنطق عليه السلام قائلا : «كيف يفلح قوم، خضبوا وجه نبيهم، وهو يدعوهم إلى ربهم، اشتد غضب الله على قوم أدموا وجه رسول الله»، فأنزل الله عليه، في سورة آل عمران : «ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون».

لقد شعر المسلمون الثابتون، أن المشركين مصممون العزم على الاعتداء على رسول الله وقتله، ولذلك فإنهم شعروا بمسؤوليتهم الخطيرة تجاه الرسول وتجاه دعوته، فصمموا على أن يموتوا جميعهم دونه، وخصوصا منهم الماهرين من الرماة مثل أبي طلحة الأنصاري وسعد بن أبي وقاص ولقد روى أحمد بن أنس أن أبا طلحة كان يرمي يوم أحد بين يدي النبي ﷺ ساعة تكالب المشركين عليه، والنبي عليه السلام من خلفه يترس به، وكان أبو طلحة راميا شديد الرمي، فكان إذا رمى، رفع رسول الله شخصه ينظر أين تقع سهمه، ويرفع أبو طلحة صدره ليقي رسول الله من سهام العدو وهو يقول : بأبي أنت وأمي يارسول الله لا يصنيبك سهم، نحري دون نحرك.

وروى التاريخ أن النبي ﷺ كان كلما رمى سعد المشركين المتزاحمين للفتك بالنبي قال له رسول الله ﷺ : «ارم فداك أبي وأمي» قال سعيد بن المسيب : سمعت سعد بن أبي وقاص يقول : نثل لي رسول الله ﷺ كنانته يوم أحد، وقال : ارم فداك أبي وأمي، أما أبو دجانة وما أدراك ما أبو دجانة : فلقد جاء في السيرة النبوية، أن نبال المشركين المصوبة نحو رسول الله ﷺ كانت تقع في ظهر أبو دجانة، لا يأبه لها، مع أنها تغرز في ظهره وهو مسور على رسول الله ﷺ إلى غير هؤلاء من أكابر الصحابة رضوان الله عليهم، الذين وفوا بما عاهدوا الله عليه، ومنهم أبو عبيدة بن الجراح وقتادة بن النعمان، الذي أصيبت عينه بسهم من سهام المشركين حتى قفزت من محجرها، ووقعت على وجنته فردها رسول الله ﷺ إلى مكانها بيده الشريفة. ومنهم حاصب بن

أبي يلتعة، وحنظلة بن أبي عامر الراهب، الذي قال عنه الرسول بعد استشهاده أنه تغسله الملائكة، لأنه استشهد وهو جنب، لأن معركة أحد التي استشهد فيها وقعت صبيحة زفافه، ومهم أم عمارة «نسيبة» المازنية الأنصارية التي كانت من النسوة الثلاث اللائي شهدن بيعة العقبة، وبيعة الرضوان، والتي حدثت عن نفسها وأعمالها في هاته المعركة فقالت : «خرجت أول النهار، أنظر ما يصنع الناس، ومعي سقاء فيه ماء، فانتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو في أصحابه والريح للمسلمين، فلما انهزم المسلمون، انحزت إلى رسول الله ﷺ، فقمت أباشر القتال، وأذب عنه بالسيف، وأرمي عنه بالقوس، حتى خلصت الجراحة إلي، قالت الرواية عنها : «فرأيت على عاتقها جرحا أجوف له غور، قلت لها : من أصابك هذا ؟ قالت : ابن قمئة، أقماه الله، أي أذلّه الله لما ولى الناس عن رسول الله، أقبل يقول : دلوني على محمد، لانجوت إن نجا، فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير : وأناس كانوا ممن ثبتوا مع رسول الله ﷺ، فضربني هذه الضربة، ولقد ضربته على ذلك ضربات، ولكن عدو الله كان عليه درعان. ولقد تحدث عن هذه المرأة الشجاعة رسول الله ﷺ فقال : ما التفت يمينا وشمالا يوم أحد، إلا ورأيتها تقاتل دوني، ودعا لها رسول الله هي وأهل بيتها فقال : اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة.

لقد منيت معركة «أحد» بالهزيمة، بعد أن كان المسلمون منتصرين فيها لأول مرة، وكان هذا الانهزام نتيجة عدم الامتثال لما أمر به قائد جيش المسلمين وهو رسول الله ﷺ، وتلك نتيجة العصيان وعدم الامتثال لما يأمر به قواد الجيوش.

الرسول ﷺ يتفقد الشهداء

بعد الانتهاء من المعركة وقف رسول الله يتفقد القتلى ويتعرف عليهم ويدعو لهم، فلما وقف على عمه حمزة ورأى ما فعل به المشركون من تشويه وتمثيل، وما فعلته هند امرأة أبي سفيان من بقر لبطنه وإخراج كبده، بكى عليه السلام وتألم وقال : (لن أصاب بمثلك أبدا، ما وقفت موقفا أغيض علي من هذا). ثم أمر رسول الله ﷺ بدفن الشهداء السبعين بثياب معركتهم في المكان الذي قتلوا فيه. وأكد للصحابة أن الذين قتلوا في سبيل الله أحياء في قبورهم قائلا كما

روى ذلك ابن عباس : (لما أصيب اخوانكم بأحد، جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر، ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب، معلقة في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم وحسن مقيلهم قالوا : ياليت اخواننا يعلمون ما صنع الله بنا، لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب، فقال الله عز وجل : (أنا أبلغهم عنكم، وأنزل الله على رسوله هذه الآية : في سورة آل عمران (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون، يستبشرون بنعمة من الله وفضل وان اللّهَ لا يضيع أجر المومنين).

لقد تعمدت أن أحكي بمناسبة زيارتي للمدينة المنورة ومشاهدتي مع رفيقيَّ : ابني محمد الناصر وابن أخي المرحوم عبد الرحمان، جبل أحد، قصة هذه الغزوة باختصار، لأوضح لأبنائنا من الشباب والشابات أهمية التضحيات التي بذلها رسول الله ﷺ في سبيل اعزاز هذا الدين، والمواقف البطولية التي وقفها الصحابة الكرام دفاعا عن حوزة العقيدة الاسلامية وتثبيتا لأركان دولة الاسلام، وفداء لرسول الانسانية جمعاء سيدنا محمد ﷺ خاتم الأنبياء والرسل ليدركوا ما عليهم من مسؤوليات إزاء دينهم وعقيدتهم وقدوتهم المثلى في الحياة سيدنا محمد رسول الله ﷺ.

2) ثانيا لأوضح حقيقة أساسية يجب أن تكون دائما نصب العاملين والمجاهدين، وأعني بها ضرورة الامتثال وطاعة المسيرين لدفة الجهاد والنضال، دون تعنث أو انحراف فقصة «أحد» تعطي الدليل على أن الأمور لو سارت في الطريق التي أمر بها رسول الله ﷺ كتيبة الرماة، لكان نصر المسلمين محققا، ولكن الانحراف عن التعاليم التي أعطى أولئك الرماة بضرورة بقائهم في أماكنهم مهما كانت الظروف، سواء أكانت ظروف انتصار أو انهزام، أقول الانحراف عن الامتثال، هو الذي أتى بالهزيمة للمسلمين، لأن الكثيرين من أولئك الرماة، أغرتهم خديعة الانتصار، واستهوتهم الغنيمة التي سيحصلون عليها أمام هزيمة أعدائهم فتركوا أماكنهم الحراسية التي كانت تعوق أعداءهم عن تخطي الجبل، واللحاق بالمسلمين، وضربهم من ظهورهم، فكان ذلك سببا أساسيا في الهزيمة،

وابتلاء المسلمين أعظم ابتلاء حتى استشهد منهم سبعون صحابيا، وحتى شج وجه رسول الله، وكسرت رباعيته إلى آخر ما ذكرنا.

3) ثالثا : لقد وضحت تطورات هذه المعركة منذ بدايتها الصالحين من الطالحين، والمومنين من المنافقين، فانكشفت حقيقة عبد الله بن أبيّ المنافق ومن معه، عندما فروا من المعركة قبل بدئها، خالقين الاعذار الواهية التي لم يقبلها منهم رسول الله (وليمحّص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين).

وفي قصة «أحد» نزلت الآيات الكريمة في سورة آل عمران تقول (وإذْ غدوت من أهلك تبوّء المومنين مقاعد للقتال، والله سميع عليم) إلى آخر الآيات.

بقيع الغرقد

عندما تخرج من الحرم النبوي من الجهة التي يوجد بها باب جبريل تلاحظ جدارا طويلا جدا ممتدا مسافة طويلة في شرق المدينة محيطا بمقبرة المدينة التي تسمى بالبقيع، ويقال له بقيع الغرقد، والغرقد نوع من الشجر كان يوجد في تلك البقعة الأرضية، وبقيع الغرقد، دفن فيه أزيد من عشرة آلاف صحابي زيادة على التابعين وتابعيهم ومن تبعهم من المسلمين الذين ماتوا بالمدينة المنورة.

لقد بقي البقيع مقبرة المسلمين في المدينة منذ عهد الرسول إلى الآن، والقبور التي فيه لا تعرف إلا بطريق الرواية، ورغما من أن بعض القباب كانت فيه دالة على الموتى المدفونين، فإن تلك القبابْ هدمت وانطمست ولم يبق لها أثر، ولذلك فالذي يزور البقيع ليترحم على الصحابة ومن أتى بعدهم، لا يستطيع أن يتعرف على أي قبر من قبور آل بيت الرسول أو زوجاته أو صحابته أو غيرهم من التابعين والعلماء والصالحين، ولكنا مع ذلك نعلم حسبما ما قرأنا في بعض الكتب التاريخية أن من جملة المدفونين في البقيع من أبناء الرسول ﷺ : إبراهيم ورقية وفاطمة الزهراء وزينب وأم كلثوم وكذلك زوجاته عليه السلام باستثناء خديجة وميمونة ومن صحابته : عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن مسعود وسعد بن معاذ وأبو سعيد

الخذري والعباس بن عبد المطلب وأسعد بن زرارة وغيرهم، ومن آل بيته عليه السلام : الحسن بن علي وزين العابدين علي بن الحسين وأبو جعفر الباقر محمد بن زين العابدين وجعفر الصادق بن الباقر وكذلك قبر الامام مالك بن أنس الأصبحي امام دار الهجرة والمغرب، والامام نافع شيخ القراء وغيرهم من الذين كتبت لهم السعادة فدفنوا قريبين من مدفن الرسول الكريم عليه السلام.

لم تتح لنا الأقدار هذه المرة أن تزور البقيع لنترحم على آل البيت الاطهار وصحابة الرسول المختار وغيرهم من الأولياء الأخيار، ولكنا ترحمنا عليهم ولو من بعيد، ودعونا لهم ولأنفسنا أن يبوئهم الله مقعد صدق عنده، وأن يوفقنا حتى نسير في الهدى الذي دعا إليه رسول الله عليه الصلاة والسلام، ودعاؤنا هو اقتداء بما كان يفعله سيدنا الرسول الأمين فلقد كان يزور بقيع الغرقد، ويدعو لأهله، فلقد روت عائشة رضي الله عنها كما جاء في صحيح مسلم والنسائي أن جبريل قال للنبي ﷺ أن ربك يأمرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم، فهنيئا لأهل البقيع باستغفار الرسول لهم، ونرجو الرب الكريم أن يستغفر لنا رسولنا نحن أيضا ويتشفع فينا، فننعم إن شاء الله برضى ربنا، ونكون من الناجين آمين.

ابن جبير، يصف البقيع

بعد كتابة هذا قرأت في رحلة ابن جبير، المتوفى عام 614هـ/1217م والذي قام برحلات ثلاث، كانت آخرتها الرحلة التي استغرقت أكثر من ثلاث سنوات، وختمها في يوم الخميس الثاني والعشرين من شهر محرم سنة 581هـ.

لقد كتب هذا الرحالة الأندلسي الشاطبي البلنسي، وصفاً دقيقاً لزيارته ومشاهداته ووصفِه لبقيع الغرقد، قال : (وبقيع الغرقد شرقي المدينة، تخرج إليه على باب يعرف بباب البقيع، وأول ما تلقى عن يسارك عند خروجك من الباب المذكور، مشهد صفية عمة النبي ﷺ، أم الزبير بن العوام رضي الله عنه، وأمام هذه التربة قبر مالك بن أنس الامام المدني رضي الله عنه، وعليه قبّة صغيرة مختصرة البناء، وأمامه قبر السلالة الطاهرة، إبراهيم بن النبي ﷺ، وعليه قبة بيضاء، وعلى اليمين منها تربة ابن لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، اسمه عبد الرحمان الأوسط وهو المعروف بأبي شحمة، وهو الذي جلَده أبوه الحدّ، فمرض

ومات، رضي الله عنهما، وبإزائه قبر عَقيل بن أبي طالب رضي الله عنه، وعبد الله بن جعفر الطيار، رضي الله عنه، وبإزائهم روضة فيها أزواج النبي ﷺ، وبإزائها روضة صغيرة فيها ثلاثة من أولاد النبيّ ﷺ، ويليها روضة العباس بن عبد المطلب والحسن بن عليّ رضي الله عنهما، وهي قبة مرتفعة في الهواء على مقربة من باب البقيع المذكور، وعن يمين الخارج منه، ورأس الحسن إلى رجلي العباس، رضي الله عنهما، وقبراهما مرتفعان عن الأرض متسعان مغشيان بألواح ملصقة أبدع إلصاق، مرصّعة بصفائح الصّفر، ومكوكبة بمساميره على أبدع صفة، وأجمل منظر، وعلى هذا الشكل قبر إبراهيم ابن النبي ﷺ، ويلي هذه القبّة العباسية بيت يُنسب لفاطمة بنت الرسول ﷺ، ويعرف ببيت الحُزن، يقال إنه الذي أوَتْ إليه، والتزمت فيه الحزن على موت أبيها المصطفى ﷺ، وفي آخر البقيع قبر عثمان الشهيد المظلوم ذي النورين رضي الله عنه، وعليه قبّة صغيرة مختصرة، وعلى مقربة منه، مشهد فاطمة ابنة أسد، أم عليّ رضي الله عنها وعن بنيها) هكذا وصف ابن جبير بقيع الغرقد، لدى زيارته له في القرن السادس الهجري، وهكذا بقي بعد ذلك إلى أن استولى السعوديون على الحجاز، حيث حطموا كل القبب والمشاهد التي كانت تعرف بمقابر بعض آل بيت الرسول وبعض الصحابة والتابعين وتابعيهم، وسوّوا المقابر مع بعضها، فأصبح الزائر للبقيع لا يستطيع أن يتعرف إلى أي مدفن أو قبر من القبور، وذلك طبقاً لمذهبهم المتشدد كل التشدد في البناء على القبور، حتى لا تزار ولا تقصد للتبرك بها كما يفعله بعض الناس، وياحبذا لو بقيت بعض العلامات التي تشير إلى أماكن الصحابة الأجلة وآل البيت الأطهار، ليأخذ الزوار الصادقون العبرة منها والدعاء لأصحابها، مصداقاً للحديث الشريف الذي روى عن رسول الله ﷺ والذي يقول إنه قد نهى عن زيارة القبور، ثمّ أمر بزيارتها الزيارة الشرعية طبعاً. ولله الأمر من قبل ومن بعد.

الآثار بالمدينة المنورة

تعتبر المدينة المنورة من أقدم المدن التاريخية في العالم، فلقد أنشأها العمالقة فيما قبل التاريخ، وكانت قبل الاسلام يسكنها قبيلتا الأوس والخزرج اليمانيين، ثم أصبحت بعد هجرة الرسول عليه السلام إليها عاصمة الدولة

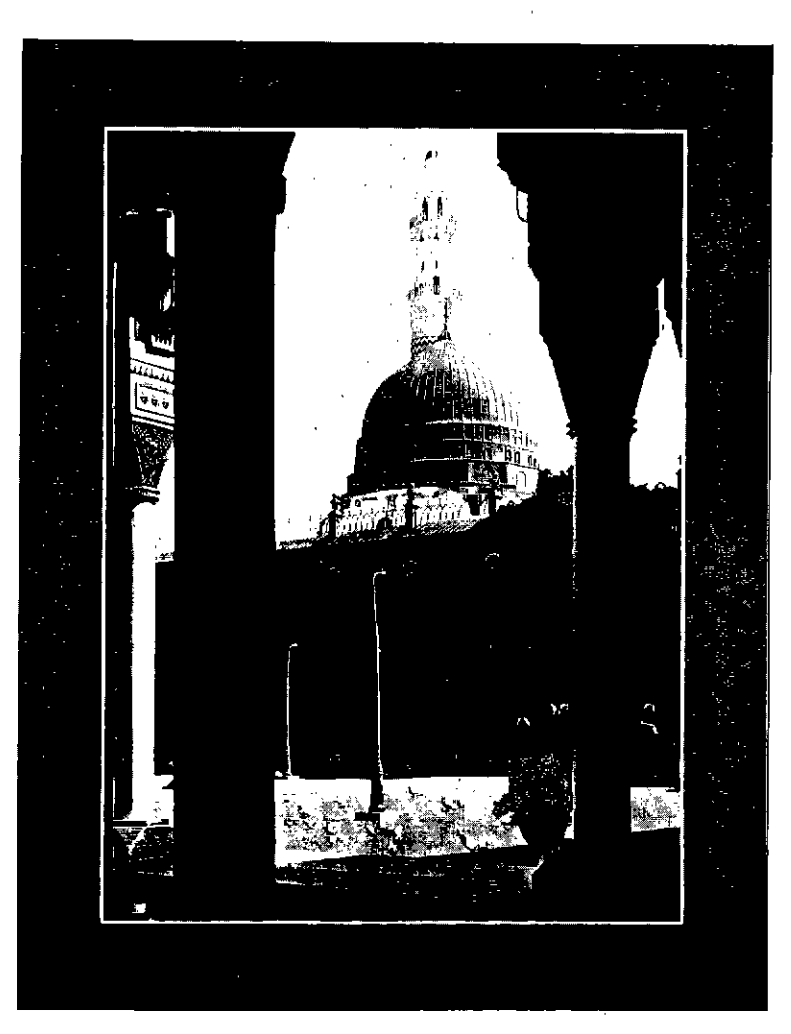
الاسلامية في أول عهدها، ثم في عهد الخلفاء الراشدين، فكانت مقصد المسلمين من جميع أنحاء الأرض، وكانت تجبى إليها الأموال من البلدان المفتوحة للمسلمين، وكانت تنشأ فيها البنايات والآثار المختلفة المتعددة.

ولقد اهتم المؤرخون قائما وحديثا بالبحث عن الآثار المتعددة في المدينة المنورة والتي اندثر أكثرها بمرور العصور والأزمان، ونعثر على أسمائها لدى دراستنا للتاريخ وللسيرة النبوية، فلا ندري أمكنتها ومحالها، سواء أكانت دورا أو قصورا أو غير ذلك. فمنها دار أبي أيوب الأنصاري التي نزل فيها رسولنا الأمين عليه السلام لدى وصوله إلى المدينة المنورة أول يوم بعد هجرته من مكة فأقام فيها بضعة شهور، ولقد ذكر الامام السهيلي في الروض الأنف. (انها آلت بعد صاحبها أبي أيوب إلى مولاه «افلح» وهذا لم يفلح، إذ باعها بعدما خربت للمغيرة بن عبد الرحمن بألف دينار، وهذا قام بترميمها وتصدق بها بعد ذلك على أهل بيت من فقراء المدينة ثم لج تاريخها في الغموض حتى أصبحت عرصة (ويقول الأستاذ عبد القدوس الأنصاري :

إن الملك شهاب الدين غازي بن الملك العادل بناها مدرسة سميت بالمدرسة الشهابية، ثم في أواخر القرن الثالث عشر الهجري، أعيد بناؤها بصفة مسجد مقبب ذي محراب، ولاتزال إلى الآن بهذا الشكل في القسم الجنوبي الغربي من دار آل البالي، وعلى جدارها الخارجي حجر منقوش فيه بحروف بارزة مذهبة ما نصه : (هذا بيت أبي أيوب الأنصاري موفد النبي ﷺ) سنة (1291هـ) ويقول بعض المؤرخين أنها كانت عرفت باسم زاوية الجنيد، ولست أدري هل لازالت كما وصفها الأستاذ عبد القدوس أم أنها حطمت كما حطم الكثير من المآثر التاريخية، فلم تتح لي الظروف أن أقف على عين المكان لدى زياراتي المتكررة للمدينة المنورة.

ومن الدور التي كانت معروفة، دار عبد الله بن عمر رضي الله عنه ويقول الأستاذ عبد القدوس انه دخل هذه الدار عام 1353هـ فوجدها كشبه مدرسة واسعة، بها غرف متعددة، وكانت قريبة من المسجد النبوي.

ومنها دار جعفر الصادق رضي الله عنه، وكانت ملاصقة لدار أبي أيوب الأنصاري، ومنها دار عثمان بن عفان رضي الله عنه التي اغتيل فيها وهو يتلو



القبة الخضراء بالمسجد النبوي الشريف

القرآن، ولقد تحدث عنها ابن جبير في رحلته فقال : (ويقال باب جبريل عليه السلام دار عثمان رضي الله عنه، وهي التي استشهد فيها) إلى غير ذلك من الدور التي كانت معروفة ثم اندثرت بمرور الأزمان، ومنها دار أبي بكر الصديق ودار مروان بن الحكم.

ومن القصور التي كانت مشيدة خارج المدينة، قصر سعيد بن العاص قال عنه الرحالة البتنوني في رحلته : (وكان هذا القصر في أيام صاحبه آية في جماله وفخامته، بل كان آية من آيات القرن الأول الهجري، وأعجوبة من أعاجيبه، حتى فضله الشاعر على أبواب جيرون بدمشق التي كانت في ذلك العهد عاصمة الخلافة، ومكان فخامتها) والشاعر الذي يشير إليه البتنوني هو أبو قطيفة إذ يقول : (القصر فالنخل فالجماع بينهما أشهى إلى النفس من أبواب جيرون). ولقد ذكر عبد القدوس أن هذا القصر لازالت اطلاله ماثلة للعيان، وانه مطلي بالجبص من داخله وخارجه، وانه لمتانة بنائه، لم يندثر نهائيا مثل ما اندثر ما بالعقيق من سائر القصور. وسعيد بن العاص هذا، هو أحد أمراء المدينة في خلافة معاوية رضي الله عنه.

وعندما نقرأ سيرة الرسول عليه السلام، يتعرض كتاب السيرة لحصن كعب بن الاشرف النبهاني، وكعب هذا كان من ذوي المكانة والنباهة والمنزلة الرفيعة في قومه، وكان شاعرا مفلقا نصيحا، وكانت عداوته للرسول الأمين عليه السلام عداوة متمكنة، فكان يؤلب القبائل العربية، ضد رسول الله، وضد المسلمين والرسول عليه السلام، الأمر الذي كان سببا في قتله غيلة، رغم تحصنه بحصنه المنيع الذي كان يظن أنه سيحميه، وهذا الحصن يقع في منازل بني النضير بضاحية المدينة الجنوبية الشرقية ولازالت بعض آثاره موجودة.

أما المساجد الأثرية فهي كثيرة ومتعددة، ومنها مسجد قباء الذي تحدثنا عنه، ومسجد الغمامة، ومسجد الفتح وهو من المساجد التي بنيت في عهد رسول الله عليه وسلم، وسمي بمسجد الفتح لأن الرسول عليه السلام دعا فيه على الأحزاب في غزوة الخندق، فاستجاب الله دعاءه وانتصر عليهم، فسمي بمسجد الفتح، ومسجد القبلتين، ولقد صلى ﷺ فيه متجها إلى بيت المقدس قبل أن تغير القبلة، ويتجه المسلمون في صلاتهم إلى الكعبة المشرفة، الأمر

الذي أثار اعتراض اليهود الذين قالوا كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم : (ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها) ومسجد بني ظفر ولقد زاره رسول الله ﷺ كما روى ذلك السمهودي (عن الطبراني ان النبي ﷺ أتى بني ظفر في مسجدهم فجلس على الصخرة التي فيه اليوم (يومئذ) ومعه بعض الصحابة، وأمر قارئا فقرأ حتى أتى على هذه الآية : (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) فبكى الرسول، حتى اضطرب محياه، فقال : أي رب ؟ شهيد على ما أنا بين ظهرانيه، فكيف بمن لم أر) وبعض أطلال هذا المسجد مازالت باقية، وكان يقع هذا المسجد في شرق المدينة ويبعد عن البقيع بنحو 15 دقيقة. ومسجد السقيا، ويقع بقرب بئر السقيا. بحرة المدينة العربية قريبا من محطة السكة الحديدية المعطلة. ويقال إن النبي ﷺ صلّى بموضع هذا المسجد. ودعا فيه بالبركة لأهل المدينة وقال : ان المدينة حرم كحرم مكة، ومسجد بني معاوية أو مسجد الاجابة، ولقد جاء في صحيح مسلم أن النبي ﷺ دعا ربه في هذا المسجد وطلب ثلاثا، فأجاب دعوتين هما : عدم اهلاك أمته بالغرق ولا بالسنة، ومنعه الثالثة وهي أن لا يجعل بأسهم بينهم، ويقع هذا المسجد شمال البقيع. إلى غير ذلك من المساجد التي اندثرت بالكلية والتي تحدث عنها بتفصيل الأستاذ عبد القدوس الأنصاري الذي اعتمدنا عليه في هذه المعلومات.

ومن الأماكن الأثرية التاريخية التي سمعنا بها أثناء دراستنا للسيرة النبوية وسيرة الخلفاء الراشدين ماكان يدعى بسقيفة بني ساعدة التي جلس فيها النبي ﷺ والتي كانت فيها بيعة أبي بكر الصديق بالخلافة بعد وفاة رسول الله وكانت تقع قرب بئر بضاعة، ولقد اندثرت كلية.

وتحدثنا السيرة النبوية ان رسول الله ﷺ عندما كان داخلا المدينة اثر هجرته من مكة، تلقاه الولدان الصغار ينشدون هذا النشيد الذي لازال يحفظه الجميع، وهو :

طلع البدر علينا   من ثنية الـــوداع
وجب الشكر علينا   مادعا للـــه داع
أيها المبعوث فينا   جئت بالأمر المطاع

فما هي ثنية الوداع ؟ وأين تقع ؟ ان الثنية في اللغة العربية، معناها الطريق في الجبل، وتقع في شامي المدينة، بين مسجد الراية، ومشهد النفس الزكية قرب (سلع).

ويقول الأستاذ الأنصاري : ان على الصعيد (الهضبة) التي بشرقي ثنية الوداع الشامية، ثكنة عسكرية.. وان هناك ثنية أخرى يمكن أن تكون هي ثنية الوداع ويقول الأستاذ الأنصاري كذلك في كتابه عن آثار المدينة صفحة (135) ان حفريات وقعت في المدينة، وأثبتت ان المدينة الآن غير المدينة القديمة، وان البيوت الحالية مبنية فوق البيوت القديمة، وانه أثناء الحفريات المشار إليها، وجدت بعض آثار الأولين من الأبنية وبقايا الأثاث، وانه في سنة (1352) بينما كان العمال يحفرون أساس القسم الشمالي لمدرسة العلوم الشرعية الواقعة بقرب باب النساء إذ عثروا بعد عمق أربعة أمتار على مصباح زيت قديم، كما أن العمال بينما كانوا يحفرون إذا انفتحت لهم هوة كشفت عن بيوت، سقوفها تحت طبقة الأرض، فنزلوا إليها، ووجدوا بها ثيابا معلقة على حبال، ومع بلاها فإنها كانت محتفظة بهندامها متماسكة بحكم الرطوبة، وعدم تخلل الهواء للغرف الموجودة بها، ولكن بمجرد لمس العمال إياها، تناثرت كما يتناثر الرماد، وتساقطت تساقط الأجساد المحنطة إذا مستها يد، إلى آخر ما ذكر..

وادي العقـــيق

تحدث الأدباء والشعراء والمؤرخون عن وادي العقيق وما مر فيه من ازدهار ومتع وحفلات، وما كان فيه من قصور وتنزهات، وكيف كان في عصر من العصور مطمح أنظار الخلفاء والأعيان والشعراء والمترفين.

فما هو وادي العقيق ؟ وأين موقعه ؟ ولماذا سمي بهذا الاسم ؟

وادي العقيق، وادي يقع غربي المدينة كان فيه من المزارع الفسيحة، والحدائق الشهيرة، والقصور الشاهقة، والرياض الأنيقة، الشيء الكثير، وسمي بهذا الاسلام لأنه عق في الحرة، أي شق وقطع فيها، وذكر ياقوت، ان اسم العقيق عمومي لكل مسيل ماء، شقه السيل فانهره ووسعه، وذكر ياقوت

أيضا[1] : حاكيا عن السمهودي ان تبعا لما مر بالعقيق قال : (هذا عقيق الأرض) وذلك، بعد أن مر بالعرصة التي كانت تسمى بالسليل من العقيق نفسه، فقال عنها : هذه عرصة الأرض.

ووادي العقيق يبعد عن المدينة بنحو ثلاثين دقيقة مشيا متوسطا، وورد في الحديث الذي رواه البخاري عن عبد الله بن عمر قال : سمعت رسول الله ﷺ بوادي العقيق : أتاني الليلة آت من ربي فقال : صل في هذا الوادي، وقل عمرة في حجة وروى عامر بن سعد أن رسول الله ﷺ، ركب إلى العقيق ثم رجع فقال : ياعائشة، جئنا من العقيق، فما ألين موطنه، وأعذب ماءه، فقلت يارسول الله، أفلا ننتقل إليه ؟ قال : وكيف ؟ وقد ابتنى الناس ؟

(وكتب سعيد بن العاص عامل معاوية على المدينة إلى عبد الأعلى بن عبد الله ومحمد بن صفوان الجمحي وهما ببغداد يصف لهما طيب وادي العقيق في أيام الربيع فقال :

الا قل لعبد الله اما لقيته	وقل لابن صفوان على القرب والبعد
ألم تعلما أن المصلى مكانه	وان العقيق ذو الاراك وذو المرد
وان رياض العرصتين تزينت	بنوارها المصفر والأشكل القرد
وان بها لو تعلمان اصائلا	وليلا رقيقا مثل حاشية البرد
فهل منكما مستأنس فمسلم	على وطن أو زائر لذوي الود

فأجابه عبد الأعلى :

أتاني كتاب من سعيد فشاقني	وزاد غرام القلب جهدا على جهد
وادرى دموع العين حتى كأنها	بها رمد عنه المراود لا تجدي
فإن رياض العرصتين تزينت	وان المصلي والبلاط على العهد
وان غدير اللابتين ونبتة	له أرج كالمسك أو عنبر الهند
فكدت بما اضمرت من لاعج الهوى	ووجد بها قد قال اقضى من الوجد
لعل الذي كان التفرق أمره	يمن علينا بالدنو من البعد

(1) معجم البلدان عن : آثار المدينة للأنصاري ص 158.

(2) مرآة الحرمين جزء أول ص 434.

فما العيش الا قربكم وحديثكم إذا كان تقوى الله منا على عمد

ويتشوق أحد الشعراء إلى العقيق، وهو عبد السلام بن يوسف فيقول :

على ساكني بطن العقيق سلام وان اسهروني بالفراق وناموا
حظرتم على النوم وهو محرم وحللتم التعذيب وهو حرام
إذا بنتم عن حاجري وحجرتم على السمع أن يدنو إليه كلام
فلا ميلت ريح الصبا فرع بآنه ولا سجعت فوق الغصون حمام
ولا قهقهت فيه الرعود ولا بكى على حافتيه بالعشي غمام
فما لي وما للربع قد بان أهله وقد فوضت من ساكنيه خيام
الا ليت شعري هل إلى الرمل عودة وهل لي بتلك البانتين لمام(1)
وهل نهلة من بئر عروة عذبة أداوي بها قلبا براه أوام(2)
الا يا حمامات الأراك اليكمو فمالي في تغريدكُنَّ مرام
فوجدي وشوقي مسعد ومؤانس ونوحي ودمعي مطرب ومدام

لقد كانت بوادي العقيق قصور عديدة لم يبق منها الا تلول متسلسلة على جانبي المسيل، ويحسبها الناظر إليها من بعيد، وكأنها كثبان رملية في أطراف الوادي، ولقد قال عنها محمد بن عبد الله البكري قاضي المدينة :

أين أهل العقيق أين قريش أين عبد العزيز وابن بكير
ولو أن الزمان خلد حيا كان فيه يخلد ابن الزبير

إن وادي العقيق كان في سابق عهدهِ عبارة عن جنات تجري من تحتها الأنهار : بساتين جميلة، وقصور عالية، ومياه متدفقة، وظلال وارفة وكأن الساكنين فيه في نعيم مقيم، اما اليوم فيقول الأستاذ عبد القدوس الأنصاري (انه توجد فيه مزارع وبساتين متفرقة، لا تكاد تذكر بالنسبة لاتساع رقعته، وصلاح تربته، وأهمها ما يقع بقرب ذي الحُليفة شمالا وجنوبا، وتعرف بمزارع الاحساء، لقرب الماء من ظاهر الأرض في تلك البقاع) ولقد زار وادي العقيق هذا أمير البيان، شكيب أرسلان، فتحدث عنه في رحلته التي أسماها : (الارتسامات اللطاف، في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف) قال : (وسيد الاعقة كلها، عقيق

(1) البانتيين ضرب من الشجر، وَاحِدَتُهُ : بانة.
(2) الاوام : حر العطش.

المدينة المنورة، وهو الذي يدور ذكره على السنة الشعراء وإذا قيل : العقيق وحاجر، اشتد الشوق وسالت الدموع من المحاجر، وقد تنزهت فيه، ونشقت طيب هوائه، ورشقت من عذب مائه، وهو على مسافة ساعة من المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى التحية، وفيه بئر عثمان بن عفان — رومة — وبئر عروة بن الزبير، رضي الله عنهما، وقد كانت لنا أيام، زرت المدينة قبل الحرب العامة بسنة، قيلات كثيرة على بئر عروة المشهورة بخفة مائها، والتي كان يرسل بمائها إلى هارون الرشيد، قال الزبير بكار : رأيت أبي يأمر به، فيغلي، ثم يجعله في القوارير ويهديه إلى الرشيد وهو بالرقة، هذا وقد كنت أشعر عند بئر عثمان، من انشراح الصدر، وانفساح الفكر، ما لا أشعر به في مكان آخر، حتى اني أردت مقابلة أعيان المدينة المنورة الكرام، على حفاوتهم بي، والمكارم التي أظهروها، والآداب التي اتخذوها، فدعوت منهم خمسين أو ستين شخصا إلى مأدبة اخترت لها بئر عثمان التي قال فيها النبي ﷺ : (نعم القليب، قليب المزني) وهي البئر التي كانت تسمى من قبل : بئر رومة، (بضم فسكون) كانت لرجل غفاري، يقال ان اسمه رومة، فلما أعجبت رسول الله ﷺ، اشتراها عثمان بخمسة وثلاثين ألف درهم، وتصدق بها على المسلمين، وقال مصعب بن الزبير يذكر بئر رومة ويتشوقها وهو بالعراق.

أقول لشابت والعين تهمي	دموعا ما انتهنها انحدارا
اعرني نظرة بقرى دجيل	تحايلها ظلاما أو نهارا
فقال أرى برومة أو بسلع	منازلنا معطلة قفارا

ولم تكن جميع المنازل وقتئذ بالعقيق معطلة قفارا، بل كانت تلك الديار عامرة، وكانت حولها الجنان ناضرة، ولا تزال آثار العمارة هناك ظاهرة، ومنها آثار قصر عروة بن الزبير، وقصر سعيد بن العاص وغيرهما، وإذا زخر عمران يثرب يوما من الأيام، فلابد من أن تتصل المنازل من البلدة إلى العقيق).

لقد كتب الأمير شكيب أرسلان هذا الذي نقلته عنه في شهر ذي الحجة سنة 1349 هجرية، فذكر في آخر ما كتب حول وادي العقيق بأنه إذا زخر عمران يثرب يوما من الأيام، فلابد من أن تتصل المنازل من البلدة إلى العقيق، ويتراءى لي وأنا أحرر هذا في شهر ذي الحجة عام 1413 أي بعد أزيد من

ستين عاما من كتابته رحمه الله ان المدينة المنورة صارت تتجدد وتكبر، ويمتد عمرانها من الشرق والغرب، فهل سيعيد التاريخ نفسه ليتجدد وادي العقيق، ويسترجع عمرانه وحياته كما كان من ذي قبل ؟ وان كان التعليق الذي علقه العلامة الشيخ رشيد رضا حول موضوع عمران المدينة بأنه من اشراط الساعة، آتيا بحديث رواه الامام مسلم في اشراط الساعة من أن منها عمران المدينة وأن النبي ﷺ قال : (تبلغ المساكن إهاب أو ايهاب) وإهاب على بعد عدة أميال من المدينة، فاللهم لطفك.

وداع مدينة الرسول

أربعة أيام بلياليها قضيناها بالمدينة المنورة، لم نضيع فيها أغلب أوقاتنا فكنا نقصد مسجد رسول الله ﷺ لأداء الصلوات الخمس المفروضة علينا، وننعم بالسلام على سيد الخلق أجمعين، صلوات الله وسلامه عليه في كل وقت وحين، وكان اليوم الثالث لمقامنا بالمدينة، هو اليوم الأخير من شعبان أي يوم الثلاثين منه، واستغربنا غاية الاستغراب عندما سمعنا عن طريق الاذاعة والتلفزة بلاغا من الهيأة العليا للشؤون الدينية، يدعو إلى مراقبة الهلال وإثبات رؤيته، حتى يثبت دخول شهر رمضان ثبوتا قطعيا فلربما تكون أخطاء وقعت في شهر رجب، فلم يثبت في آخره ثبوتا قطعيا دخول شعبان، وهكذا بعد أدائنا لصلاة المغرب يوم الثلاثين بقينا ننتظر البلاغ الذي سيعلن دخول شهر رمضان أو عدم دخوله، ولكن لم تمض إلا ساعة من الزمان حتى أذيع بلاغ يؤكد دخول شهر رمضان في يوم الاثنين 22 مارس 1993 بينما لم يصم إخواننا في المغرب إلا يوم الثلاثاء 23 مارس 1993.

لقد قضينا اليوم الأول من شهر رمضان صائمين بالمدينة وفي اليوم الثاني منه أدينا صلوات الصبح والظهر والعصر بمسجد الرسول، ثم ودعنا المسجد النبوي والرسول الأمين عليه السلام عازمين على الاحرام من الميقات الذي أحرم منه الرسول عليه السلام في حجة الوداع، وهو ميقات ذي الحليفة أو آبار علي، على ما هو معروف اليوم.

ودعنا مقام الرسول عليه السلام، ونحن في منتهى الحسرة والحزن وألم

الفراق، فالحياة قرب الحبيب محمد عليه الصلاة والسلام لا تعادلها حياة، والصلاة في مسجده تزيد المومن إيمانا، والمدينة المنورة مدينة جذابة، فهي مهاجر رسول الله ﷺ وموطن أنصاره الذين بوؤوه الدار والايمان، وهي مهد الاسلام، ومركز إشعاعه على العالم، وهي عاصمة المسلمين الأولى التي انطلقت منها الدعوة إلى الله إلى مختلف بقاع الأرض، وفيها قضى رسول الله ﷺ فترة تركيز الوجود الاسلامي، وتوضيح معالم المجتمع الاسلامي، كيف ينبغي أن يكون، أو كيف يكون تعامله مع المسلمين وغير المسلمين. ومنها انطلقت البعوث تدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وتنشر بنود الأمن والأمان في كل مكان ودعنا رسول الله ﷺ في قبره ومثواه، ثم أجلنا الطرف داخل المسجد النبوي لنودع جموع المسلمين التي وردت على الحرم النبوي للصلاة فيه، والسلام على الرسول الأمين عليه السلام، وردت من جميع أنحاء العالم الانساني : من افريقيا وآسيا وأوربا وأمريكا : ألوان مختلفة، وسحنات متباينة، ولغات متعددة، وكل الحاضرين تجمعه كلمة التوحيد : (لاإله إلا الله، محمد رسول الله) فهم جميعهم على اختلاف أجناسهم، وتباين أصولهم وتعدد أوطانهم، وابتعاد بلدانهم، يشعرون شعورا حقيقيا دفينا انهم إخوة، لا يفرق بينهم تعدد الأوطان، ولا تباعد المسافات، ولا اختلاف اللغات، ولا تباين الألوان والسحنات، فيهم الأبيض والأسود والأسمر، فيهم الذكر والأنثى، فيهم الصغير والكبير، فيهم الغني والفقير، فيهم الحاكم والمحكوم، وكلهم أتى لهذا الحرم الشريف، ليقر لله بالوحدانية، ولسيدنا رسول الله ﷺ بالرسالة وليأخذوا العبرة من زيارتهم لهذه المدينة التي آوت رسول الله وعزرته ونصرته واتبعت النور الذي أنزل معه، فكانت الحرم الأمين لرسول الله ﷺ، وكانت العاصمة الأولى لدولة الاسلام، وكانت وستبقى دائما المنبع والملجأ الذي يقصده المسلمون من كل أنحاء المعمور، ليستمدوا من نور النبوة، ولتستضيء قلوبهم بنور الايمان والصدق واليقين، الذي أتى به من ربه سيد الأنام عليه الصلاة والسلام.

وتذكرت وأنا أجول بطرفي في تلك الجموع الغفيرة من المسلمين، متجهة بكل كياناتها إلى القبلة، مقرة بحقيقة التوحيد، مصدقة بما أتى به رسول الوحدة والتوحيد، تذكرت زيارة لي سابقة في شهر رمضان أيضا، انني كنت جالسا في

مصطبة الأغوات (عبيد الحرم) وهي المكان الذي كان مخصصا لأهل الصفة (بضم الصاد وتشديده، وفتح الفاء وتشديدها)، وكان الوقت عشية، ونحن في انتظار صلاة المغرب، والمسجد غاص بالمومنين الصائمين القانتين الساجدين، وإذا بصوت يعلو، مستفتحا بأعوذ بالله من الشيطان الرجيم (بسم الله الرحمن الرحيم، والضحى والليل إذا سجى، ما ودعك ربك وما قلى، وللآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترضى) كان الصوت صوت شيخ المقرئين المرحوم الحصري وكان المستمعون والمنصتون كأن على رؤوسهم الطير، ووصل المقرئ إلى قوله تعالى :

(ما ودعك ربك وما قلى، وللآخرة خير من الأولى، ولسوف يعطيك ربك فترضى) فصرت أتأمل في هذه الآيات الكريمات وكأني لا أحفظها، وكأني لم أسمعها، كان لسماعي الشيخ الحصري يتلو هذه الآيات، وقع خاص في نفسي، وتأثير عميق في وجداني.

فالكلام كلام الله تعالى، والمكان مسجد رسول الله ﷺ، والرسول العظيم في مثواه الأخير داخل الروضة الشريفة، وروحه عليه السلام تتمتع في الملأ الأعلى، ولاشك أنها بدورها تنصت للتالي يتلو الآيات المحكمات النازلة في حقه عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، والحق سبحانه يقسم بالضحى والليل إذا سجى انه ما ودعه عليه السلام وما قلاه أي ما تركه وأبغضه، كما قال ذلك أعداء الدين من المشركين، وانه سبحانه اختار له الآخرة لأن الدوام لا يكون إلا لله الواحد الأحد الباقي، ولأن ما أعد له عليه السلام في الآخرة من الخير والكرامة والجزاء، أفضل وأعظم مما أعطاه في الدنيا، وأنه وإن كان رعاه وآواه في يتمه، ووفقه وهداه في حياته، وأغناه وأمده رغم فقره، فإنه مأمور أن يأخذ الدرس من حياته، فلا يقهر يتيما ولا يظلمه، ولا ينهر مسكينا ولا يزجره، لقد أعطاه فأرضاه بما لم يرض به سواه، فما عليه إلا أن يشكر النعمة، ويتحدث بها، فمن لم يشكر النعمة، فقد يتعرض لزوالها. لقد كانت معاني هذه الكلمات القرآنية، تتوارد على ذهني تواردا خاصا متلاحقا، قبل أن أرجع إلى التفاسير لأزيد تفهما لها، وكان الزمان والمكان يزيدانها إشراقا في قلبي، ووعيا خاصا في نفسي، وكان الشيخ الحصري كعادته يكرر الآيات المرة والمرتين والثلاث، فمهما أعاد

القراءة، الا ويزداد إشراق قلبي وحبي وتعلقي بسيد الكائنات، الذي أعطاه ربه فأرضاه وحباه واجتباه. فما هذه الجموع الغفيرة الكثيرة المتجهة إلى القبلة في هذه الساعات القدسية، والتي تعتبر من جنوده وأتباعه، والتي دانت لله العلي الأعلى بسبب دعوته ورسالته، ما هذه الجموع إلا من عطاء الله له، ورضوانه عنه، وما الخصائص التي خصه الله بها، إلا نفحات من نفحات الله أكرمه بها، وما دعوته التي عمت بقاع الأرض كلها، سهلها وجبلها، قريبها وبعيدها، إلا علامة على رضاء الله عنه، ومحبته له عليه السلام، ولقد روى ابن عباس عن أبيه قال : أُري (بضم الهمزة وكسر الراء) النبي ﷺ ما هو مفتوح على أمته، فسر

بذلك، فأنزل الله عز وجل والضحى إلى قوله تعالى : ولسوف يعطيك ربك فترضى، وجاء عن علي كرم الله وجهه قال : قال رسول الله ﷺ : يشفعني الله في أمتي، حتى يقول الله سبحانه لي : رضيت يامحمد ؟ فأقول يارب رضيت، وفي صحيح الامام مسلم عن عبد الله بن عمر بن العاص، أن النبي ﷺ، تلا قول الله تعالى في إبراهيم : (فمن تبعني فإنه مني، ومن عصاني فإنك غفور رحيم) وقول عيسى : (ان تعذبهم فإنهم عبادك) فرفع يديه وقال : اللهم أمتي أمتي ويكي فقال الله لجبريل : اذهب إلى محمد، وربك أعلم، فسله ما يبكيك ؟ فأتى جبريل النبي ﷺ، فسأله، فأخبره، فقال الله تعالى لجبريل : اذهب إلى محمد، فقل له : ان الله يقول لك : انا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك، وجاء في حديث آخر : لما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ : إذا والله لا أرضى وواحد من أمتي في النار.

إنها مكرمة كبيرة ان الله سبحانه أعطاه وأعطاه حتى أرضاه ويرضيه، وكل عطاء لابد له من جزاء، وليس جزاء العطاء إلا الشكر، ولذلك فإنه بعدما أعطاه وأرضاه، أمره أن يشكر النعمة، وأن يبوح ويتحدث بها وعنها، ففي الأثر المرفوع إلى رسول الله ﷺ : من لم يشكر القليل، لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس، لم يشكر الله، والتحدث بنعمة الله شكر، وتركه كفر، والجماعة رحمة، والفرقة عذاب، ويرى بعض العلماء كما روي ذلك الامام ابن القيم : (ان التحدث بالنعمة المأمور بها في هذه الآية : هو الدعوة إلى الله، وتبليغ رسالته، وتعليم الأمة) وكل ذلك قام به وأداه سيدي رسول الله ﷺ، فلقد بلغ الرسالة،

وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، لقد وضح معالم الطريق لأمته، لتعبد الله حق العبادة، ولتعيش في هذه الحياة الدنيا، عيشة العزة والكرامة والجهاد والنضال لاعزاز كلمة الحق والدين، ولتتبوأ الأمة الاسلامية المكانة اللائقة بها، كخير أمة أخرجت للناس، تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتومن بالله، فيسود الحق والعدل والاستقامة في المعمور، ويعيش بنو الانسان، كل بني الانسان، في بحبوحة الحرية والكرامة والهناء والسلام، فالاسلام دين الحق والسلام، وشعار المسلمين وتحيتهم في كل الظروف والأحوال، كلمة «السلام» ولا يتحقق السلام، إلا بنشر العدل بين الناس أجمعين، والقرآن يقول : (والعصر إن الانسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وتواصوا بالحق، وتواصوا بالصبر) فالتواصي بالحق والصبر، من واجبات المسلمين في كل عصر وحين، (ليكونوا شهداء على الناس، ويكون الرسول عليهم شهيدا) فالمسلمون الحقيقيون، شهداء على الناس أجمعين، والرسول الأعظم عليه السلام شهيد عليهم، هل أدوا الأمانة ؟ وبلغوا الرسالة التي تلقوها عن رسولهم، وجاهدوا في الله حق جهاده، لتكون كلمة الله هي العليا ؟ هل بروا ووفوا بالعهود التي قطعوها على أنفسهم عندما أشهدوا الله بأنهم معترفون ومصدقون برسالة رسولهم، فكانوا (أشداء على الكفار، رحماء بينهم) ؟ هل تدبروا الآيات القرآنية التي يتلونها في كتابهم المنزل على رسولهم، والتي يقول الله فيها : (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيئين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا، والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس، أولئك الذين صدقوا، وأولئك هم المتقون) والآية الأخرى التي تقول : (إنما المومنون الذين آمنوا بالله ورسوله، ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، أولئك هم الصادقون) هل تمعنوا فيما قاله لهم رسولهم ﷺ : (مثل المومنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) ؟ وما قاله أيضا عليه السلام : (المومن للمومن كالبنيان، يشد بعضه بعضا) إن الكثيرين منهم يزورون الرسول في قبره، ليجددوا إيمانهم، ويؤكدوا عهدهم، الا يعلمون أن إخوانهم وأبناء ملتهم في بعض الأقطار

والبلدان يسامون أسوأ أنواع العذاب، ويقاسون الكثير من الأهوال، فيقتلون ويذبحون، وتغتصب بناتهم وفتياتهم، ويسلط عليه شرار الخلق على الاطلاق في كثير من أنحاء الأرض، في البوسنة والهرسك المجاهدة في فلسطين الشهيدة، ولبنان الجريحة، وفي كشمير المظلومة، وفي الهند المتعصبة، وفي الفلبين الحاقدة، وفي بورما البائسة وفي أريتريا المكافحة، وفي الصومال الجائعة، وفي قبرص التركية، وفي ألمانيا المتحررة، وفي سيريلانكا المقهورة، وفي جمهوريات آسيا الوسطى المتحررة، وحتى في بعض البلاد الاسلامية التي يحكمها منتمون إلى الاسلام، ولكن همهم الوحيد تطبيق ما يقرره أعداء الاسلام واضطهاد الجماعات الاسلامية إلى غير ذلك من الأقطار والبلدان.

المسلمون يقصدون البيت الحرام، والبلد الحرام، ومسجد الرسول عليه السلام، ليؤدوا واجبهم الديني، وينعموا بالسلام على رسولهم المجتبى عليه السلام، ولكن كيف يكون موقفهم من رسولهم لو قدر لهم أن يخاطبوه ويخاطبهم، ويكلموه ويكلمهم، ماذا عساهم يقولون له عن مواقفهم إزاء ما يتعرض له إخوانهم من محن وآلام وعذاب، بسبب عقيدتهم ؟ ماذا عساهم يجيبون به ؟ وقد حذرهم كل التحذير مما حل بهم من تواطؤ الأعداء ضدهم، بسبب الوهن الذي حل بهم نتيجة حبهم للدنيا وكراهيتهم للموت، لقد أصبحوا رغم كثرة عددهم، غثاء كغثاء السيل، لا يأبه بهم أحد، ولا تهابهم أية دولة، ولا يحسب لهم أي حساب، يستغيثون بالمتآمرين عليهم، ويخضعون لقرارات أعوانهم في المجالس والهيآت الدولية، لقد أصبحوا أذيالا بعد أن كانوا رؤوسا، أمسوا تابعين، بعد أن كانوا متبوعين، نسوا أن العزة التي كتب الله لهم، كان عليهم أن يحرسوها ويدافعوا عنها ويستميتوا في سبيلها (ولله العزة ولرسوله وللمومنين) لقد غفلوا عن حقيقة إيمانهم ونسوا أن البر والطاعة ليسا في الاتجاه نحو المشرق والمغرب فحسب، ولكن البر بالعمل الصالح والوفاء بالعهد، والصبر في البأساء والضراء، ومناصرة المظلوم والمقهور والمعتدى عليه من الجبابرة والمستكبرين.

كان الواجب على كل من يزور الأماكن المقدسة وفي طليعتها الحرم النبوي الشريف، أن يراجع نفسه وهو يسلم على رسول الله ﷺ، ويشهد بأنه عليه

السلام أدى الأمانة وبلغ الرسالة، وجاهد في الله حق جهاده، كان الواجب أن يفكر بجد في المسؤوليات الملقاة على عاتقه باعتباره مسلما، نحو نفسه ودينه وعقيدته ووطنه وإخوانه، حتى يصمم العزم على أن يقوم بواجبه كما قام به رسوله عليه السلام، فيعمل كما عمل، ويجاهد كما جاهد، ويضحي كما ضحى، ويدعو كما دعا، كان الواجب عليه أن يغتنم كل فرصة ممكنة له، ليوطد العزم على الدفاع عن المظلومين والمقهورين من إخوانه المسلمين، وان يساعدهم ويمد لهم العون بكل ما يستطيعه من قوة وجهد، حتى تعلو كلمة الحق، ويقهر الظلم والظالمون (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون) أتمنى أن يغير المسلمون حكاما، ومحكومين ما بأنفسهم حتى يغير الله ما حل بهم، فلقد قرر سبحانه وهو القادر المختار، الفعال لما يريد، قرر أنه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، فليغتنم المسلمون الذين يقصدون الديار المقدسة، ويتلاقون في المسجد الحرام، ومسجد الرسول عليه السلام، فرصة وجودهم هناك، ليكاشفوا أنفسهم، ويراجعوا حقيقتهم، ويقتدوا بسلفهم الصالح من الصحابة والتابعين في العمل لصالحهم وصالح إخوانهم، وصالح مجتمعهم والمجتمع الانساني جميعه، وليعملوا لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا هي السفلى، وليؤكدوا أنهم أمة واحدة مسلمة، تتكافأ دماؤها لنصرة المسلمين في كل مكان ولينصرن الله من ينصره.

الطريق إلى مكة المكرمة

آذن وقت وداع المدينة المنورة على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم، فجمعنا رحيلنا، وشددنا حقائبنا، ناوين الاتجاه إلى مكة المكرمة، لأداء سنة العمرة، والطواف حول الكعبة المشرفة، والسعي بين الصفا والمروة. وكان الاتجاه أول مرة، سيكون بالطائرة التي ستقلنا إلى جدة، ثم نأخذ السيارة إلى مكة، ولكنا عدلنا عن هذا الاتجاه، وعزمنا أن نسلك الطريق التي سلكها سيدنا رسول الله ﷺ في حجة الوداع، فنحرم من الميقات الذي أحرم منه، عليه السلام، ونلبي من المكان الذي لبى منه. ونصلي ركعتين في المسجد الواقع في الميقات الذي وقته رسول الله ﷺ. كان الوقت عصرا، فأدينا صلاة العصر في الحرم النبوي، وسلمنا على الرسول الأمين عليه السلام، متأسفين على فراق مدينة الرسول وتالين قول الرب العظيم في كتابه الكريم : (ان الذي فرض، عليك القرآن لرادك إلى معاد)، مؤملين من الذي لا يخيب من قصده بصدق ويقين، أن لا يكون آخر عهد بزيارة الرسول والسلام عليه في قبره، مرات ومرات إن شاء الله، واكترينا سيارة خاصة جديدة، تنقلنا برعاية الله إلى مكة المكرمة.

سارت بنا السيارة بسم الله مجراها ومرساها، قاصدة أولا (ذا الحليفة) أو (آبار علي) التي هي ميقات أهل المدينة، وميقات الذين يودون أن يؤدوا الحج أو العمرة، عن طريق المدينة من غيرهم، وهي تبعد عن المدينة بنحو عشرين كيلومترا، وبها مسجد كان يسمى مسجد الشجرة، وهو مسجد كبير، معتنى به غاية الاعتناء، سواء من حيث النظافة أو من حيث الفرش، وفي جانبه الأيسر بنيت حمامات (دوشات) في منتهى النظافة ووجود المياه، وفي هاته الحمامات يغتسل المعتمرون أو الحجاج الذي ينوون أداء العمرة أو الحج، ومن المسجد يقع الاحرام بصلاة ركعتين ثم التلبية، بعد تغيير الملابس، ولباس الاحرام الذي هو الرداء والازار، ومن مكان هذا المسجد أحرم سيدنا رسول الله ﷺ، فغسل،

ثم طيبته أم المومنين عائشة رضي الله عنها بذريرة طيب (الذريرة : خليط من الطيب) فيه مسك، ثم لبس إزاره ورداءه وصلى ثم أهل بالحج والعمرة، وهو ما يسمى بالقِرَان، لأن الحج إما أن يكون بالافراد أو بالتمتع أو بالقران، قال عبد الله بن عباس رضي الله عنه :

(وأيم الله، لقد أوجب في مصلاه (أي عمل عملا يستوجب له الجزاء الجنة) وأهل حين استقلت به الناقة، وأهل حين علا شرف البيداء، وكان يهل بالحج والعمرة، وبالحج تارة، لأن العمرة جزء منه فمن ثمة قيل : قرن، وقيل : تمتع، وقيل : أفْرَدَ ثم لبى فقال : (لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك) ورفع صوته بهذه التلبية، حتى سمعها أصحابه، وأمرهم بأمر الله له، أن يرفعوا أصواتهم بالتلبية).

اقتدينا بسيدنا رسول الله ﷺ، فأحرمنا من حيث أحرم، فغيرنا ملابسنا، ولبينا رافعين أصواتنا، ناوين أداء سنة العمرة.

الإحرام في الميقات

ومن المعلوم أن إحرام الحجاج والمعتمرين من المواقيت التي بينها رسول الله ﷺ يعد من الواجبات المفروضة، لا يجوز تغييرها أو استبدالها إلا لموجب شرعي مقبول، فلقد جاء في صحيحي البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال :

(ميقات أهل المدينة ذو الحليفة، وميقات أهل الشام الجحفة، وميقات أهل نجد قرن المنازل، وميقات أهل اليمن : يلملم، هُن لهن ولمن أتى عليهن من غير أهلهن ممن أراد الحج والعمرة ومن كان دون ذلك، فمن حيث أنشأ، حتى أهل مكة من مكة) وروى البخاري أيضا عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : لما فتح هذا المصران (العراق ومصر) أتوا عمر، فقالوا : ياأمير المومنين : ان رسول الله ﷺ حد لأهل نجد، قرنا، وهو جور عن طريقنا، وإنا إن أردنا «قرْنا» شق علينا، قال : فانظروا حذوها من طريقكم، فحد لهم (أي لأهل العراق) (ذات عرق).

فيستفاد مما رواه البخاري ومسلم أن النبي ﷺ بين مواقيت الآتين من المدينة ومن الشام ومن نجد ومن اليمن، وقال عليه السلام : هن لهن ولمن أتى عليهن من غير أهلهن ممن أراد الحج والعمرة، ثم بعد توالي الفتوح في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه استفتاه المسلمون الذين يأتون من أصقاع أخرى لم يحد لها رسول الله ميقاتا لأنها لم تكن فتحت للدعوة الاسلامية، فاجتهد رضي الله عنه وقال : فانظروا حذوها من طريقكم، ومن المعلوم أن الناس كانوا يقصدون مكة المكرمة عن طريق الدواب من الابل والخيل والحمير، وكان البعض يقصد الديار المقدسة راجلا، فكان من الطبيعي أن يمر الحجاج أو المعتمرون من الطرق والمواقيت التي حددها وعينها رسول الله ﷺ، وكان الواجب المفروض أن يكون الاحرام منها، ولكن اليوم، وقد تغيرت الظروف ظهرا على عقب، فصار الحجاج يتواردون على البيت الحرام من كل أنحاء المعمور، لا من البلدان التي ذكرت بالتخصيص، وتعددت وسائل المواصلات فلم تبق الدواب والأرجل كما كانت من ذي قبل، واستبدلت بالسيارات والبواخر والطيارات، وإذا كانت السيارات يتيسر ان تمر على المواقيت المحددة لأهل الأقطار المذكورة في الحديث، وإذا كان الحديث النبوي نص بالصراحة والوضوح على أن تلك المواقيت هي لسكان تلك الأقطار، ولمن أتى عليها من غير سكانها، فما هي المواقيت لمن لم يسلك في طريقه إلى الحج أو العمرة الطرق البرية ؟ وقصدها على متون الطائرات التي لا يمكن أن يقال أنها تمر بأي ميقات من تلك المواقيت التي حددها رسول الله ﷺ، بل تكون بعيدة عنها بكثير من الأميال أو الكيلومترات.

إننا نلاحظ ــ والله أعلم ــ أن رسول الله ﷺ، عندما حدد وعين المواقيت المذكورة لأهل البلاد المذكورة، كان يعرف المسالك والطرق التي كان يسلكها المسافرون إلى مكة، وكان يعرف أنهم يمرون من الأمكنة التي عينها لإحرامهم، وكان يعرف أنها صالحة للدخول في الإحرام طبق السنة التي وضحها عليه السلام من الغسل والصلاة وتغيير الملابس طبق ما فعله ﷺ بنفسه في ذي الحليفة لدى قصده أداء حجة الوداع، فكيف يفعل كل هذا ركاب الطائرات ؟ وكيف يصلون إلى المواقيت المحددة التحديد القاطع ؟ لقد اجتهد بعض

علمائنا الاعلام، فأفتوا بأن ركاب الطائرات عندما تكون طائرتهم محلقة في السماء، ويشعرون بأنهم في المناطق التي توجد بها المواقيت المعينة أي محلقين فوقها، يدخلون في ذلك الوقت بالاحرام، ويلبون ويكبرون، ونحن لا ننكر على حضرات العلماء فتاواهم واجتهاداتهم فيما راوه.

ولكنا نرى أن أمثال هؤلاء يمكن أن يتأخر إحرامهم إلى مكان موطئ الطائرات، كجدة مثلا، حيث يتيسر الدخول في الاحرام بالطرق المنصوص عليها من غسل وتطيب وتنظيف وصلاة، مثل ما فعل رسول الله ﷺ دون حرج ودون تعب لا لهم ولا لربابين الطائرات والساهرين على راحة الحجاج فيها. ولقد لاحظنا في بعض رحلاتنا إلى الديار المقدسة، أن بعض الحجاج عندما يسمعون مذيع الطائرة يصرح بأنها قريبة من التحليق فوق الميقات، يحدثون فوضى ويتكلفون بما لا تسمح لهم به ظروفهم الخاصة في الطائرة من غسل وغيره، ويقع المشرفون على تسيير الطائرة في حرج كبير، مع أن ديننا يسر والحمد لله وليس فيه حرج، ولا تكليف بما لا يطاق، والحج وهو الركن الخامس من أركان الاسلام، فرض على المسلمين على أساس الاستطاعة، لا على أساس الاحراج.

ومن أجل هذه الاعتبارات كلها، وتيسيرا على الحجاج والمعتمرين طبقا لدين اليسر، فإننا نرى أن الاحرام يمكن أن يتأخر لمطار جدة، حيث الأمور كلها مهيأة التهييء الكافي للقيام بالواجبات والسنن التي يطالب بها الحجاج والمعتمرون وقد أفتى، بهذا بعض علمائنا الاعلام، علمنا من بينهم أخونا المرحوم العلامة السيد عبد الله كنون والعلامة الشيخ عبد الله بن زيد آل محمود رئيس المحاكم الشرعية والشؤون الدينية بدولة قطر وغيرهما، والله يهدي إلى طريق الحق وهو حسبنا ونعم الوكيل.

مَغزى التجرُّد مِنَ المَخيط والمُحيط

دخلنا في الإحرام، بعد تجرّدنا من المَخِيط والمُحِيط، وطفقنا نرفع أصواتنا بالتلبية قائلين : (لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك) وتملكنا شعور خفي، فيه الخشية، وفيه الخوف، وفيه الجلال، تُرى لماذا أمرنا ديننا بهذا التجرد من الثياب عند إحرامنا بالحج والعمرة ؟ ألمجرد التجرد دون حكمة مقصودة ؟ وصارت تساورني الفكرة تلو الأخرى، فليس هناك في التشريع الاسلامي شيء من العبث، وَلَابُدَّ أن هناك حِكماً وغايات من وراء هذا التجرد من الثياب لدى الاحرام، وقبل النطق بالتلبية، لابد أن التشريع الالاهي يرمي إلى خروج الحاج والمعتمِر من الحالة التي أَلِفَاها وعاشا عليها، ليدخلا في حالة أخرى تعبر عن تجرّدهما المطلق من كل ما يُبعدهما عن الاستجابة لربهما، والامتثال لأمر خالقهما والاعتراف بعبوديته، والتأكيد على أنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفؤاً أحد، فلا شريك له من ملكٍ ولا من نبيّ، ولا من إنس ولا من جانّ، ولا من أمير وَلَا من حقير، الأَمْرُ أمرُه، والحُكم حكمُه، هو الظاهر وهو الباطن، وهو القادر وهو القاهر، وهو المتصرف في الأكوان، إليه المرجع، وإليه المصير، وهو على كل شيء قدير، فلا ربَّ سواه، ولا ركوع ولا سجود إلّا لَه وحده دون من عداه، هو الذي دعانا إلى الانابة إليه، فقال : (وَأنيبُوا إلى رَبِّكم وأسْلِمُوا لَه) فها نحن أنَبْنَا إليه وأسْلمنا، وتجرَّدنا مِن حَولنا وقوّتنا، وقصدنا بابَه ملبّين طائعين مُمتثلين، تائبين راكعين ساجدين، رافعين أصواتنا بالدعاء، معترفين بخطايانا، راجين منه وهو الكبير المتعال، أن يتجاوز عن خطيآتنا، ويغفر زلاتنا، ويهدينا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين، وأن يطهر نفوسنا من الأدران والأمراض والأدواء، ويشرح صدورنا للحق والخير والصلاح، حتى نكون آلة خير ودعوة صالحة في هذه الحياة الدنيا،

وأن يجنبنا الرفث والفسوق والجدال، حتى نرجع كيَوْمَ ولدتنا أمهاتنا، مطهَّرين من الذنوب والآثام والعصيان. إننا قد تجردنا من ثيابنا، وعرَّينا رؤوسنا، واتَّشحنا بمآزر الإحرام، تعبيراً خالصاً منا، على أننا عبيد من عباد الله، لا فرق بيننا وبين غيرنا من العبيد، لا فرق بين الأبيض والأسود، ولا بين العربي والعجمي، ولا بين الغني والفقير، ولا بين الأمير والوزير، كلنا من آدم، وآدم من تراب، فإذا كان في هذه الحياة من يرغب في التعالي على خلق الله، ومن يفرق بين الأجناس، ومن يثبّت ويركز الطبقيات، ومن يفاضل بين العباد بالجاه والمال والنفوذ، فإننا نبرأ إلى الله منهم، ونؤمن بما جاء في كتاب الله العظيم الذي قال : (يأيُّها الناس انّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمَكم عند الله أتْقاكم ان الله عليم خبير) إنه لا تفاضُل إلا بتقوى الله، وها نحن قصدْنا باب ربّنا الذي شرح صدرنا للاسلام، وجعلنا على نور من ربنا : نجْأر إليه أن يتوب علينا ويكفر عنا سيآتنا، ويوفقنا لصالح الأعمال والأقوال، ويسلك بنا سبيل الهدى والرشاد ويمتعنا برضاه، ويحسن عاقبتنا في الأمور كلها، ويُجيرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة ها نحن نرفع أصواتنا مع المومنين من إخواننا قائلين (لبيك اللهم لبّيك، لبّيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك).

إن المسلم الحقّ عندما يتجرد من ثيابه ناوياً الاحرام، لا يتجرد جسده فحسب، ولكن تتجرد نفسه من الموبقات، ويرجع إلى ربه تائباً طائعاً، ملبياً دعوة ربه الذي دعاه إلى التوبة النصوح عندما قال : (يأيُّها الذين آمَنُوا تُوبُوا إلَى اللّه توْبَةً نَصُوحاً، عسَى ربّكم أن يكفِّر عَنْكم سيّآتِكم) ومَن مِنّا من لم يُسيئ إلى نفسه ؟ ومَن مِنّا مَن لم يرتكب خطايا في حياته، فهَل سنبقى مُصرّين على الذنوب والخطايا ؟ وهل سنبقى في غفلة ساهين ؟ فالحياة عابرة، ولا يصوغ للمومن أن يَبْقى غافلا عن ربه، لابد أن يتعرف إلى حقيقته كإنسان عبد لربّه، لا حول له ولا قوة إلا بربه، لابد أن يرمي وراء ظهره الغرور والأنانية والكبرياء، فهو عبد من العباد مثل بقية الناس، هو الآن متساوٍ مع إخوانه في لباسه وهيأته، والذي يراه لا يفرق بينه وبين غيره، كيفما كان ذلك الغير، أميراً أو وزيراً أو ذا مال ومتاع، أو فقيراً أو مسكيناً ذا عيال، هو في هيأته هذه، يرفع صوته قائلا : لبيك يارب لبيك، ها أنا

ذا واقف بين يديك، أعترف بعجزي وتقصيري وطاعتي وعبوديتي، فتقبّل مني، وارحم ضعفي، واهدني لما تحبه وترضاه ياأكرم الأكرمين، يارب العالمين، ويتجاوب صوته مع أصوات إخوانه المومنين من حوله، والذي أتوا من كل فج عميق يلبّون مثل تلبيته، ويكبرون مثل تكبيره، ويرفعون أصواتهم بالتلبية والتكبير، فيتردّد صداها في الأجواء العليا، وتخترق أصواتهم السبع الطباق، وتمتلئ القلوب والنفوس بالهيبة والجلال، والايمان واليقين، ويشعر الجميع بأن شعلات من الإيمان والنور أضاءت قلوبهم، وأنارت سريرتهم، وطهرت حقيقتهم، وغيَّرت معالمهم، وبدلت نظرتهم إلى الحياة وإلى الأشياء، وإلى الزمان، فهم في حالة غير حالتهم التي كانوا وعاشوا عليها أحقاباً من الزمان، وهم في ساعات قدسية امتلأت فيها قلوبهم بنور الحق، ونور اليقين، ونور الهدى، حيث استجابوا لنداء ربهم ملبين صادقين، فتألقت نفوسهم، وارتفعت من هذا الحضيض المادي المغري، إلى الملأ الأعلى الطاهر النقي الصافي.

سبحانك ربي ما أعظم شأنك ! ها أنا عبدك واقف بجانب عبيدك، أرجو عفوك وتوفيقك وهدايتك إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين، ورجعت بي ذاكرتي إلى ما قرأته في سيرة رسولنا الأعظم محمد ﷺ عندما كان عليه السلام، واقفا في هذا الموقف الذي أقف فيه، قاصداً مكة المكرمة لأداء حجة الوداع، ومعه مائة ألف من صحابته الكرام، جاءوا من أنحاء شبه الجزيرة رجالا وعلى كل ضامر، جاءوا لينعموا بمصاحبة رسولهم الأمين في أداء فريضة الحج، فيقفون وقفة كلها طهر، وكلها وفاء، وكلها استمساك بالعروة الوثقى، وكلها عهد لرسول الله على أن يؤدوا الأمانة، ويتمسكوا بعقيدة التوحيد، ويحموا شريعة الاسلام من غائلة المغيرين، وينشرون دين الله الخالد في الأرض، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، وتصورت في تلك اللحظات كأن رسول الله ﷺ راكب على ناقته بعد أن أحرم، وتلك الجموع من المومنين محيطة به، فيرفع عليه السلام صوته بالتلبية قائلا : لبيك اللهم لبيك، فيجيبه ذلك الجمع الغفير مرددين : لبيك اللهم لبيك، ويتردد صدى تلك الأصوات المومنة في تلك البيداء القاحلة، وتمتزج تلك الأرواح المومنة الصادقة بروح الذي لا ينطق عن الهوى، والذي دعا إلى

توحيد الله وعبادته، فلبى دعوته الصادقون المفلحون، ففازوا بخير الدنيا وسعادة الآخرة، وكتب الله لهم الحسنى، وأنعم عليه بالنعمة الكبرى حيث ارتضى لهم الاسلام ديناً، وجعلهم من حواريّي سيدي رسول الله، الملبين لتلبيته، المستجيبين لدعوته، الطائفين بطوافه، والساعين بسعيه، والواقفين بعرفات بوقوفه، والنائلين خير الدنيا والآخرة باتباعه ومرافقته، والمرددين معه وهم يطوفون بالكعبة المشرفة : (ربَّنا آتنا في الدّنيا حسَنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) لقد أتاهم الله الحسنات في الدنيا، وأية حسنة تضاهى مرافقة رسول الله بعد الايمان به وبما أتى به، وأية حسنة في الآخرة تضاهى من يشهد لهم رسول الله أنهم كانوا بجانبه، يلبون بتلبيته، ويستجيبون لله الذي دَعاهم لما يحييهم بفضل اتباعهم لتعاليمه وشريعته، وتمنيت أن لو أبقَى سابحاً في مثل تصوراتي لذلك الموقف العظيم الخاشع، وتمنيت أيضاً لو كان التمني ينفع، أنني كنت في زمرة أولئك المومنين، فنعمت بصحبة سيدي رسول الله، وأديت واجبي بجانبه، وجانب صحابته المبشرين، وكنت من خدامه الصادقين، العاملين على نشر رسالته العالمية بالصدق، واليقين، فأنعَم برضاء ربي ورضاء رسوله الأمين عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم. ورجعت إلى الواقع الذي أعيش فيه في تلك اللحظات، فرفعت صوتي ثانية وثالثة قائلا : (لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك) واقتربت من السيارة التي ستقلني مع رفيقايَ : ابني وابن أخي، فامتطيتها وأنا ألبّي، قاصداً قرية صغيرة في الطريق إلى مكة تسمى (مستورة) التي وصلتها قرب أذان صلاة المغرب.

فالحمد لله الذي هداني لِهَذا، وما كنت لأهتدي لولا أن هداني الله.

مُغادرة الميقات في آبار عليّ

امتطينا سيارتنا بعد الدخول في الاحرام ونحن نرفع أصواتنا بالتلبية، متأسين بسيدنا رسول الله ﷺ في رفع صوته وأصوات صحابته الكرام، وإن كنا نختلف عنهم في مركوبنا، فقد كانوا يمتطون الرواحل من الابل، متعرضين لكثير من المتاعب في الطريق، سواء من حيث الحرارة الشديدة القاسية، أو سلوك الطرق الوعرة من كثرة الرمال أحيانا، وتعدد المرتفعات الجبلية الصخرية أحيانا أخرى، بينما نحن نركب سيارة مكيفة، لا نحس داخلها بقساوة الحرارة، ولا نشعر بالمتاعب الطرقية، حيث أن يد الاصلاح أدخلت على الشبكات الطرقية في مختلف أنحاء المملكة العربية السعودية، ومنها الطريق من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة، فأصبح الراكبون مرتاحين أعظم راحة، لا يشعرون بظمأ ولا نصب، ولا يقاسون من الأهوال والمتاعب ما كان يقاسيه السابقون.

لم تكن لدينا خريطة، نتتبع منها المسالك الطرقية المتعددة التي نمر منها، والتي قالوا انها طرق أربعة : (1) الطريق السلطاني، (2) والطريق الفرعي، (3) وطريق الغابر، (4) والطريق الشرقي، وكل هذه الطرق كان يمر منها المسافرون في القديم، وإن كان بعضها أوعر من بعض، ومن هذه الطرق أو من بعضها على الأصح، مر رسول الله ﷺ في رحلاته المتعددة، قبل البعثة وبعدها، فمن خلال تتبعنا للسيرة النبوية نعلم أنه عليه السلام مر في الطريق المؤدية إلى المدينة وهو صغير لم يتجاوز السنة السادسة من عمره، حيث كان قصد المدينة صحبة والدته آمنة للتعرف على أخواله من بني عدي بن النجار، فلقد جاء في سيرة ابن هشام، قال ابن اسحاق، حدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ان أم رسول الله ﷺ آمنة توفيت ورسول الله ﷺ ابن ست سنين «بالأبواء» بين مكة والمدينة، كانت قد قدمت به على أخواله

من بني عدي بن النجار، تُزيره إياهم، فماتت وهي راجعة به إلى مكة[1] كما أنه عليه السلام صحب عمه أبا طالب في رحلته التجارية إلى الشام، ولم يكن سنه يتجاوز الثانية عشرة. ومن المعلوم أن طريق المدينة هي طريق الشام، وقصته في طريقه مع «بحيرا» الراهب معروفة لدى كل الذين اطلعوا على السيرة النبوية، نأتي بها بهذه المناسبة، لما فيها من عبر وارهاصات تتنبأ بنبوة رسول الله ﷺ ورسالته، قال ابن هشام، قال ابن اسحاق : «ثم ان أبا طالب خرج في ركب تاجر إلى الشام، فلما تهيأ للرحيل، وأجمع المسير، صبّ إليه (مال إليه) أو ضبّ إليه (تعلق به وتمسك) رسول الله ﷺ فيما يزعمون، فرق له أبو طالب وقال : لأخرجن به معي، ولا يفارقني ولا أفارقه أبدا، أو كما قال، فخرج به معه، فلما نزل الركب «بُصرى» من أرض الشام، وبها راهب يقال له «بحيرى» في صومعة له، وكان إليه علم النصرانية، ولم يزل في تلك الصومعة منذ قط (أي منذ الدّهر) راهب إليه يصير علمهم عن كتاب فيها، فيما يزعمون يتوارثونه كابرا عن كابر، فلما نزلوا ذلك العام «ببحيرى» وكانوا كثيرا ما يمرون به قبل ذلك فلا يكلمهم، ولا يعرض لهم، حتى كان ذلك العام، فلما نزلوا به قريبا من صومعته، صنع لهم طعاما كثيرا وذلك ـــ فيما يزعمون ـــ عن شيء رآه وهو في صومعته : يزعمون انه رأى رسول الله ﷺ وهو في صومعته في الركب حين أقبلوا، وغمامة تظله من بين القوم، قال : ثم أقبلوا فنزلوا في ظل شجرة قريبا منه، فنظر إلى الغمامة حين أظلت الشجرة، وتهصرت (أي مالت) أغصان الشجرة على رسول الله ﷺ حتى استظل تحتها إلى آخر القصة، وفيها ان «بحيرى» قال لأبي طالب : ارجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر عليه يهود، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغُنه شرا، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم، فأسرع به إلى بلاده[2] فيستفاد من هذا النص ان النصارى وفي طليعتهم رهبانهم، كانوا يعلمون من كتبهم المنزلة، أنه سيظهر نبي مرسل، وكانت له علامات لا يخفى بها، ومنها خاتم النبوة الذي سنتحدث عنه فيمايلي. كما يستفاد من النص أن اليهود منذ كانوا وهم يتربصون الدوائر بنبي الاسلام وأمة الاسلام، كما هو ديدنهم في

---

(1) سيرة ابن هشام، ص 168 جزء أول.

(2) ابن هشام ص 181 و182 جزء أول.

كل زمان ومكان. وصدق الله العظيم : «لتجدن أشدّ الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا». وما مواقفهم وأعمالهم ومكرهم واعتداءاتهم واحتلالهم لأرض فلسطين والقدس الشريف والمسجد الأقصى المبارك إلا أكبر دليل على ما نقول :

لقد ذكرنا أن الرسول الأمين عليه السلام سار في الطريق التي أخذنا في السير فيها أو قريبا منها وهو صغير في سن السادسة، ثم وهو فتى في الثانية عشرة من عمره، وتمر ثلاث عشرة سنة ويبلغ عليه السلام من العمر خمسا وعشرين سنة، فيأخذ نفس المسلك ويسافر على نفس الطريق إلى الشام في تجارة لخديجة أم المومنين قبل زواجه بها، يصاحبه في سفره غلام لها كان اسمه «ميسرة» وفي هذه السفرة، يلاحظ أحد الرهبان واسمه «نسطورا» ما لاحظه الراهب «بحيرا» قبله من اظلال الشجرة له عليه السلام فينزل الراهب من صومعته ليسأل «ميسرة عن هذا الرفيق الذي رافقه، فيجيبه قائلا : هذا رجل من قريش من أهل الحرم، فيقول الراهب : ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي.

وتمضي الأيام والسنون والأعوام، وينزل الوحي على رسول الله ﷺ، ويقوم يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، فيتضايق من دعوته كفار قريش، ويؤذونه أشد الاذايات، ثم يتآمرون ضده ليقتلوه ويفتكوا به، فيومر بالهجرة إلى المدينة، فيأخذ طريقه إلى المدينة بعد أن يمكث في غار ثور ثلاثة أيام متواليات، وغار ثور هذا يقع في طريق المدينة قريبا من مكة تحفه الجبال من الجانبين، وبه عقبة صغيرة، يرتفع إليها الانسان وينحدر منها وطريق وعرة جدا. ويقول عنها صاحب مرآة الحرمين : «وقد تسلقنا الجبل في ساعة ونصفها بما في ذلك استراحة دقيقة أو اثنتين كل خمس دقائق، بل في بعض الأحيان كنا نستريح خمس دقائق لأن الطريق وعر حلزوني، وقد عددت أربعا وخمسين تعريجة إلى نصف «الجبل» وكنا آونة نصعد وأخرى ننحدر حتى وصلنا الغار بسلام[3] وفي هذه الغار نزلت الآيات الكريمة في سورة التوبة : «إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن

---

(3) مرآة الحرمين، ص 61، جزء أول.

إن الله معنا، فأنزل الله سكينته عليه، وأيده بجنود لم تروها، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا، والله عزيز حكيم».

لم يُتح لي أن أزور غار ثور هذا خلال الرحلات التي قمت بها إلى المملكة العربية السعودية، وإن كنت قمت في إحدى رحلاتي بالصعود إلى «غار حراء» الغار الذي كان يتحنث فيه رسول الله ﷺ قبل تكليفه بالرسالة، والذي نزل فيه عليه جبريل عليه السلام بأول آية من القرآن نزلت، وهي قوله تعالى : (اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الانسان من علق) الآية. وإذا لم يتيسر لي إعطاء وصف دقيق لهذا الغار أي غار ثور، لأنني لم أزره، فإنني آتي بما وصفه به اللواء إبراهيم رفعت باشا عام 1925، حيث قال : «ولما بلغنا الغار، وجدناه صخرة مجوفة في قنة الجبل، أشبه بسفينة صغيرة، ظهرها إلى أعلى، ولها فتحتان في مقدمها واحدة، وفي مؤخرها أخرى، وقد دخلت من الغربية زاحفا على بطني، مادا ذراعي إلى الأمام وخرجب من الشرقية التي تتسع عن الأولى قليلا، بعد أن دعوت في الغار وصليت، والفتحة الصغيرة، عرضها ثلاثة أشبار، في شبرين تقريبا، وهي الفتحة الأصلية التي دخل منها النبي ﷺ، وهي في ناحية الغرب، أما الفتحة الأخرى فهي في الشرق، ويقال إنها محدثة، ليسهل على الناس الدخول إلى الغار والخروج منه، والغار من الجبل في الناحية الموالية لمكة»[4].

وقصة هجرة الرسول الأمين عليه السلام، ومكثه في غار ثور الضيق، الصعب المرتقى ثلاثة أيام، والكفار من حوله يبحثون عنه ليسفكوا دمه، وقطعه المسافة الطويلة بين مكة والمدينة على راحلته بصحبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، تثير في نفوسنا كثيرا من الاشفاق، وكثيرا من التقدير، وكثيرا من الفخر ببطولة نبينا العظيم وصبره وتحمله الأنواع الشتى من المحن والآلام في سبيل نشر عقيدة التوحيد، وهداية البشر إلى الحق، وإلى الصراط المستقيم في الحياة، ونشر الفضيلة بين الأنام، وتكوين المجتمع الاسلامي القائم على التقوى والعدل والمساواة والكرامة الانسانية.

(4) مرآة الحرمين، ص 62، جزء أول.

والزائر في الطريق الرابطة بين مكة والمدينة، لابد أن يستحضر في ذهنه عظمة وصدق هذا الرسول الذي ما كان له أن يتحمل وعثاء السفر، وصعوبة الطريق، وشدة القيظ، والتعرض للأخطار، ما كان له أن يتحمل كل هذا لولا أنه كان مكلفا بمهمة أساسية في الحياة، مهمة شاقة متعبة، ولكن لابد لها أن تنجح، ولابد لها أن تبلغ، ولابد لها أن تستمر، ولابد لها أن تنتشر، لأن سعادة بني الانسان متوقفة عليها، ولأن بقاء الرباط الحقيقي بين السماء والأرض، متوقف على بقائها، ولأن سير الحياة الانسانية طبق ما أمر الله مقرون بنجاحها.

ان السير في الطريق إلى مكة الآن يختلف كل الاختلاف عن السير فيها أيام بعثة الرسول وما تلاها من قرون، فإذا كنا نقطع مسافة الطريق في نحو الخمس ساعات فلقد كان الأولون السابقون يقطعونها في ظرف اثنى عشر يوما على الرواحل، وإذا كان الأمن الآن منتشرا في تلك الفيافي والقفار، والجبال والآكام، فإن الطريق كانت مخيفة ومحفوفة بالأخطار، ومع ذلك فنحن نتعب ونضجر ونتشكى من طول الطريق رغم توافر جميع الوسائل التي حققت لنا الراحة والأمان والاطمئنان، بينما رسولنا العظيم كان يقاسي من متاعبها الأهوال، فلولا عناية الله به، وعصمته من أعدائه والمتربصين به، للقي حتفه في تلك الطريق، وما خبر سراقة بن مالك بن جعثم معه عليه السلام في تلك الطريق إلا واحد من الأخبار، التي تعرض فيها ﷺ للأخطار، فلقد دفع الطمع سراقة أن يركب فرسه، ويتتبع الرسول في طريقه حتى يدركه مع صاحبه أبي بكر، وكان حاملا معه السلاح ليغتال سيد الأنام عليه السلام، ولكن الله الذي تكفل بحفظ رسوله، منع سراقة من تحقيق مرغوبه، فرجع خائبا، بعد أن ساخت يدا فرسه في الأرض مرتين عندما اقترب من رسول الله، ولم يسعه إلا أن يطلب الأمان من رسول الله، بعد أن كان عازما على اغتياله. وهكذا سار رسول الله في طريقه إلى المدينة محفوفا بعناية ربه، مصمما على أداء الرسالة التي طوّق بها، فصلوات الله وسلامه عليه في الأولين والآخرين، إلى يوم الدين.

في طريق بدر

أثناء سيرنا في طريق مكة ـــ المدينة، وعلى بعد نحو المائة والخمسين كيلومتراً من المدينة، توجد علامة تشير إلى موقع أو إلى قرية تسمى «بدراً» وهذا الموقع هو الذي وقعت فيه الغزوة الكبرى التي أعز الله بها الاسلام، وأذل بها الكفر والفسوق والغضيان، والتي تسمى بغزوة بدر الكبرى، وبدر هذه، سميت بهذا الاسم لأنها كان بها ماء مغمور لا ينتفع به، فحفر فيها شخص كان يسمّى «بدر» من قبيلة «غفار» بئراً صار يستقى منه الناس، فسميت القرية باسمه.

وهذه القرية أو هذا المنبسط من الأرض يبعد عن مكة المكرمة بنحو ثلاثمائة وأربعين من الكيلوميترات، وكانت سوقاً من أسواق العرب، وموسماً من مواسمهم.

لقد سبق لي خلال بعض زيارتي للديار المقدسة أن وقفت قريباً من «بدر» ولكني لم أصل إليها، ولم تطأها قدماي، وفي هذه المرأة أيضاً لم أتمكن من الوصول إليها، وإن كنت أرغب الرغبة الكبيرة في زيارتها والترحم على شهداء «بدر» الأبرار الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، والذين بفضل استشهادهم ووفائهم لدينهم ورسولهم، أعز الله الإسلام، وأذل الكفر والطغيان.

لم أتمكن من زيارة «بدر» ولا من معرفة الطريق الموصلة إليها، وهل عُبّدت وسويت تلك الطريق مثل ما عبّدت وسوّيت أغلب الطرق في المملكة العربية السعودية، أو لازالت على حالها التي كانت عليها قبل أربعة عشر قرناً عندما مرّ منها الرسول المصطفى عليه السلام وصحبه الكرام وحل بها قبل الموقعة الكبرى الفاصلة بين الكفر والإيمان، والجحود والاسلام، أو حتى عندما زارها في الثلاثينات من هذا القرن العشرين الدكتور محمد حسين هيكل رحمه الله، والتي

وصف في رحلته المتاعب التي لاقاها في طريقه إليها، بالرغم من أنها كما قال : (لم تضنّ الطبيعة على بدر بما يصلحها للمقام والحضر، فالماء بها وعلى مقربة منها وفير، وهذه المنطقة بين بدر وبين المدينة تكاد تعدل منطقة الطائف خصباً، لقد مررنا بين الحمراء وبدر، بخِيف الخرمان، وخِيف الواسطي، وخِيف صعبَج، وخيف الحسينية، وخيف القارعة، والخيف الجديد، وكلها ذات مياه ونبات وشجر، وبها ضياع تحدث عن شيء من النعمة، وخفض العيش، فما بال بدر تبدو دونها جميعاً حياة ونضارة)(1).

لا يمكن للانسان أن يقترب من بدر، أو يزورها دون أن يستحضر بكل كيانه، ذكرى الموقعة الكبرى التي وقعت في تلك البقعة، ولا أن لا يقف وقفة خاشعة صادقة للترحم على شهداء «بدر»، والدعاء لهم، والسلام عليهم، رضوان الله عليهم.

إن موقعة «بدر» في التاريخ الاسلامي، تعتبر بحق أهم موقعة في الاسلام، حيث تلاقت وتصارعت فيها قوة الإيمان واليقين، مع قوة الكفر والطغيان، وفيها تجلت أقوى ما يكون التجلي، حقيقة الإيمان والعقيدة التي تعتبر سر الحياة الانسانية المثلى.

ثلاثمائة مسلم، ليس لهم من الأسلحة والعتاد إلا القليل، تواجه ألف مشرك لهم من العتاد والقوة والخيل المسومة الكثير والكثير. معركة يقف فيها رسول الله ﷺ يدعو ويستغيث بربه، بعد أن رتب المجاهدين وقوى من معنوياتهم، يقف يدعو ويقول كما جاء في صحيح الامام البخاري : (اللهم أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبداً) (اللهم هذه قريش قد أتت بخُيلائها تحاول أن تكذّب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني، اللهم إن تَهلِك هذه العصابة اليوم لا تُعبَد) لقد كان رسول الله ﷺ في تلك اللحظات في منتهى ما يكون من صدق التوجه، وخالص التضرع، وطلب المعونة من ربه، ما جعل رداءه يسقط عن منكبيه، وما جعل أبا بكر الصديق ينزعج عليه، فيعمد إلى رد ردائه على منكبيه عليه السلام ثم يقول وهو الصدّيق الصدوق : (يانبي

---

(1) في منزل الوحي لهيكل ص 695.

الله، بعض مناشدتك ربك، فإن الله مُنجزٌ لك ما وعدك). قال ابن إسحاق في سيرته : وخفَق النبي ﷺ خفقة في العريش (العريش المكان الذي كان مركز قيادة رسول الله للمعركة) وخفق (أي أدركه النعاس) ثم انتبه فقال : أبشر ياأبا بكر، أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذٌ بعنان فرسه يقوده على ثنايا النقع).

بُشرى عظيمة يتلقاها أبو بكر من رسول الله ﷺ، بشرى انتصار المسلمين الصادقين في المعركة، ومعونة الملائكة لهم تحت قيادة جبريل عليه السلام لهم، بشرى نزل بها الوحي من فوق سبع سماوات، تبعث الطمأنينة في قلوب المومنين، وتضاعف من معنوياتهم وتزيد من تطلعهم إلى الاستشهاد والتضحية، حتى يتحقق النصر وما النصر إلا من عند الله. بشرى نزلت بها الآيات القرآنية التي تقول : (إذْ تستَغيثُون ربَّكُم فاستْجاب لَكُمُ أني مُمِدُّكُم بألِفٍ منَ المَلائكة مُردَفِين، وما جعَلَه اللّه إلا بُشرى لكُم ولِتطمئنَّ بِه قُلوبُكم وما النصْرُ إلّا مِن عِندِ اللّهِ، إن اللّه عزيز حَكيم)(2).

إن المسلمين بقيادة رسول الله ﷺ لم يخرجوا من المدينة في ثلاثمائة رجل قاصدين الحرب مع قريش، وإنما كان قصدهم التعرض لغير قريش التي كانت راجعة من الشام تحت رئاسة أبي سفيان، فلقد كان رسول الله ﷺ قرر التعرض لتلك العير لمصادرة أموالها رداً على ما فعلته قريش مع المسلمين المهاجرين الذين صادرت جميع أموالهم وثرواتهم. لقد كان المشركون شاهرين الحرب على المسلمين، ولذلك ابتزوا منهم أموالهم وثرواتهم. فمن باب القيام بالمثل أن يغتنم المسلمون كل فرصة ممكنة لاسترجاع ما اغتصبوه منهم، ومن الضروري الأكيد التصدّي لهم لدى كل مناسبة، حتى لا يشعروا أن المسلمين في ديار هجرتهم سيبقون مسالمين للكفر والطاغوت والذلة والخنوع. ومن الواجب عليهم وقد قوى الله المهاجرين بالأنصار أن يردوا كيد الكائدين، ويسترجعوا ما اغتصبه منهم الغاصبون.

وليس من الحق في شيء ما يروجه بعض المستشرقين ومن سار في ركابهم من بعض المنتمين للاسلام من أن التعرض لِعِير قريش يعتبر من قطع الطريق وأعمال

(2) سورة الانفال، الآيتان : 9 و10.

السلب والنهب. فأعمال السلب والنهب في الحقيقة هي ما تقوم به الدول الغربية التي تقول إنها أتت بنظام عالمي جديد، يهدف في حقيقته إلى فرض السيطرة المطلقة على ثروات ومعادن ومنابع البترول في البلاد الاسلامية ودول العالم الثالث بأجمعه، لتبقى شعوبها فقيرة معدمة متطلعة دائماً إلى القروض الأجنبية بفوائدها المجحفة.

فخروجُ المسلمين لم يكن للنهب والسلب، وإنما كان لاسترجاع المال المغصوب منهم، ولكن قريشاً لم تستسغ هذا التحدي الذي أصبح المسلمون يواجهونها بهم رغم أنّ عير قريش استطاعت أن تفلت من قبضة المسلمين، باجتيازها طريقاً غير الطريق التي كانت تمر منها، ومناديها نادى قائلا : ان تهيأوا للحرب ضد محمد عليه السلام وضد المسلمين. وهكذا تحرك جيش الكفار وكان عدده حوالي ألف وثلاثمائة مقاتل قاصداً منطقة «بدر» التي تحدثنا عنها، وكان في طليعة هذا الجيش صناديد قريش وكبراؤهم : (1) أبو جهل بن هشام، (2) وأمية بن خلف، (3) وسهيل بن عمرو، (4) و شيبة بن ربيعة (5) وعتبة بن ربيعة، (6) ونبيه ومنبه أبناء الحجاج،(7) والعباس بن عبد المطلب، (8) وأبو البحتري بن هشام، وهؤلاء هم الذين تكفلوا بتعبئة الجيش واطعامه والنفقة عليه.

وبلغ لرسول الله ﷺ أن قريشاً تحركت بقضها وقضيضها، قاصدة الحرب فلم يشأ عليه السلام ان يتخذ أي قرار قبل أن يأخذ رأي أصحابه من المهاجرين والأنصار، فاستدعى ذوي الفكر والرأي والقرار منهم، وعقد معهم جلسة تقييمية لما تطور إليه الوضع. فالخروج لم يكن للحرب وإنما كان للتعرض للعير، وعدد المسلمين قليل بالنسبة للمشركين، ووسائل الدفاع تكاد تكون منعدمة بالنسبة لما عند الآخرين، فما هو القرار الذي ينبغي أن يتخذ ؟ لقد وقف المتكلم بلسان المهاجرين وهو المقداد بن الأسود، فخاطب رسول الله ﷺ قائلا : (يارسول الله، امض لما أمرك الله، فنحن معك والله لا نقول لك كما قالت بنوا إسرائيل لموسى : (فاذهب أنت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون) ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا انا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق، لو سرت بنا إلى برك الغماد، لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه). ثم نهض سعد بن معاذ من الأنصار

فقال : (قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أنّ ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامش يارسول الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر، لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصُبُر في الحرب، صُدُق في اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله) وما أن سمع رسول الله ﷺ رأى المهاجرين والأنصار حتى صار يعد العدة للمعركة، ويستكشف قوة العدو ومكانه وتحركاته، ليسير على بصيرة من أمره، وكانت قريش بدورها تحت زعامة أبي جهل ابن هشام تأخذ العدة وتتهيأ للمعركة، وجاءت ساعة الصفر بعد وقائع يطول شرحها، فصارت الصفوف تقترب من بعضها، وقام رسول الله يدعو مرة أخرى قائلا : (اللهم ان تهلك هذه العصابة (أي المسلمين) لا تعبد بعدها في الأرض). وبدأت المبارزة بين المسلمين والمشركين فسقط الوليد بن عتبة بن ربيعة قتيلا بيد علي بن أبي طالب وسقط عتبة والده قتيلا بيد حمزة، وضرب عبيدة بن الجراح خصمه ومبارزه «شيبة» ولكنه لم يمت من الفور، ثم وقع التلاقي العام بهجوم المشركين على المسلمين، ولكن المسلمين صمدوا مكتفين بالنضح بالنبال طبق ما وصاهم به رسول الله ﷺ. ثم احتدمت المعركة والنبي عليه السلام يخوضها بنفسه، والمسلمون من حوله يندفعون كالسّيل، يقاتلون لاعلاء كلمة الله ونصرة رسوله، والنبي يقول : (سَيُهزم الجَمع ويولّون الدّبُر) فلم تمض إلا ساعات معدودات حتى وقعت الهزيمة على المشركين، وسقط زعماؤهم مضرجين في دمائهم وكان من بين قتلاهم أبو جهل نفسه فرعون هذه الأمة، وانتصر جيش المسلمين بقيادة رسول الله ﷺ. لقد بلغ عدد القتلى المسلمين في هذه المعركة أربعة عشر رجلا، وعددهم من المشركين سبعين مشركاً.

لقد كانت هذه المعركة أهم معركة في تاريخ الاسلام، وكان الرسول عليه السلام مشفقاً فيها كل الاشفاق على مصير الدعوة الاسلامية، ولكنه كان متجها إلى ربه الاتجاه الصادق، فنصره الله وأيده بقوة من الملائكة مردفين.

ويعتبر شهداء بدر المسلمون من المغفور لهم، ولقد تحدثت الآيات القرآنية عن هذه الغزوة في عدة آيات، من جملتها قوله تعالى : «واذكروا إذ أنتم

قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون) ومنها قوله تعالى : (ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زَحْفاً فلا تولُّوهم الأدبار) الآية، ومنها قوله تعالى : (والذين آمنوا وهاجَروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آمنوا ونصروا أولئك هم المومنون حقا، لهم مغفرة ورزق كريم) إلى غير ذلك من الآيات البينات.

كان بودي أن أزور قبور شهداء بدر وأترحم عليهم وأدعو لهم، ولكن الأقدار لم تسمح لي بذلك. ان الذين صمدوا وجاهدوا وقاتلوا وقتلوا هم الذين بفضلهم بقيت كلمة الله هي العليا في الأرض، وبقي دين الاسلام منارة يهتدى بهديها المهتدون، فاللهم جازهم عنا أفضل الجزاء. آمين.

في طريق التنعيم

عندما يقترب الحاج أو المعتمر من مكة بعض الشيء يلاحظ لافتة مكتوبة تشير إلى قرية تسمى «رابغ» وهي قرية تقع في شمالي جدة، وتبعد عن البحر الأحمر ببضع كيلومترات، ومن «رابغ» هذه كان المغاربة يشرعون في تغيير ثيابهم قصد الاحرام عندما كان السفر عن طريق البحر، وفي ذلك يقول الشيخ عبد الواحد بن عاشر في أرجوزته المشهورة :

وان تُرد ترتيب حجك اسمعا — بيانه والذهن منك استجمعا
ان جئت «رابغا» تنظف واغتسل — كواجب وبالشروع يتصل

ولفظة «الرابغ» في اللغة، معناها العيش الناعم، وهو ما يدل على أن هذا الموقع يعتبر من أخصب أودية الجزيرة العربية، وتوجد به مياه كثيرة، يستقى منها السكان ما يحتاجونه لمزارعهم، وسبق للأمير شكيب أرسلان رحمه الله أن اقترح بناء سد يصلح لتخزين المياه فيها حتى لا تضيع هباء منثورا خصوصا في فصل الشتاء، ولست أدري أحققت الحكومة السعودية هذا الاقتراح أم لم تحققه لحد اليوم.

ويعتبر ميناء «رابغ» آمَنَ ميناء في الحجاز، ولذلك كان الحجاج المغاربة والشاميون والمصريون ترسو البواخر التي يمتطونها فيه.

ومن «رابغ» كان الحجاج والمعتمرون يقصدون طريق «التنعيم» ومنها إلى مكة المكرمة وعن طريق «التنعيم» الذي يقع في شمال مكة كان رسول الله ﷺ يريد أن يدخل مكة هو وأصحابه في السنة السادسة من الهجرة لأداء سنة العمرة، ولكنه عدل في آخر الأمر عن هذه الطريق إلى طريق أخرى، بسبب ما بلغه من أن قريشا قررت أن تعترض طريقه، وتمنعه منعا كليا من دخول مكة،

وصارت تجيش الجيوش لمقاتلته وإشهار الحرب عليه ان هو بقي مصرا على الدخول لأداء سنة العمرة.

كان الشهر الذي قرر فيه رسول الله ﷺ أداء سنة «العمرة» هو شهر ذي القعدة، وشهر ذي القعدة يعتبر من الأشهر الحرم الأربعة المعظمة في الجاهلية والاسلام، فلا تقع فيها حروب ولا مناوشات، ولا يصوغ لأي كان ان يمنع أو يعترض على من يريد أن يقصد الكعبة للطواف والسعي وتعظيم الحرمات. فزيارة بيت الله الحرام والطواف فيه حق لكل مومن مهما كان لونه أو جنسه أو قبيلته أو حتى عقيدته إذذاك. كان هذا معترفا به لدى كل العرب، وكان الجميع يعتبره حقا مقدسا، وإن لم يكن قانونا مدونا. وهذا ما جعل الرسول العظيم عليه السلام، وقد كان حنينه إلى مكة المكرمة، موطن نشأته، ومهبط وحيه، يتضاعف ويتزايد خصوصا وقد أتم الله عليه نعمته، وكثر أنصاره ومتبعيه والمومنين برسالته، فلقد دخلت الأفواج تلو الأفواج في الاسلام خلال سنوات الهجرة الست، ولم يبق المسلمون أقلية قليلة في المنطقة العربية، بل ازداد عددهم بدخول كثير من القبائل في حوزة الاسلام، وتحالف بعضها مع المسلمين فالأمر أصبح مختلفا اختلافا كبيرا عما كان عليه عندما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة. لقد هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، فارا بدينه، مصمما على تأسيس دولة الاسلام، وتكوين المجتمع الاسلامي، ونشر راية التوحيد، وإنقاذ الانسانية من طغيان الجاهلية، وسيطرة البغاة الجاحدين، وها هو وقد ثبّته الله وأيّده، خرج من محنته منتصرا، فتكاثر المسلمون بعد قلة، وتقووا بعد ضعف، وصار صيت المسلمين في كل أنحاء الجزيرة العربية يصم آذان مخالفيهم ومحاربيهم من الكفار والمنافقين، فلابد من القيام بحركة تشعر كفار قريش ان بيت الله ليس ملكا لهم، ولابد من زيارة الكعبة التي رفع قواعدها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وجعلاهما مكانا آمنا مقصوداً من جميع الأجناس والقبائل والأمم.

لقد قرر رسول الله ﷺ زيارة الكعبة والطواف بها لأداء سنة العمرة، معلنا أنه لا يقصد حربا لقريش ولا لغيرهم، ولكنه يريد أن يدخل هو وأصحابه مكة مسالما، فيطوف مثل الطائفين، ويسعى كبقية الساعين، ولم يكتف بهذا الاعلان

بين أصحابه، ولكنه أوعز لمن يبلغون الخبر لقريش، أنه لا يريد حربا، ولا يقصدها ولا يرغب فيها أبدا، وكدليل على مقصده، اشترى سبعين بدنة (جمالا) لتكون هديته إلى الكعبة في عمرته، مؤكدا عليه السلام أنه قاصد بيت الله للقيام بنسك العمرة.

وكبرهان على قوة المسلمين والاسلام، دعا عليه السلام كل من يمكنه مصاحبته إلى مكة من المسلمين في كل القبائل، فكان عددهم حسب أصح الأقوال ألفا وأربعمائة من المسلمين، ولم يتخلف في الغالب الا المنافقون وضعاف الايمان، حيث كان هؤلاء مقتنعين ان قريشا والمشركين لا يسمحون مطلقا بدخول الرسول ﷺ مكة والطواف بالبيت الحرام، ولذلك فقد كانوا متخوفين عظيم التخوف من اشتعال خرب بين الرسول والمشركين، وهم لا يريدون — شأن كل المنافقين في جميع الأعصر والدهور — أن يصلوا بها، أو يصيبهم أذاها، وقال قائلهم : (أنذهب إلى قوم قد غزوه في عقر داره بالمدينة وقتلوا أصحابه) ومعتذرين بأنهم مشغولون بأهليهم وأموالهم، وخائفون على مصالحهم من الضياع، وذلك ما نزلت به الآيات القرآنية تفضحهم، وتكشف نياتهم وعدم صدقهم : (سيقول المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا، يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، قل فمن يملك لكم من الله شيئا إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا، بل كان الله بما تعملون خبيرا بل ظننتم ان لن ينقلب الرسول والمومنون إلى أهلهم أبدا وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا)[1] وهذا الموقف الذي وقفه المنافقون مع النبي ﷺ وهو يتهيأ لأداء سنة العمرة والطواف بالبيت، وتحدى المشركين الذين لم يكونوا قابلين لدخول رسول الله ﷺ مكة، هو ما وقفه كثير من الناس أثناء مقاومة الحركة الوطنية للوجود الاستعماري، ومحاربتها للطغاة المستعمرين. ولكن الله الذي نصر عبده وأيد جنده، وهزم الأحزاب وحده، أمر عبده ورسوله أن يسير في تطبيق قراره، معلنا مرة أخرى وثالثة ورابعة أنه لا يريد حربا، وإنما يريد سلاما، لا يريد إلا الطواف بالبيت الحرام، وزيارة الكعبة المشرفة، وتقديم الهدي لها، وهكذا أمر أصحابه بالاحرام وأحرم معهم عليه السلام في ذي الحليفة (أبيار

(1) سورة الفتح، الآية 11 و12.

علي)، وسار في طريقه إلى مكة، سائرا في الطريق التي كان يسير فيها المعتمرون، قاصدا «التنعيم» القريب الواقع في شمال مكة، وفي الطريق أشار عمر بن الخطاب وسعد بن عبادة على رسول الله بضرورة أخذ الاحتياط، واستصحاب بعض السلاح، حتى لا يؤخذ المسلمون على غرّة، فلم يسع رسول الله ﷺ إلا أن يعمل بما أشارا به معلنا في الوقت نفسه ومؤكدا أنه لا يقصد حربا جاعلا أمامه سبعين بدنة، أشعرها وقلّدها ليعلم الجميع أنها هَدْيٌ سيُهديه إلى الكعبة وحتى لا يباغت عليه السلام من طرف أعدائه المتربصين به الدوائر كان يبعث طلائع للاستكشاف، يأتونه بأخبار المشركين ونواياهم، وتحركاتهم ومواقفهم لدى سماعهم بقرار رسول الله ﷺ دخول مكة لأداء العمرة، وجاءت الأخبار تؤكد ان المشركين قاموا قومتهم عندما طرق أسماعهم أن رسول الله ﷺ قرر الدخول إلى مكة والطواف بالكعبة، واعتبروا هذا القرار تحديا لهم، فداخلهم الغرور، واستبد بهم الغضب، ونزل بهم الحمق، وقرروا منع رسول الله ﷺ وصحبه من الدخول إلى مكة، بجميع الوسائل التي بين أيديهم، وصاروا يوالون اجتماعاتهم بدار ندوتهم، لمتابعة الأحداث، واتخاذ القرارات. قال الواقدي في مغازيه : (ولما بلغ المشركين خروج رسول الله ﷺ إلى مكة، راعهم ذلك، وأجمعوا له، وشاوروا فيه ذوي الرأي منهم، فقالوا : يريد (أي النبي ﷺ) أن يدخل علينا في جنوده معتمرا، فتسمع به العرب، وقد دخل علينا عنوة، وبيننا وبينه من الحرب ما بيننا، والله لا يمكن هذا أبدا، ومنا عين تطرف، فارتأوا رأيكم، فأجمعوا أمرهم وجعلوه إلى نفر من ذويهم، (كونوا لجنة تتابع الأحداث) : صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل)(2). لقد رأت هذه اللجنة المكونة بعد استشارة رؤساء المشركين أن تتهيأ قريش وحلفاؤها من القبائل لصد الرسول عن الدخول إلى مكة بقوة السلاح إن اقتضى الحال، وأن يستعدوا لذلك كل الاستعداد سواء من حيث تخصيص ميزانية للحرب أو لتنظيم وتكوين الجيش المقاوم أو تهييء السلاح الكافي للمعركة أو توثيق الاتصال مع الحلفاء والمتضامنين مثل الأحابيش ورجال ثقيف أو غير ذلك من

---

(2) مغازي الواقدي ج 2 ص 579 عن كتاب لمحمد أحمد باشميل.

أنواع الاستعدادات المنذرة بالحرب الطحون ضد رسول الله وجماعات المسلمين.

لم تبق هذه الاستعدادات في حيز النظر، ولكنها أخذت طريقها إلى التطبيق، فلقد بدأت التجمعات العسكرية تأخذ أمكنتها في مركز يسمى «بلّدح» ويقع غربي مكة، وصار المحاربون يتواردون بأسلحتهم، وبصحبتهم النساء والأطفال حتى لا تحدثهم أنفسهم بالتراجع وترك نسائهم وأطفالهم، وكان المتحمسون من الشباب القرشي يتوقون إلى بداية المعركة، ويتشوقون إلى اشتعالها، وكان من جملتهم إذذاك خالد بن الوليد على رأس فرقة محاربة، تتبع تنقلات رسول الله وصحبه والمراحل التي يقطعها في طريقه إلى مكة، ليفاجؤوه قبل أن يصل، ويقضوا عليه أو يمنعوه على الأقل من اجتياز الطريق إلى مكة. قال الواقدي في مغازيه : (وقدموا خالد بن الوليد في الخيل، ووضعوا العيون على الجبال، حتى انتهوا إلى جبل يقال له : وزر، وز ع. كانت عيونهم عشرة رجال، قام عليهم الحكم بن عبد مناف، يوحي بعضهم إلى بعض الصوت الخفي : فعل محمد كذا وكذا، حتى ينتهي إلى قريش).

لم يكن رسول الله ﷺ غافلا ولا بعيدا عما يدبره المشركون، وما يودون القيام به ضده لمنعه بالقوة من إدراك بغيته، وأداء عمرته، ولكنه عليه السلام وهو القائد الخريت في الحرب، مثل ما هو القائد المحنك في السلم، فإنه كان نظم جماعة من الصحابة، كلفها بالتقاط الأخبار عن قريش وحلفائها، وتبليغه كل ما يمكن أن يحصل عليه عن تحركاتها، وكان من جملة من كلّفه بالاستخبارات في مكة صحابي جليل اسمه يُسر بن سفيان الكعبي الخزاعي الذي ذهب إلى مكة متنكرا وصار يلتقط الأخبار من هنا وهناك ثم رجع إلى مكان كان يوجد فيه رسول الله مع جماعات المسلمين، ويسمّي ذلك المكان «ذات الأشطاط» من وراء عُسفان غير بعيد من حدود الحرم. وبمجرد ما التقى برسول الله ﷺ خاطبه قائلا : ما وراءك يا بُسر ؟ فأجابه قائلا : (يارسول الله، تركت قومك كعب بن لؤى وعام بن لؤى قد سمعوا بمسيرك، وهابوا أن تدخل عليهم عنوة، وقد استنْفروا الأحابيش ومن أطاعهم معهم العوذ المطافيل، قد لبسوا لك جلود النمور، ليصدوك عن المسجد الحرام) قال ابن القيم في زاد المعاد : (واستشار

النبي ﷺ أصحابه وقال : أترون أن نميل إلى ذراري هؤلاء الذين أعانوهم، فنصيبهم، فإن قعدوا قعدوا موتورين محزونين. وإن نجوا يكن عنق قطعها الله، أم ترون أن نؤم هذا البيت، فمن صدنا عنه قاتلناه. موقف حاسم يريد ﷺ أن يتخذه، ولكنه لا يريد أن يستبد برأي، لكنه وهو المعلم الأعظم، يريد أن يعطي لأمته الدرس، حتى لا يتخذ أي كان، أي قرار خطير كان، مثل قرار المواجهة مع العدو، إلا إذا استشار ذوي الرأي والمسؤولية. قال أبو هريرة رضي الله عنه : (فلم أر أحدا كان أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله ﷺ) قال ابن القيم : (فقال أبو بكر، الله ورسوله أعلم، إنما جئنا معتمرين، ولم نجئ لقتال أحد، ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه) واستمع رسول الله ﷺ لغير أبي بكر، وكانت الآراء كلها تؤكد أن رسول الله وصحبه لم يأتوا لحرب أحد، وإنما أتوا لأداء نسك، لأداء عمرة وزيارة البيت العتيق، ولكنهم لا يقبلون مطلقا أن يصدهم عن بيت الله المشركون، فإذا كانوا لا يرغبون في الحرب، فإنهم كذلك لا يقبلون أن يمنعهم أحد عن بيت الله، وتدخل في الحوار شخص يسمى بديل ابن ورقاء، فنطق بكلام لم يستسغه مطلقا أبو بكر الصديق واعتبره يساند المشركين، فأغلظ له في القول ولكنه أجاب بأنه لا يهدف إلا النصح للرسول وللمسلمين.

لقد كان رسول الله في أشد الأوقات حرجا، فهو لا يريد الحرب، ولا يدعو إلى الحرب، ولكنه يريد السلام، ويحترم الحرمات، ولذلك كان يصرح في كل الأوقات، أنه يرغب في زيارة البيت العتيق وأداء العمرة في هذا الشهر الحرام، فكيف يمنعه المشركون من الدخول إلى مكة ؟ وما بالهم يعدون كل هذه العدة لمحاربته ومنعه بالقوة مما يريد ؟ يقول عليه السلام : (ياويح قريش، لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب، فإن هم أصابوني كان الذي أرادوا، وان أظهرني الله عليهم، دخلوا في الاسلام وافرين) ثم يقول عليه السلام : (فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به، حتى يظهره الله، أو تنفرد هذه السالفة).

النبي عليه السلام في موقف دقيق، يتطلب الحكمة والتبصر والحيطة، ولا يقبل الاندفاع والتهور، القضية في نظر رسول الله ﷺ قضية دعوة، وقضية

تبليغ، وقضية نصر لدين الله، وليس قضية مواجهة قد تكون خاطئة فلا تحقق أغراضها، فالمهم هو نشر دعوة الاسلام بين القبائل المتنافرة المتطاحنة، والقرارات الاستعجالية قد تكون عائقا عن تحقيق الأهداف، والصدام أو الحرب قد يؤدي إلى عرقلة الدعوة بين القبائل، ويرجح كفة المشركين، ولكن المشركين يريدون أن يستفيدوا ولو استفادة معنوية من صد رسول الله عن الكعبة، حتى ينشر في القبائل أن المنعة لازالت لهم، وأن النفوذ لازال لديهم، وأن رسول الله ضعف أمامهم فما هو الحل ؟ لقد اتخذ رسول الله ﷺ القرار الأول بتغيير الاتجاه إلى التنعيم، وإبدالها بطريق أخرى حتى لا يقع اصطدام، فماذا وقع بعد ذلك ؟.

في الحديبية

الطريق التي كان يمر منها المعتمرون من المدينة إلى مكة، هي التنعيم ولكن الرسول الأمين عليه السلام، عندما رأى أن كفار قريش اتخذوا قرارهم النهائي بالتعرض له فيها، ومنعه ولو حربا من تخطي التنعيم، ورأى حماس الشباب القرشي وفي طليعته خالد بن الوليد كل الحماس للاصطدام مع رسول الله ﷺ، قرر تغيير الطريق تجنبا للاصطدام، رأى رسول الله أن تحركه من عسفان في طريق التنعيم، سيشعلها حربا تراق فيها الدماء، ويسقط الضحايا من الجانبين : جانب المسلمين وجانب المشركين. والنبي عليه السلام ليس رسول حرب، ولكنه داعية سلام، والاسلام دين السلام، وشعار المسلمين هو السلام، والاسلام.. وقد توطدت أركانه بالمدينة المنورة، ودانت لدولة الاسلام الجديدة كثير من القبائل، واشتهر عند الخاص والعام أن محمدا عليه السلام رسول رحمة، وليس برسول نقمة، والاشهر الحرم ومنها شهر ذي القعدة الذي أتى فيه عليه السلام زائرا إلى الكعبة، لا يمكن أن يشعر فيه أي عربي أن الرسول انتهك حرمته، فكيف مع كل هذا يقبل عليه السلام ويرضخ لاستفزازات الشباب القرشي، فيتحارب فيه، إن المسلمين مع رسول الله مستعدون كل الاستعداد لأن يدخلوا مكة عنوة عن طريق التنعيم، ولكن رسول الله لا يسير شؤون أمته دون أن ينظر بعيدا لمصلحتها، ومصلحة الدعوة الاسلامية، فهل اشتعال حرب بينه وبين قريش في ذلك الظرف من شأنه أن يربح الدعوة ؟ أو من شأنه أن يضيعها ؟ ذلك هو السؤال الذي كان مطروحا إذذاك، وذاك ما دعا رسول الله ﷺ لأن يفكر كثيرا في المصلحة العليا للدعوة التي أتى بها، وذلك ما جعله يقرر أن يغير اتجاهه إلى مكة، ويسلك طريقا وعرا غير مطروق ليصل إلى مكة، مجتنبا الاصطدام مع المشركين، كان الطريق وعرا جدا وغير معروف، لدرجة أن المسلمين ضلوا فيه ثلاث مرات، ولقوا فيه من العناء الشيء الكثير. طريق جبلية

فيها كثير من المنعرجات، وكثير من الصخور العالية وكثير من المتاعب والأهوال، وكثير من الأشجار التي إذا دخل فيها الانسان لا يدري أين يتجه ؟ والمسلمون محرمون بالعمرة ابتداء من أبيار علي، ومتاعب الطريق إلى مشارف مكة، متاعب جمة ومتنوعة، فليست الطريق معبدة كما هي اليوم، وليس المعتمرون ممتطين السيارات المكيفة بالهواء، كما نركبها نحن الآن، ولكن يوجد الراكبون على الجمال وعلى الخيول وان كانت قلة قليلة، ولربما كان هناك الراجلون من جملة المعتمرين، وفي هذا الجو المملوء بالمتاعب والمصاعب، ينادي رسول الله ﷺ قائلا :

هل من رجل يدلنا على طريق ذات الحنظل ؟ فيجيبه صحابي جليل اسمه عمرو بن عبد نهم الاسلمي : انا يارسول الله أدلك، فيقول رسول الله : انطلق أمامنا، فانطلق عمرو أمامهم، حتى نظر رسول الله ﷺ إلى الثنية فقال : هذه ثنية ذات الحنظل ؟ فقال عمرو : نعم يارسول الله فلما وقف على رأسها تحذر به، فقال عمرو : والله إن كان ليهمني نفسي وحدي، إنما كانت مثل الشراك، فاتسعت لي حتى برزت، وكانت محجة لاحبة، ولقد كان النفر يسيرون تلك الليلة جميعا معطفين من سعتها يتحدثون، اقترب رسول الله وصحبه من الحديبية، بعد المتاعب التي لقوا في الطريق وظهر أمامهم سهل الحديبية مضيئا حتى كأن الليلة ليلة مقمرة، مع أنها لم تكن ليلة مقمرة فقال رسول الله ﷺ : فو الذي نفسي بيده، ما مثل هذه الثنية الليلة، إلا مثل الباب الذي قال الله لبني إسرائيل : (وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة). وقال الرسول ﷺ : الكلمة التي عرضت على بني إسرائيل : (لا إله إلا الله وادخلوا الباب سجدا) قال : باب بيت المقدس، ويقول ابن هشام في سيرته عن ابن اسحاق (ان النبي ﷺ لما مر بأصحابه في ذلك الطريق الوعر المهجور، الذي شق عليهم وأرهقهم، وقد افضوا إلى أرض سهلة عند متقطع الوادي ـــ قولوا : نستغفر الله ونتوب إليه، فقالوا ذلك، فقال ﷺ : والله إنها للحطة التي عرضت على بني إسرائيل فلم يقولوها) وورد أن رسول الله ﷺ قال والصحابة يجتازون ثنية ذات الحنظل : لا يجوز هذه الثنية أحد الا غفر الله له، لقد خرج الرسول عليه السلام وصحبه من متاعب وأهوال تلك الطرق التي مروا منها ليقتربوا من مكة عن طريق الحديبية،

حتى لا يصطدموا مع كفار قريش، فهل قدر المشركون هذه التضحية التي بذلها رسول الله في سبيل الحفاظ على السلام ؟ وتجنب الوقوع في الصدام المؤدي إلى الهلاك ؟ وليس له من قصد إلا أداء العمرة، والطواف بالبيت العتيق، وتجديد العهد بمقام إبراهيم الخليل عليه السلام ؟ وهل فكروا أن رسول الله وصحبه لا يمكنهم أن يرجعوا إلى المدينة دون أداء سنة العمرة التي أتوا عازمين على أدائها وقطعوا مئات الكيلومترات من أجلها ؟ وهل تصوروا أن رسول الله وقد بانت له معالم مكة المكرمة، ووصل لحدود الحرم، يسهل عليه أن يرجع دون قضاء مآربه، والطواف ببيت ربه ؟ لاشك أنهم كانوا مدركين كل هذا، ولكن التعنت والتعصب والحقد عندما يبلغ كل ذلك المبلغ الذي بلغه لدى مشركي مكة وزعمائها وشبابها، لا يبقى مجالا للسلم ولا لإيجاد مخرج يرضي الطرفين المتنازعين : المسلمين والمشركين، فالمسلمون مصرون على الدخول إلى مكة لأداء العمرة دون حرب ولا إراقة دماء، والمشركون مصرون على أن لا يسمحوا بدخول محمد وصحبه إلى مكة مهما كانت النتائج، ولو أدى الأمر إلى الحرب فيما بينهم وبين رسول الله، وكزيادة في إصرار هؤلاء الآخرين، صاروا يقومون بحركات استفزازية، ويستنفرون القبائل المتحالفة معهم، من ثقيف والاحابيش لمساندتهم للوقوف صفا واحدا ضد المسلمين، ثم خطوا خطوة عدائية جديدة عندما توجهوا برجالهم وعتادهم إلى الجهة التي يوجد فيها رسول الله وصحبه إلى منطقة الحديبية، داخل الأرض الحرام، اما المسلمون وعلى رأسهم الرسول العظيم عليه السلام فقد كانوا كما ذكرنا في سهل الحديبية، قريبين من الأرض الحرام، مصممين على زيارة بيت الله الحرام، ومصممين أيضا على أن تكون زيارتهم دون إراقة دماء، فهم دعاة سلام، وليسوا بدعاة حرب، وهم دعاة توحيد، وليسوا بدعاة تفريق، لقد برهنوا على مواقفهم خلال الستة أعوام التي قضوها بالمدينة المنورة، حيث انتشر فيها وحولها الأمن والأمان، بعدما خلا جو المدينة من المفسدين اليهود والمنافقين الخبثاء، ولقد شعر كفار قريش أنفسهم أنهم لا مصلحة لهم في مواجهة المسلمين، بعدما رأوا أن مواجهتهم لا تجلب لهم إلا الدمار والخيبة، وان الاسلام شاق طريقه، ودعوته آخذة في الازدياد، وان محاربته لا تزيد المومنين إلا إيمانا، ولا تزيد دعوته إلا انتشارا، ولكنهم بالرغم عن ذلك، لم تنطفئ في قلوبهم حمية الجاهلية، ولم يستسيغوا أن يدخل عليهم رسول الله

ﷺ مكة، وهم ينظرون، الموقف يزيد دقة، والأيام تمر، وليس هناك أية بادرة تشعر بأن الحل قريب، لقد مر على المسلمين وهم في الطريق إلى مكة، ما يقرب من عشرين يوما، وهم محرمون شعث غبر، من طول مدة الاحرام، وزاد الطين بلة أن الموقع الذي حطوا فيه رحالهم بالحديبية لا يوجد فيه ماء. فالوادي جاف، ليس فيه إلا بئر واحدة فيها قليل من الماء، وإقبال الناس على تلك العين جعلها تجف تقريبا، فلم يبق للمسلمين ما يرتوون منه، لا لهم ولا بهائمهم، واشتد العطش بهم، فشكوا إلى رسول الله عطشهم وضيقهم وقلة الماء عندهم، وفي ساعة الضيق يأتي الفرج، وفي ساعات المحنة، يتعين التوجه إلى الله بالصدق، لقد توجه الرسول إلى ربه صادقا متيقنا، فكانت المعجزة، لقد جلس رسول الله ﷺ على شفير البئر، ثم طلب إليهم أن يأتوه بدلو منها، فأتى به، فغرف منه غرفة، مضمض ودعا، ثم صب فيها وقال : دعوها ساعة، فتركوها غير بعيد، فما لبث ماؤها أن فاض، حتى صار غمرا، فارتوى الناس وتطهروا وسقوا ركائبهم وأنعامهم. وفي رواية أخرى : أمر الرسول عليه السلام أحد أصحابه أن ينزل في عين البئر الشحيحة بالماء، وان يغرز فيها سهما أعطاه إياه بيده الشريفة، ولم يكد صاحبه بغرز السهم في عين البئر، حتى تدفقت منها المياه بغزارة إلى درجة أن امتلأت البئر بالماء. كانت معجزة من معجزات الرسول ﷺ الكثيرة التي يصدق بها المومنون، وينكرها الكافرون والمنافقون، ومن المنافقين إذذاك، واحد يسمى عبد الله بن أبي، فقد كان حاضرا عندما جاشت بالماء، فدار بينه وبين بعض الصحابة نقاش حول المعجزة النبوية، وقد لام بعضهم عبد الله بن أبي على التمسك بالسير في خط النفاق وعدم التصديق، بعد الذي رأى بأم عينه، ولكنه أصر على أن يبقى هو أوصحابه في خط النفاق. قالت كتب السيرة : وقد بلغ رسول الله ﷺ عدم تسليم عبد الله بن أبي بمعجزته ﷺ الآنفة الذكر، وسخريته منها أثناء مناقشة أوس بن خولي له، فكان أن جاء هذا المنافق إلى مجلس رسول الله ﷺ فقال له النبي ﷺ اي ابا الحباب، أين رأيت مثل ما رأيت اليوم ؟ فقال : ما رأيت مثله قط فذكره النبي ﷺ بما قاله لأوس بن خولي قائلا له : فلم قلت ما قلت ؟ فلم ينكر ابن أبي مقالته النكراء، بل أسقط في يده وقال : (ليتجنب نقمة المسلمين) :

أستغفر الله ! وهكذا شأن المنافقين في كل زمان ومكان، عندما يفتضحون، وتظهر للجميع دخائل نفوسهم المريضة، يتظاهرون بالاستغفار، وانهم يقولون ما يقولونه بقصد المزاح.

بعد الخروج من محنة العطش وقلة الماء، رجع الناس إلى رشدهم، يتذاكرون ويتناقشون فيما بينهم حول الخطة التي ينبغي لهم أن يسلكوها في تعاملهم مع الأحداث، والنبي ﷺ يتابع معهم الاستشارات، ثم يوجه لهم سؤالا فيقول : (أترون أن نميل إلى ذراري هؤلاء الذين أعانوهم (أي أعانوا قريش) فنصيبهم فإن قعدوا، قعدوا موتورين محزونين، وان نجوا يكن عنق قطعها الله، ام ترون أن نؤُم هذا البيت، فمن صدنا عنه قاتلناه ؟ فيجيبه أبوبكر : الله ورسوله أعلم، إنما جئنا معتمرين، ولم نجئ لقتال أحد، ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه، فقال النبي ﷺ، فروحوا إذاً، فراحوا.

لقد أمسى الاتجاه إلى أخذ القرار النهائي بالسير إلى مكة طبق ما أشار به أبو بكر رضي الله عنه، ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان، فعندما أخذ المسلمون في التحرك نحو مكة لأداء العمرة، واجتياز حدود الحرم حدث ما سماه رسول الله ﷺ بحابس الفيل، فلقد بركت ناقة رسول الله المعروفة بالقصوى، ولم ترد أن تجتاز حدود الحرم، رغم ما بذلوه معها، فظن الناس أنها تعبت، ولذلك لم تستطع أن تزيد في السير، وقالوا : خلأت القصواء أي استعصت وكأنها تعبت، فلم تبق صالحة للمهمات، فقال النبي ﷺ : ما خلأت، وما هو لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة، ثم قال ﷺ معلنا القرار النهائي الذي اتخذه في تلك اللحظة الفاصلة : (والذي نفس محمد بيده، لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة : يسألوني فيها صلة الرحم، إلا أعطيتهم إياها) وفي رواية : (لا يسألوني اليوم خطة فيها تعظيم حرمات الله تعالى إلا أعطيتهم إياها) لقد اتخذ الرسول العظيم، القرار الخطير بأنه لا يريد الحرب مطلقا، ولكن يريد السلام وتعظيم حرمات الله، الرسول لا يريد الحرب، لأنها تدمر وتهلك، وقد تكون عواقبها وخيمة على الطرفين، على المسلمين وعلى الكفار الذين يعمل عليه السلام على أن يستجيبوا لدعوته، ويتركوه يقوم بواجبه التبشيري التوحيدي، فلا يعترضوا سبيله، ولا يحولوا بينه وبين الذين يريد أن يبلغهم رسالته ورسالة ربه، هو عليه السلام مشفق من الحرب وأهوالها واضرارها،

لا لأنه يخافها ويخشاها، ولا لأنه ليس مستعدا للتضحية في سبيل العقيدة التي أتى بها من عند ربه، ولكنه كرسول هداية، وكرسول رحمة، يريد أن يحقق مطمحه في الهداية عن طريق التبليغ والاقناع والجدال بالتي هي أحسن، إنه بذل ما يستطيع حتى لا تراق الدماء، وها هو يستشعر من وقوف الناقة بأن الله لا يريد منه أن ينساق في طريق الحرب، وان الناقة لم تحبس ولم تتخط حدود الحرم، إلا بأمر من الله، ولذلك قال عليه السلام : لقد حبسها حابس الفيل. وقضية حبس الفيل معروفة عند الجميع وتحدث عنها القرآن الكريم في سورة الفيل (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل) فالتريث والتبصر ضروريان، والبحث عن مخرج يقي من ويلات الحرب واجب محتوم. فلعل الله سبحانه يجعل في التريث مخرجا، ولعله يوفق بعض العقلاء في قريش حتى يكبحوا من جماح سفهائهم ومتهوريهم الذين لا يقدرون قدر الأهوال والحروب، فيتخلون عن فكرة استخدام القوة والعنف والارهاب، ويفكرون جيدا في المصلحة العامة للجميع، ويتركوا المسلمين يؤدون عمرتهم في سلام ودون إراقة دماء، ولعله سبحانه يهدي أقواما يتسمون بالعقل والتدبير، فيكونون رسل سلام وأمان، ليؤكدوا مرة أخرى لقريش أنه عليه السلام لم يأت للحرب، وإنما جاء مسالما متعبدا، فما وقع بعد ذلك ؟

الرسول ﷺ يبذل الجهد في سبيل السلام

قرر رسول الله ﷺ الامتناع عن حرب قريش وعن الدخول إلى مكة عنوة، وضاعف من اتخاذ الوسائل لتجنب الحرب، وكان من جملة ما قام به عليه السلام إرسال المبعوثين المتعددين إلى زعماء قريش، ليشرحوا لهم أنه لم يأت بقصد الحرب، وإنما أتى مسالماً لأداء العمرة ثم يرجع إلى المدينة، موطن سكناه، ومركز دعوته، وعاصمة الدولة الاسلامية الجديدة وكان من جملة الذين وجههم لاقناع القرشيين بأنه جاء معتمراً ولم يأت محارباً شخص خزاعي (من قبيلة خزاعة) وكانت خزاعة قبيلة مسالمة للمسلمين والمشركين على السواء، كان هذا الشخص يسمى «خِرَاش بن أميَّة» وكان معروفاً لدى قريش بحياده وعدم مناصرته للمسلمين، حتى لا يشكوا فيه، ويتقولوا عليه الأقاويل، قصد «خِرش بن أمية» مكة للاتصال بأشرافها وزعمائها وعرض ما يقترحه رسول الله ﷺ عليهم، ولكنه لم يكد يصل إلى مكة حتى اعترض طريقه أحد شبابهم المتهور المسمّى بعكرمة بن أبي جهل، فهاجمه قبل أن يبلغ الرسالة التي أتى بها، وعقر الجمل الذي كان يركبه وحاول قتله، لولا تدخل بعض العقلاء من القرشيين. وهكذا رجع «خراش» إلى رسول الله ﷺ بخفي حنين، ثم تدخل آخرون في الأمر ولكنهم لم ينجحوا بدورهم، نظراً للتطرف الذي تمكن من شبابهم بالخصوص وكان من جملة الذين تدخلوا لإيجاد مخرج يقي الطرفين مضار الحرب شخص آخر يسمّى «بُديل بن ورقاء» كان يتتبّع الأحداث عن كثب ويستمع لما يصدر عن الطرفين من أقوال ومواقف، ورأى من عِنْديَّته وقد استمع ووعَى لما يعرضه رسول الله ﷺ رأى أن يتدخل في الصلح لعله يتوفق في تقريب وجهات النظر، وهكذا صار يتصل بالرسول من جهة وبزعماء قريش من جهة أخرى، واستطاع أن يؤثر على بعض القرشيين لينصتوا إليه وليبلغهم ما يعرضه عليهم رسول الله ﷺ من (إقامة سلم بين المسلمين وقريش يأمن فيه

كل من الجانبين الآخر، ولو لمدة معينة، تبدأ هذه المدة بالسماح للمسلمين بأداء مناسك عمرتهم، وتقف قريش أثناءها موقف الحياد، عندما يشتبك النبي ﷺ مع باقي العناصر الوثنية، فإن انتصر النبي على باقي العرب، دخلت قريش فيما يدخل فيه العرب، وإن لم ينتصر، تستطيع قريش أن تقاتل المسلمين، وهي على جانب كبير من القوة) ثم خاطبهم قائلا : (يامعشر قريش، إنكم تعجلون على محمد، إن محمداً لم يأت لقتال، وإنما جاء زائراً هذا البيت)[1] فأجابوه قائلين : (حتى وإنْ كان جاء زائراً لا يريد قتالا، فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبداً، ولا تحدث بذلك عنا العرب) وتكاثر المبعوثون من رسول الله ﷺ ومن قريش نفسها، وكان من جملتهم أيضاً واحد يسمى عروة بن مسعود الثقفي وكان من عقلائهم وحكمائهم، لقد أدرك هذا الحكيم موقف الضعف الذي تقفه قريش بسبب تعنتها وعنادها، وموقف المنطق السليم الذي يقفه رسول الله ﷺ وأدرك أن هذا الموقف الحكيم الذي يقفه رسول الله، من شأنه أن يؤثر على بقية الأطراف العربية المناوئة لرسول الله ﷺ ويجعلها تميل لمنطقه. لقد أدرك عروة هذا فخاطب قريشاً قائلا : (يامعشر قريش، تتهمونني ؟ قالوا ما أنت عندنا بمتهَم، ثم قال لهم : ألستم الوالد وأنا الولد ؟ (أي كل واحد منكم كالوالد) وقد استنفرت لكم أهل عكاظ لنصرتكم، فلما بلّحُوا (أي امتنعوا) عليَّ، نفرت إليكم بنفسي وولدي ومن أطاعني، فقالوا : قد فعلت، فقال : (إني ناصح لكم، شفيق عليكم، لا أدّخر عنكم نصحاً، وأن بُدَيْلا قد جاءكم بخطة رشد، (يعني بالخطة، ما اقترحه رسول الله ﷺ) لا يردها أحدٌ إلا أخذ شراً منها، فأقبلوها منه) ثم اقترح عليهم أن يقوم هو بدور الوساطة بينهم وبين رسول الله ﷺ لعله يتوفق إلى إيجاد حل لاختلاف وجهات النظر.

لقد كان عروة مومناً في قرارة نفسه، بأن ما اقترحه عليهم رسول الله ﷺ بواسطة «بُديل» اقتراح سليم، يجب أن يقبلوه، حتى يجتنبوا وقوع حرب ضروس بينهم وبين رسول الله ﷺ ولذلك رغب أن يكون من جملة الوسطاء، ولربما كان يظن أنه سينجح في وساطته، ولربما كان يفكر بأنه كوسيط يصح له أن يستعمل جميع الطرق والأساليب التي تمكنه من النجاح ومن جملتها أن

(1) سيرة ابن هشام، ص 311، جزء 3.

يخاطب الرسول بأسلوب فيه نوع من التخويف والتهديد المقنّع، حتى لا يتهم من طرف قريش بأنه يحابى رسول الله ﷺ ويُعترف له بأنه محق في اقتراحاته التي اقترحها على قريش، كما سيتبيّن لنا مما خاطب به رسول الله عندما ذهب إليه، بعدما وافقته قريش على هذا الاتصال وهذه الوساطة، لقد خاطب رسول الله وكأنه مناصر ومؤيد لموقف قريش من اقتراحاته، بل ومُباهٍ بقوتها وأنها لا تغلب، وان اقدام رسول الله على تهديدها بالحرب والقتال، ستكون عاقبته وخيمة على المسلمين. قال ابن هشام في سيرته : (فخرج (أي عروة بن مسعود) حتى أتى رسول الله ﷺ، فجلس بين يديه، ثم قال : يامحمد، أجمعت أوشاب (أخلاط) الناس، ثم جئت بهم إلى بيضتك (أي أهلك وقبيلك) لتفضّها بهم، (تكسِّرها) إنها قريش، قد خرجت معها العوذ المطافيل، قد لبِسوا جلود النمور، يعاهدون الله أن لا تدخلها عليهم عنوة أبداً، وأيمُ الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً (أي تاركوك وحدك) كان رسول الله يستمع إليه وبجانبه أبوبكر الصديق الذي ما سمع ما قال عروة حتى انتفض قائلا : اعضض بظر اللات، أنحنُ ننكشف عنه ؟ أي أنحن نفرّ عن رسول الله ونترُكه. وارتاع «عروة لما سمعه من كلام أبي بكر ـــ ولم يكن يعرفه ـــ فقال : من هذا يا محمد ؟ قال رسول الله ﷺ هذا أبوبكر بن أبي قحافة، فقال عروة يخاطب أبابكر : أما والله، لولا يد لك عندي، لم أجِبْك بها بعد، لا أجبتك. وفي رواية لكافأتك بها، ولكن هذه بها. وطال الحديث بين الرسول وبين عروة. وكان عروة أثناء حديثه يتناول لحية رسول الله ﷺ (وهي عادة عند العرب أثناء حديثهم مع من يعتبرونه نداً لهم أن يمسكوا بلحيته) أثناء مناقشته، ولكن صحابياً آخر كان حاضرا هو المغيرة بن شعبة، لم يستسغ ولم يقبل أن تمتد يد عروة إلى لحية رسول الله ﷺ، فجعل يزيل يد عروة ويقرعها بيده ويقول : اكفف يدك عن وجه رسول الله ﷺ قبل أن لا تصل إليك، فقال عروة مستنكراً ما قاله وما فعله المغيرة، وكان يظن أن مركزه في المجتمع القرشي لا يجعل أحداً يستطيع أن يواجهه بالاعتراض والتهديد : ويحك ! ماأفظك وأغلظك ! فتبسم رسول الله ﷺ فقال له عروة : من هذا يامحمد ؟ قال : هذا ابن أخيك المغيرة من شعبة، فازداد عروة غضباً وقال : أيْ غُدَرَ (أي ياغادر) وهل غسلت سوءتك إلا بالأمس.

لم تفض المحادثات التي أجراها عروة مع رسول الله ﷺ إلى نتائج إيجابية حيث إن قريشاً بقيت متشبثة بموقفها المعادي، رغم النصائح التي أسداها لهم عروة بأن لا يورطوا أنفسهم في صدام مسلح مع رسول الله ﷺ فلقد خاطبهم قائلا : يامعشر قريش، إني قد وفدت على الملوك، على كسرى وهرقل والنجاشي، وإني والله ما رأيت ملكاً قط أطوع فيمن هو بين ظهرانيه، من محمد في أصحابه، والله ما يشدُّون إليه النظر، وما يرفعون عندهُ الصوت، وما يكفيه إلا أن يشير إلى أمر فيفعل، إلى أن يقول : وقد حزرت القوم، واعلموا إن أردتم السيف يذلوه لكم، وقد رأيت قوماً ما يبالون ما يصنع بهم إذا منعوا صاحبهم، والله لقد رأيت نسيّات (تصغير نسوة) معه، إن كُنَّ ليسلمنَّهُ أبداً على حال، فرَوْا رأيكم، وإياكم وإضجَاع الرأي (أي الوهن في الرأي) وقد عرض عليكم خطة، فمادُّوهُ ياقوم (أي حالفوه وعاهدوه) اقبلوا ما عرض، فإني لكم ناصح، مع أني أخاف ألّا تنصروا عليه) ولكن هذا كله لم ينفع، بل جاءوا باقتراح بديل، يتلخص في أن يرجع الرسول إلى المدينة دون أن يؤدي العمرة، على أن يأتي في العام القادم ليؤدي العمرة ويطوف بالبيت بإذن منهم، ودون ضغط عليهم، وتعددت الرسل الحاملة للصلح دون جدوى، واختلفت آراء القرشيين مع بعضهم بعضاً حول الشروط، وصاروا يبحثون عن مخرج يحافظ على ماء وجههم، عندما رأوا أن بعض المتحالفين معهم من القبائل ملّوا من التعنت والعناد الذي يتمسك به زعماء قريش المتعصبون، ورأى بعض الشباب القرشي المتشدد أن يقفزوا بالخلاف إلى مرحلة يصعب معها التراجع، فصاروا يتحرشون بالمسلمين، ويصعدون من الخلاف، وبعثوا بجماعة منهم تهاجم المسلمين في معسكرهم، وتنال منهم بالغدر، ما لم تستطع أن تناله بالسياسة أو بالقوة الحربية العلنية. ولكن المسلمين كانوا لهم بالمرصاد، وكانت حراستهم الليلية يقظى كل اليقظة، فما رأوا تلك الجماعة الغادرة تقترب منهم، وتحاول أن تتسلّل إلى صفوفهم، حتى أحاطوا بها من كل جانب، وألقوا القبض على كل أفرادها وكانوا سبعين فارساً، وأتوا بهم إلى رسول الله ﷺ مقيدين، أدرك النبي عليه السلام مرّة أخرى أن قريشاً مصرة كل الاصرار على الحرب، وأنه لابد من توجيه آخر إنذار لهم، حتى ينفكوا عن غرورهم وتعنتهم وإلا فلا مناص من مقاتلتهم

ليدخلوا المسلمين إلى مكة معتمرين، واختار عليه السلام لهذه المهمة الشاقة العسيرة أولا الصحابي الصّلب في الحق : عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليكون مبعوثه الأخير إليهم، ليشرح لهم مرة أخرى أنه لا يريد حرباً ولا قتالا وإنما يريد أن يطوف هو وأصحابه بالبيت العتيق، ثم يفارقوا مكة آمنين راجعين إلى ديارهم وأهليهم بالمدينة، ولكن عمر بن الخطاب أجاب رسول الله ﷺ بأنه ربما لا يكون الرجل الصالح لهذه المهمة السلمية، لأنه معروف عندهم بالصلابة والقوة والعداوة لهم، واقترح أن يقوم بالمهمة رجل آخر يكون أفيد وأكثر قبولا منه، وهو عثمان بن عفان، خصوصاً وأن عثمان ينتسب إلى بني عبد شمس بن مناف، وهي من القبائل القوية التي تحميه إن أرادت قريش أن تنصب له بعض المكائد أو تعوقه عن أداء مهمته على الوجه المطلوب. فأنصت رسول الله ﷺ لمقولة عمر بن الخطاب، واستحسن اقتراحه، واستدعى عثمان بن عفان وقال له : (اذهب إلى قريش، فأخبرهم أنا لم نأت لقتال أحد، وإنما جئنا زواراً لهذا البيت، معظمين لحرمته، معنا الهَدْي ننحره وننصرف) ولبّى عثمان ما طلبه منه رسول الله ﷺ فذهب إلى مكة ليبلغ ما أمره رسول الله بتبليغه. وما أن سمع المتعصبون المتهورون من القرشيين بدخول عثمان إلى مكة، حتى قرروا صده عن مهمته بالقضاء على حياته لولا وقوف بعض القرشيين معه، وحمايته من المتعصبين. فاستطاع أن يؤدي المهمة التي كلفه بها رسول الله، واتصل ببعض زعماء قريش، وعرض عليهم ما اقترحه رسول الله عليهم، وبلغهم الرسالة التي أمره أن يبلغها لهم كما اغتنم الفرصة فاتصل بضعفاء المسلمين المقيمين بمكة والذين لم يستطيعوا أن يهاجروا، فطمّنهم بأن النصر قريب، ولقد جاء في بعض كتب السيرة نقلا عن الواقدي، خلاصة الرسالة التي بعث بها رسول الله ﷺ مع عثمان إلى قريش قال عثمان : (بعثني رسول الله ﷺ إليكم، يدعوكم إلى الله وإلى الإسلام، تدخلون في الدين كافة، فإن الله مظهر دينه، ومُعزّ نبيّه، وأخْرى تكفون، ويلي هذا منه غيركم، فإن ظفروا بمحمد، فذلك ما أردتم، وإن ظفر محمد كنتم بالخيار، أن تدخلوا فيما دخل فيه الناس، أو تقاتلوا وأنتم وافرون جامّون، إن الحرب قد نهكتكم، وذهبت بالاماثل منكم. وأخرى : ان رسول الله ﷺ يخبركم أنه لم يأت لقتال أحد، إنما جاء معتمراً، معه الهدْي عليه القلائد ينحره وينصرف) فجعل عثمان يكلمهم فياتيهم بما لا يريدون،

ويقولون قد سمعنا ما تقول، ولا كان هذا أبداً، ولا دخلها علينا عنوة، فارجع إلى صاحبك، فأخبرهُ أنه لا يصل إلينا) لقد اجتمع عثمان رضي الله عنه بأبي سفيان وأبان بن سعيد وصفوان بن أمية، وغيرهم من الزعماء القرشيين، وكلهم استمعوا لما عرضه عليهم رسول الله ﷺ ولكن جوابهم كان واحداً، هو الرفض لمقترح رسول الله ﷺ.

في هذه الأثناء التي يتفاوض فيها رسول الله ﷺ مع زعماء قريش، تصل أنباء إلى رسول الله بأن المشركين اعتدوا على عثمان وقتلوه، فيرتاع الرسول العظيم لهذا النبإ المفجع، ويقرر قراراً مستعجلا بأنه إذا ثبت أن المشركين قتلوا عثمان، فإنه ليس هناك من حلّ إلا محاربة قريش، ومقاومتها ومهاجمتها بالقوة، وإعطاؤها درساً لا تنساه أبداً، إذ كيف تعتدى على رسول رسول الله وهو يتفاوض معها على السلم والأمن والاطمئنان. إن السلام المشروع هو الذي يقابل بمثله، وان الاعتداء الظالم الغادر، لا ينبغي أن يسكت عنه، ولذلك فإن رسول الله ﷺ أعلن الاستنفار العام والاعداد الحازم لقتال الغادرين المشركين الذين دعاهم رسول الله للصلح والسلام، وبذل ما يستطيع لاقناعهم بضرورة الجنوح إلى السلام، وفسح المجال أمام الدعوة إلى الله بالحسنى والطواف ببيته على أساس من التقوى، اما وقد رفضوا وتعنتوا واستكبروا استكباراً ولم يراعوا لحرمة البيت الحرام في الشهر الحرام ما يستحقانه من مسالمة وحرمة، اما وقد بلغ بهم الحقد والغرور والتعنت والطيش والتهور ما جعلهم يعتدون على رسول السلام إليهم من رسول الله، فليكن ما أراد الله أن يكون، وليصل المسلمون إلى تحقيق مطمحهم في السلام والأمان عن طريق الحرب. فلقد أذن الله للذين ظُلموا وأهينوا أن يكفوا الظالم عن ظلمه بكل الطرق المؤدية إلى إحقاق الحق ونصرة دين الله، واعزاز كلمة الله وجماعة المسلمين. وحتى يأخذ القرار الذي اتخذه رسول الله ﷺ أبعاده الحقيقية، دعا عليه السلام جميع الذين معه من المسلمين إلى البيعة التي سميت ببيعة الرضوان، والتي تحدثت عنها الآية القرآنية في سورة الفتح فقالت : (لقد رضي الله عن المومنين إذ يبايعونك تحت الشجرة) فكيف كانت بيعة الرضوان ؟ وماذا نزل فيها من آيات بينات ؟ وماذا تبعها من أحداث ووقائع ؟.

بيعة الرضوان، وصلح الحديبية

كما ذكرنا من قبل، بادر الرسول الأمين عليه السلام إلى اتخاذ القرار الحاسم، عندما بلغته أخبار، تنبئ بالاعتداء على عثمان بن عفان رسوله إلى قريش للتأكيد لها بأنه عليه السلام لم يقصد مكة محارباً وإنما أتاها معتمراً، وأنه عازم العزم الأكيد على أداء سنة العمرة دون إراقة نقطة من دم، فكيف مع كل هذه التأكيدات يقدم القرشيون على قتل رسول رسول الله ؟ إنه الغَدر الذي لا يمكن السكوت عنه أو إجازته، إنها الخيانة التي لا يرضاها إلا اللئيم الجبان. ونادى منادي رسول الله ﷺ المسلمين إلى الاستعداد لرد العدوان. وقال عليه السلام : (لا نَبرَحُ حتى نُنَاجز القوم، ودعا الناس إلى البيعة) التي سميت ببيعة الرضوان وكانت المبايعة تحت شجرة كان عليه السلام يستظل بها في الحديبية.

دعا الرسول ﷺ المسلمين الذين كانوا معه إلى البيعة، وكانوا ألفاً وأربعمائة، فبايعوه كما جاء في كتب الحديث الصحاح على الموت وعلى أن لا يفروا وعلى الصبر والثبات. وفي هذه البيعة نزلت الآيات القرآنية : (لقد رضي الله عن المومنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً) الآية وروى الطبري عن جابر بن عبد الله، أنهم كانوا أربع عشرة مائة، قال : فبايعنا رسول الله ﷺ وعمر آخذ بيده تحت الشجرة. وجاء في مغازي الواقدي عن أم عمارة قالت : مرَّ بنا رسول الله ﷺ يوماً في منزلنا، قالت : فظننت أنه يريدها حاجة، فإذا هو قد بلغه أن عثمان بن عفان قد قتل، فجلس في رحالنا ثم قال : ان الله أمرني بالبيعة، قالت : فأقبل الناس يبايعونه في رحالنا، حتى تدارك الناس، فما بقي لنا متاع إلا وُطئ، فبايع رسول الله ﷺ الناس يومئذ ـــ قالت : فكأني أنظر إلى المسلمين قد تلبسوا السلاح ـــ وهو

معنا قليل ـــ إنما خرجنا عماراً، فأنا أنظُر إلى غزيَّة بن عمرو (هو زوجها) وقد توشح بالسيف ـــ فقمت إلى عمود كنا نستظل به، فأخذته في يدي، ومعي سكين قد شددته في وسطي ـــ فقلت : إن دنا مني أحد، رجوت أن أقتله ـــ فكان رسول الله ﷺ يومئذ يبايع الناس ـــ وعمر بن الخطاب آخذ بيده، فبايعهم على أن لا يفروا). وهكذا نلاحظ من خلال مختلف الروايات أن رسول الله ﷺ صمّم أن لا يتنازل أمام انتهاك حرمة المسلمين عندما انتهكت قريش هذه الحرمة، بقتلهم لعثمان بن عفان، كما نلاحظ أن أم عمارة رأت من واجبها هي بدورها أن تكون مستعدة للمشاركة في الدفاع والمساهمة في القتال إذا ما دعا الواجب إلى ذلك. وحتى يؤكد الرسول لأصحابه أن عثمان إذا كانوا قد قتلوه كما جاءت الأخبار، فإنه حاضر موجود مع المسلمين بروحه ومعناه، وهكذا أخرج عليه السلام يديه فضرب باليمنى على اليسرى قائلا : هذه بيعة عثمان. قال ابن برهان الدين : إن النبي ﷺ قال حين بايع عن عثمان : (اللهم إن عثمان ذهب في حاجة الله وحاجة رسوله، فأنا أبايع عنه، فضرب بيمينه شماله) كان الجوّ العام في تلك اللحظات، جوّ استنفار وتوثب لرد العدوان، وكان الصحابة رضوان الله عليهم متحمسين مومنين بنصر الله لهم رغم قلة عددهم، وعُددهم بالنسبة للقرشيين، وكان بعض القرشيين الذين أتوا مبعوثين لصد رسول الله ﷺ عن الدخول إلى مكة يشاهدون بأم أعينهم ما عليه حالة المسلمين من الصبر والمصابرة والتعلق برسول الله والامتثال لأوامره في أخذ العدة اللازمة لرد العدوان وكانوا متأكدين أن الرسول لم يأخذ قراره بالاستنفار إلا من أجل إعطاء الدرس لقريش بأنه عليه السلام وان كان داعية السلام، فإنه لا يرضى ولا يقبل الغدر والخيانة مهما كانت النتيجة، ولاشك أنهم كانوا متصلين بزعمائهم وقادتهم في مكة يزودونهم بالأخبار، ويؤكدون لهم أن السيل بلغ الزّبى، وأن الرسول والمسلمين ضاقوا ذرعاً بهذه المواقف السلبية والعدوانية التي تقفها قريش منهم، وان الغليان لا يؤدي إلا للانفجار، وأن الموقف يتطلب حكمة وسداداً لإطفاء الغيظ، وإيجاد مخرج لهذا التوتر الذي بلغ قمته فلم يبق إلا الصدام الذي ليس فيه ضمان لانتصار القرشيين، وفي هذه الأثناء تأتي الأخبار بأن عثمان لم يقتل وأنه والصحابة الذين معه في طريقهم إلى العودة بعد انتهاء

مهمتهم الشاقة. ويصل عثمان إلى ركب رسول الله فيكون أول عمل يقوم به مبايعة رسول الله ﷺ تحت الشجرة، مثل ما بايع بقية المسلمين.

أمام هذا الموقف الصلب القويّ الذي وقفه رسول الله ﷺ وصحبه الكرام لم يسع القرشيين إلا أن يجنحوا إلى السلم، والابتعاد عن التشدد والتنطع فبعثوا ببعض زعمائهم الحكماء إلى رسول الله ﷺ مقترحين إيجاد حلول للمصالحة، وكان على رأس هؤلاء شخص يسمى سهيل بن عمرو وكان رسول الله ﷺ يعلم عن هذا الشخص الكثير، ولذلك فإنه لما رآه مقبلا قال : قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل.

جاء سهيل بن عمرو ومعه شخصان آخران يعرضان على رسول الله ﷺ، ما اتفق عليه زعماء قريش من شروط للمصالحة بينهم وبين رسول الله ﷺ والخطوط الرئيسية التي تقع عليها المفاوضة بين الجانبين حتى يزول التوتر، ويتحقق السلام.

ويجب أن نؤكد هنا أن رسول الله ﷺ لم يكن يقصد حرباً مطلقاً، وإنما كان يريد أداء العمرة والطواف بالبيت، وأن قريشاً كانت تمانع في ذلك منعاً كليا ــ رافضة الرفض القاطع السماح للرسول والمسلمين بالدخول إلى مكة والطواف بالبيت، مهما كانت النتيجة، بل كانت تأخذ العدة لحرب المسلمين وقتالهم خصوصاً الشبيبة القرشية تحت زعامة خالد بن الوليد ــ وكان إذذاك لازال لم يسلم ــ ولكن الأمر تغير، والأفكار تحولت، عندما رأوا تصميم رسول الله ﷺ على أداء العمرة وعندما علموا بأمر البيعة وعزم المسلمين العزم القاطع على رد العدوان، فلقد صاروا يفكرون في إيجاد مخرج، وقرروا التراجع عن مواقفهم المتصلبة، وحتى لا تظهر هزيمتهم الفكرية أمام القبائل العربية، قرروا أن يسمحوا لرسول الله ﷺ بالدخول إلى مكة، ولكن في العام القابل لا في هذا العام، وبشروط.

كان قرار قريش السماح لرسول الله والمسلمين بإمكانهم الإتيان مكة العام القادم لأداء العمرة، اعترافاً بهزيمتهم الأساسية، من حيث أنهم لم يكونوا يتصورون أن لا تمر على هجرة الرسول من مكة مطارداً منهم ومقررين تصفيته

جسدياً، أن لا تمر إلا ست سنوات حتى يكونوا راضين أن يدخل الرسول مكة آمناً مطمئناً.

إنها بداية الاندحار والانهزام للقرشيين، ولو اشترطوا أن لا يدخل عليه السلام مكة محرماً إلا بعد عام من مجيئه إلى الحديبية. فما هو السبب ياترى في هذا التغيير الذي طرأ على موقفهم بعد العناد والتعنت والإصرار وإعداد العدة للقتال ؟ إنه موقف الثبات والصبر والتشبث بفكرة السلام التي تشبث بها رسول الله ﷺ والتي كان لها الأثر الكبير على عقلائهم ومفكريهم من جهة، وإنه الانطباع والإدراك الذي استقر في نفوسهم من أن المسلمين وإن كانوا لم يخترقوا حدود الحرم ويدخلوا مكة عنوة، فإنهم كانوا في غليان وهيجان واستعداد لتقديم أنفسهم ضحايا في سبيل تحقيق ما أتوا من أجله وهو أداء العمرة، وأن البيعة التي بايعوها لرسول الله على الموت والفداء تدل على أنهم لا ينهزمون مهما كانت قوة قريش التي بلغت إذذاك أربعة عشر ألف مقاتل، لقد دبّت إلى نفوسهم روح الهزيمة، والخوف من الاندحار أمام المسلمين، فصاروا قابلين للحل السلمي وبحثوا عن شخصية عاقلة حازمة تستطيع أن تقترح الحل الذي يغطي هزيمتهم المعنوية، ويفك المعضلة التي صعب عليهم حلها، وكانت هذه الشخصية هي شخصية سهل بن عمرو والعامري، مضافاً إليه : حويطب بن عبد العزّى العامري ومكرز بن حفص العامري أيضاً. هؤلاء الثلاثة هم الذين عهدت إليهم قريش التفاوض مع رسول الله ﷺ لتأخير مجيئه إلى العام القادم لقد قالوا لسهيل بن عمرو : (صالح محمداً، ولا يكن صلحه، إلا أن يرجع عنا عامه هذا) ولبّى سهيل ما طلبَهُ منه قريش، وتوجه في الحين إلى الحديبية ليعرض الحل الذي اقترحته قريش في ندوتها التي تجاذب فيها زعماؤها وقادتها أطراف الحديث في موضوع الحل المقترح، وما أن قُرُب من المكان الذي كان يوجد فيه رسول الله ﷺ وهو عليه السلام جالس مع أصحابه ورآه قادماً حتى خاطب أصحابه قائلا : (سهّل الله أمركم، القوم ماتُّون إليكم بأرحامكم، وسائلوكم الصلح، فابعثوا الهدْي، وأظهروا التلبية، لعل الله يلين قلوبهم) قال الطبري حاكياً (فارتفعت أصواتهم بالتلبية من نواحي العسكر، تشق عنان السماء) وهنا يظهر لنا جلياً كيف كان الرسول العظيم يسيّر الأمور، فرغم أنه كان نادَى على

المسلمين أن يستعدوا لردّ العدوان وأخذ منهم البيعة على الطاعة وبذل الأرواح والموت في سبيل الله ان اقتضى الأمر ذلك، ورغم أن المسلمين كانوا مهيئين لخوض المعركة الفاصلة، فإنه عليه السلام عندما رأى رسول قريش قادماً، وكان يعلم عنه أنه ليس من المتهورين المتعطشين لسفك الدماء، عندما رآه قادماً أراد عليه السلام أن يؤكد له أنه لم يأت إلا للعمرة وأنه لا يهدف لسفك الدماء كما تريد قريش ولذلك أمر أصحابه أن يرفعوا أصواتهم بالتلبية إشعاراً بمقصدهم الأول والأخير، ووصل سهيل فجلس قريباً من رسول الله ﷺ قال أرباب السير : (فلما انتهى (أي سهيل) إلى النبي ﷺ وبرك على ركبتيه، وتربّع المصطفى، وقام عبدا بن بشر وسلمة بن أسلم على رأسه مقنعين في الحديث، وجلس المسلمون حوله، جرى بينهما القول، وأطال سهيل الكلام وتراجعا، وقال له عباد : اخفض صوتك عند رسول الله ﷺ حتى وقع بينهما الصلح، على أن يوضع الحرب بينهما عشر سنين)[1] فيستفاد من هذا النص أن سهيلا لما جاء إلى رسول الله، صار يعرض عليه الحلول التي تقترحها قريش لتفادي الحرب، وصار رسول الله ﷺ يناقشه ويجادله، وان صوت سهيل كان يرتفع حتى نبهه الحارس لرسول الله بضرورة خفض الصوت وان النتيجة التي انتهيا إليها بعد المناقشة التي ربما كانت طويلة وشاقة وعسيرة، وقوع الصلح بين الرسول وقريش لمدة عشر سنين حسب هذه الرواية، بحيث لا يكون خلال هذه السنوات العشر أي حرب أو مناوشة بين الرسول وقريش. وقبل أن ندخل في صلب الشروط، والمطالب التي طلبتها قريش من رسول الله ﷺ لابد أن نستنتج النتائج الايجابية التي حققها رسول الله ﷺ من هذه المصالحة مع قريش وأنه عليه السلام أزال عقبة كؤوداً في طريق دعوته، وأصبح يأمن مكائد قريش في المستقبل وتحرشاتهم وعراقيلهم التي كانوا يضعونها في طريق دعوته، باتصالهم بالقبائل، وتحريشها ضده وضد دعوته عليه السلام، فلقد انفتحت أمامه الأبواب ليقوم بالدعوة كما يجب دون أن يقف أمامه أي عائق، ودون أن تستطيع قريش وحلفاؤها عرقلة نشاطه في دعوته.

---

(1) الزرقاني على المواهب، ص 194، جزء 3.

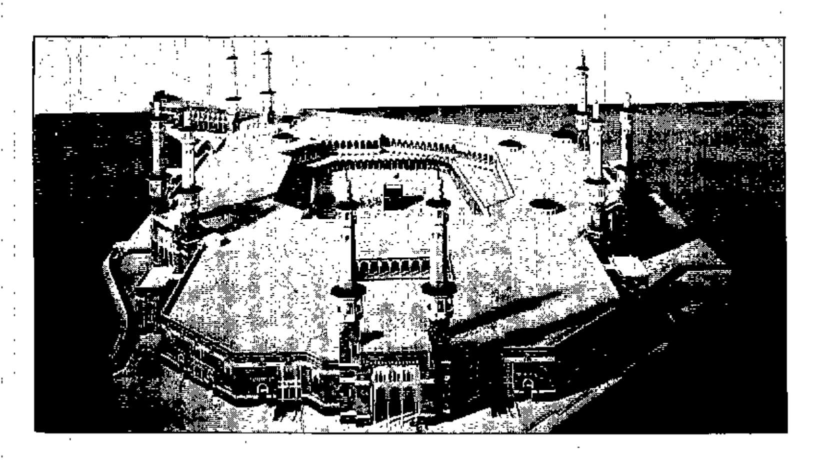
لقد أتى عليه السلام إلى مكة بقصد أداء العمرة والرجوع إلى المدينة دون أن يكون له أي مقصد آخر، ولكن أبى الله إلى أن يجعل في هذا التحرك الخير كل الخير للدعوة الاسلامية، ويزيح من حولها العراقيل والمعوقات، وإذا كانت قريش لم تسمح له بزيارة البيت العتيق والطواف به هذا العام فإن الأبواب جميعها فتحت أمامه مستقبلا وخلال عشر سنوات، إنه فتح مبين تحقق بهذا التحرك، هيأه الله للاسلام والمسلمين.

لقد ابتدأت المفاوضات بين الرسول عليه السلام وبين سهيل رئيس الوفد القرشي بأن قدّم سهيل اعتذاراً للرسول ﷺ مما قام به بعض المتهورين الذين حاولوا اختراق صفوف المسلمين أثناء ليلة من الليالي ليفتكوا بهم، فكانت النتيجة أن اعتقلتهم حراسة المسلمين، كما اعتذر عما وقع لعثمان بن عفان ومن معه حيث وقع اعتقالهم لمدة وجيزة، ثم طلب من رسول الله أن يقع تبادل الأسرى بين قريش وبين المسلمين، ليتحسن الجو التفاوضي، فقبل الرسول هذا الطلب في الحين وأمر بإطلاق سراح كل المعتقلين من الكفار، مقابل سماح المتحجزين من المسلمين الذين وقع سراحهم هم أيضاً، ثم أخذ سهيل يذكر الشروط التي تقع على أساسها الهدنة، وجعل في طليعتها أن يدخل المسلمون والرسول مكة ولكن في العام القادم لا في هذا العام، لأن قريشاً حريصة على أن لا تفقد مكانتها وسمعتها لدى القبائل إذا ما دخل المسلمون مكة هذه السنة، فلا بأس اتقاء لما يقال أن يتأخر الدخول إلى السنة القادمة. فرأى رسول الله ﷺ وهو الطبيب والسياسي والرسول الموحى إليه أن هذا التأخير لا يضر، مادام مضموناً للسنة القادمة وللسنوات التي تليها، ومادام هذا الشرط يمنع إراقة الدم الحرام، ولا يضيع للمسلمين أية مكانة. بل يضمن زيارة مكة والطواف بالبيت في أمن وأمان في السنة القادمة، وينهي حالة الحرب التي كانت قائمة بين قريش والمسلمين لمدة عشر سنوات مقبلات، وكل هذه الشروط فيها مصلحة محققة للمسلمين، ولكن سهيلا زاد طالباً شروطاً أخرى لاشك أن رسول الله ﷺ قبل البعض ورفض الآخر اما التي قبل فهي أن تترك الحرية للقبائل المجاورة لتنضم لمن أرادت من المعسكرين المتنازعين : معسكر الرسول، ومعسكر قريش، ويتعهد الطرفان أن لا يمسا بسوء من ينضمّ لأي معسكر يشاء وتعتبر الاساءة

إلى القبائل المتعاهدة إلى معسكر من المعسكرات إساءة للطرف الذي دخل في جواره، ومفسداً ومبطلاً للاتفاق السلمي الذي سيوقع عليه الطرفان، وأما الشروط التي لاشك أن رسول الله ﷺ رفضها وأدت إلى الجدال والمناقشة ورفع الأصوات، فهي ما طلبه سهيل (بأن يلتزم النبي ﷺ بأن يرد إلى قريش كل من جاء من أبنائها هارباً بعد إبرام هذه الاتفاقية، ولو كان مسلماً) وأن لا يطبق هذا الشرط على المشركين الذين يهربون من المدينة ويلتحقون بمكة أي إذا ما ارتدوا عن الاسلام بعد إسلامهم.

هذه هي الخطوط الرئيسية التي عرضها سهيل ووقع الاتفاق عليها بعد المناقشة والجدال، والتي أثارت المعارضة الشديدة القوية من جماعات المسلمين وفي طليعتهم عمر بن الخطاب، فلقد جاء في البخاري عن عمر أنه قال : فأتيت النبي ﷺ فقلت : ألستَ نبيّ الله حقاً ؟ قال : بلى، قلت : ألسنا على الحق، وعدونا على الباطل، قال : بلى، أليس قتلانا في الجنة، وقتلاهم في النار ؟ قال : بلى. قلت : فلم نعط الدنية في ديننا إذاً ؟ (إذاً بالتنوين) قال : انى رسول الله ولست أعصيه، وهو ناصري، قلت : أوَليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به ؟ (يشير بهذا السؤال إلى رؤيا كان رآها رسول الله ﷺ وحدَّثهم بها، وكانت هذه الرؤيا بشرت النبي عليه السلام بأنه سيدخل البيت ويطوف به هو وأصحابه، وهي التي تشير إليها الآية الكريمة التي تقول : «لقد صَدَقَ اللّه رسُولَه الرؤيا بالحَقّ لتدْخُلُنّ المسجِد الحرام إن شاء الله آمنين، مُحلّقين رُؤوسكم ومُقصِّرين لا تَخافون). قال بلى، أفأخبرتك أنا ناتيه العام ؟ (أي هذا العام) قلت : لا. قال : فإنك آتيه، ومُطّوِّف (بفتح الطاء وكسْر الواو الثقيلتين) به، قال عمر : فأتيت أبابكر، فقلت : ياأبابكر، أليس هذا نبيّ الله حقاً ؟ قال : بلى. قلت : ألسنا على الحق وعدوُّنا على الباطل ؟ قال : بلى، قلت : فلِمَ نُعط الدنيّة في ديننا إذاً ؟ قال أبوبكر : أيها الرجل، انه رسول الله، وليس يعصى ربه، وهو ناصره، فاستَمسك بغرزه (أي تمسّك بأمره وأطعْه ولا تخالفه) فوالله انه على الحق، قلت : أوَليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به، قال : بلى، أفأخبرك أناناتيه العام، قلت : لا، قال : فإنك آتيه ومطوف به. لقد كان عمر بن الخطاب غير راض عن هذه الاتفاقية التي

سيبرمها الرسول عليه السلام مع كفار قريش، معتبراً إياها غير عادلة، ولذلك انفعل انفعالا شديداً عندما رأى أنها ستدخل حيز التطبيق، ومع ذلك فإنه ندم أشد الندم لمراجعته رسول الله ﷺ فقال : لقد دخلني أمر عظيم، وراجعت النبي ﷺ مراجعة ما راجعته مثلها قطّ، فما وقع بعد ذلك ؟



رسم للبيت الحرام يوضح معالم التوسعة الجديدة

صُلح الحديبيَة وَقصّة أبي جَنْدَل

كان الموقف امتحاناً عسيراً للمسلمين، فهم مومنون كل الإيمان بأن الرسول ﷺ لا ينطق عن الهوى، ولا يقرر إلا ما فيه خير الاسلام والمسلمين، وما فيه صلاح الدعوة الاسلامية التي بدأت تتسع وتعتنقها القبائل العربية، ويكثر أنصارها هنا وهناك، فلقد أصبحوا قوة لا يستهان بها، وأصبحت قريش تحسب لهم كل حساب، فكيف مع هذا كله يقبلون الصلح مع المشركين على أساس ما طلبه سهيل بن عمرو، رسول قريش إلى رسول الله ﷺ، لقد امتعضوا كل الامتعاض من هذا الصلح الذي اعتبره البعض منهم دنية، وزاد في امتعاض ما كانوا يعتقدونه من أنهم سيدخلون المسجد الحرام آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين، طبق ما حدثهم به رسولهم الأمين الذي لا ينطق إلا بالحق. وكان النبي عليه السلام حدثهم أنه رأى رؤيا منامية أنهم سيدخلون مكة آمنين، ورؤيا الأنبياء حق كما هو معلوم. قال أبو سعيد الخدري أحد العشرة المبشرين بالجنة رضي الله عنه يصف الحالة التي كان عليها الصحابة عندما علموا بالشروط والبنود التي وضعت في صلح الحديبية قال : (وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يكرهون الصلح، لأنهم لا يشكون في الفتح، لرؤيا رسول الله ﷺ، أنه حلق رأسه، وأنه دخل البيت، فأخذ مفتاح الكعبة، وعرَّف مع المعرفين، فلما رأوا الصلح، دخل الناس من ذلك أمر عظيم) وكان في طليعة الذين انزعجوا من هذا الصلح ــ كما ذكرنا من قبل ــ عمر بن الخطاب الذي حاور رسول الله ﷺ في الأمر، واعترض اعتراضاً ندم عليه من بعد، وكفّر عليه بالصيام والصدقة طول عمره، لأنه بقي ضميره دائماً يؤنبه، كيف جاز له أن يعترض على رسول الله وهو مومن كل الايمان أنه رسول الله، ولا يقوم بعمل كهذا إلا طبق المنهج الذي دعاه إليه ربه سبحانه وتعالى ؟ لقد وضع ما أمر به رسول الله ﷺ في كفّة، ووضع رأيه الشخص في الكفّة الأخرى، ثم غلّب رأيه الشخصي على أمر

الرسول فاعترض على الرسول قائلا : ألست برسول ؟ أو لسْنا بالمسلمين ؟ فعلَامَ نعطي الدنية في ديننا ؟ فيجيبه رسول الله ﷺ جواب الرسول المومن المصدق لربه : (أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره، ولن يضيعني). إنه عبد الله ورسوله حقاً وصدقاً، ولا يمكنه بحال من الأحوال أن يخالف أمر ربه، وقد هداه الله لهذا الصلح الذي تراءى لعمر أن فيه الدنية، ولكنه سيأتي بالفتح المبين الذي سيبقى حجة على المخالفين الذين يُصدرون أحكامهم استناداً على ظواهر الوقائع، ولا ينفذون إلى أسرار نتائجها التي تخفى على المستعجلين، الذين بعد ما تتضح أمام أعينهم في المستقبل نتائجها يندمون على أحكامهم المستعجلة ويتمنون لو أدركوا حقائقها وما كانت ترمي إليه، وتلك طبائع الناس في كل زمان ومكان، وأمام كثير من الأحداث.

وبينما المنزعجون في كربهم، والجميع ينتظر تطبيق ما وقع عليه الاتفاق من شروط الصلح، وكتابة وثيقة به، إذ يقع حدث يزيد الوضع تأزماً، ويخلق جواً يربك المسلمين جميعهم على اختلاف نظراتهم إلى هذا الصلح الذي عقد مع قريش، كان ذلك الحدث مفاجئاً ومثيراً في الوقت نفسه، إذ ماكاد ينتهي حديث رسول الله ﷺ مع سهيل بن عمرو بالاتفاق على ما اتفقا عليه من شروط الصلح حتى يطلع عليهما شاب مسلم يرسف في إغلاله وقيوده، أتى هارباً من اضطهاد القرشيين، ملتحقاً بجماعة المسلمين الموجودة بالحديبية، معتقداً كل الاعتقاد أنه فر بدينه ليستنجد بإخوانه في العقيدة والدين ليحموه من اضطهاد المشركين له، كان اسم هذا الشاب الفارّ بدينه، المتحمّس لعقيدته الاسلامية : «أبا جندل» وكان أبوه هو الجالس أمام رسول الله ﷺ يفاوضه في بنود الصلح، أي سهيل بن عمرو الذي بعثته قريش ليفاوض رسول الله ﷺ في عقد الصلح، وماكاد سهيل يرى ابنه الشاب المسلم وقف أمام رسول الله ﷺ وهو على الحالة التي كان عليها يرسف في قيوده، حتى جن جنونه، واشتد غيظه، وانتفخت أوداجه، وارتبك أيما ارتباك، ولم يشعر إلا وهو واقف مسرع إلى ابنه الشاب المسلم الذي فر من سجنه وعذابه وآلامه ليلتحق بإخوانه المسلمين وبرسوله الصادق الأمين، لم يشعر إلا وهو ينقض عليه انقضاضاً، فيضربه الضرب المبرح، ويأخذ بتلابيبه، محاولا أن يرده بالقوة والعنف إلى

معسكر المشركين للانتقام منه، وتسليط أنواع العذاب عليه، محدثاً نفسه دون شك كيف صاغ لولده الذي يعتبره عاقاً أشد العقوق أن يلتحق بمعسكر المسلمين ويفر من السجن، ويطعن في ما جاء من أجله كرسول لقريش ؟ كيف صاغ له أن يجعله أضحوكة أمام المسلمين الذين أتى لصرفهم عن دخول مكة هذا العام ؟ ها هم المسلمون يرون ابن ممثل الكفار المفاوض باسمهم، يأتي إلى رسول الله ﷺ ليؤكد أنه برئ من دين الكفار، متعلق بدين الاسلام، لا يرغب أن يبقى مع والده الكافر وجماعة المشركين، ويريد أن يعيش مع جماعة المسلمين، وفي صحبة رسول رب العالمين، ويشتد خناق سهيل لابنه (أبي جندل) وضربه له وهو على تلك الحال من الشدة والألم، والعذاب، والرسف في الاغلال، محاولا دفعه بقوة وعنف إلى معسكر المشركين، فيصيح (أبو جندل) وهو على تلك الحال : (يامعشر المسلمين أأردُّ إلى المشركين فيفتنونني في ديني ؟) وينطق سهيل وهو على حالته من الغضب قائلا مخاطبا رسول الله ﷺ : (هذا يامحمد، أول ما أقاضيك (أي أحاكمك) عليه، أن تردّه إليّ) فيجيبه عليه السلام : (انا لم نقض الكتاب بعد) أي لم ننته من كتابة عقد الصلح بعد، فيجيبه سهيل : (فوالله لا أصالحك على شيء أبداً) أي ليس بيننا صلح مطلقاً إن لم تردّ لي ابني، ويتأزم الموقف تأزماً كبيراً، والمسلمون ينظرون إلى ذلك الشاب المومن الصادق يؤكد تمسكه بالدين الذي اعتنقه رغبة فيه وحباً لرسوله، ويستغيث بإخوانه المسلمين حتى لا يطغى عليه أبوه، فيزيد في اضطهاده وتعذيبه وضربه والدفع إلى معسكر المشركين بالقوة والإرهاب، ولا يكفي ذلك الأب ما فعله ويفعله بولده، فيخاطب الرسول عليه السلام قائلا : لابد أن ترجعه ولا تقبله طبقاً للاتفاق الذي وقع اتفاقنا عليه، وإلّا تفعل، فلا صلح بيننا ولا اتفاق. ويحاول الرسول أن يقنع سهيلاً بأن الاتفاق لازال لم يدخل حيز التطبيق، ولازال لم يكتب، وإنما هو اتفاق شفوي أو هو بلغة العصر شبه الاتفاق الموقع عليه بالأحرف الأولى، ولكن سهيلا وهو في حدة غيظه، لا يقبل ما قاله الرسول، ويهدد ببطلان كل ما وقع الاتفاق عليه، من هُدْنة عشر سنوات، والموافقة على الدخول إلى مكة في العام القادم إلى غير ذلك من النقط التي وقع عليها الاتفاق، ويفكر الرسول في الأمر، وينظر في العواقب التي

ستحدث إن لم يوجد حل لهذا المشكل الذي طرأ بمجيء «أبي جندل» فيحاول أن يؤثر على سهيل من الجانب العاطفي فيقول له عليه السلام : (أجزه لي) أي استثنه لي، واقبل أن تتركه معنا عن طيب خاطر منك، ولكن «سهيلا» يرفض الرفض القاطع : إما إرجاع ابنه إلى صفوف المشركين وإما القطيعة وبطلان الاتفاق. كان الرسول عليه الصلاة والسلام في موقف صعب جداً، فبمقتضى ما وقع عليه الاتفاق ولو كان قولياً، يجب أن يرجع أبا جندل إلى قريش، وبمقتضى استغاثة هذا الشاب وخوفه من أن يضغط عليه حتى يرجع إلى الكفر، تجب إغاثته وقبوله وعدم إرجاعه، والمسلمون وبالأخص منهم أولئك المتشددون أمثال عمر بن الخطاب، يتطلعون دون شك إلى عدم إرجاع الشاب إلى الكفار، ولكن ما معنى الاتفاق والعقود إذا لم يكن لهما تطبيق ؟ ومَن الذي يوفي بالعهود إذا لم يوف بها رسول رب العالمين، إن العهد لازال لم يكتب، ولكن الطرفين معاً أقرّا نقطه واتفقا عليها، وأخبار الاتفاق شاعت وذاعت وملأت الاسماع، فقبلها من قبلها، واعترض عليها من لم يدرك أسرارها وما ترمي إليه من هدنة يعقبها فتح من الله ونصر قريب، وهل يمكن أن يقبل رسول الله ﷺ أن يشيع عنه لدى أهل مكة جميعاً ولدى القبائل الأخرى أنه وقد كان يسمى بالأمين حتى قبل أن تنزل عليه الرسالة ان يشاع عنه أنه لا يوفي بالعهد، ولا يحترم المواثيق. ويُمعن النظر عليه السلام في كل هذا، ويقارن دون شك بين مصلحة الفرد، ومصلحة الدعوة، فيغلب جانب مصلحة الدعوة على مصلحة الفرد، فيخاطب أبا جندل قائلا عليه السلام (ياأبا جندل، أصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك (أي من المومنين المستضعفين الذين لازالوا في قبضة الكفار) فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، وأعطيناهم وأعطونا على ذلك عهداً، وانا لا نغدر) ويستمع أبو جندل لنطق رسول الله ﷺ، ويدرك معناه ومغزاه، وتزيد ثقته في الله وتصديقه لرسول الله بأن الله جاعل له ولاخوانه المستضعفين فرجاً ومخرجاً، فيستسلم لأبيه وهو مطمئن تمام الاطمئنان ويرجع راضياً لمعسكر المشركين، ليوضع في السجن والامتحان، وليفكر في الهرب من السجن مرة أخرى كذلك، فماذا وقع بعد ذلك ؟ بمجرد انطلاق (أبي جندل إلى معسكر المشركين، يشعر المرافقان لسهيل بن عمرو في المفاوضات وهما : حويطب بن عبد العزى

ومكرز بن حفص أن «سهيلا» سينتقم من ولده أبي جندل شر انتقام بعد أن صار في قبضة يده، ويستعرضان في ذهنهما موقف رسول الله ﷺ من أبي جندل رغم أنه من الشباب المسلم المتحمس، وتغليبه جانب الوفاء بالعهد على العاطفة المتأججة في نفسه ونفوس المسلمين نحو ذلك الشاب وان هذا الموقف الذي وقفه الرسول يتطلب جواباً مرضياً يحمده لهما المسلمون والرسول عليه السلام فيعلنان في الحين بأن أبا جندل سيدخل في حمايتهما ويقولان للرسول عليه السلام : يامحمد، نحن نجيره لك، أيْ هو داخل في جوارهما فلا يستطيع أبوه أن ينتقم منه، ويكون هذا الجوار أو الحماية بداية الفرج لأبي جندل كما أخبر به رسول الله ﷺ عندما خاطب أبا جندل : اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك فرجاً ومخرجاً، ورغماً عن هذا كله، فقد بقي المعارضون للاتفاق متألمين، محاولين أن لا تكتب الوثيقة وتقرر. ولكن الرسول ﷺ يحسم في الأمر فينادي على عليّ بن أبي طالب، ويأمره بكتابة ما سيمليه عليه من شروط الصلح التي اتفق عليها مع سهيل بن عمرو، يقول الرسول لعلي : (أكتب بسم الله الرحمان الرحيم، فيجيبه سهيل : أما الرحمان فوالله ما أدرى ما هو، ولكن اكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب أي كما كانوا يكتبون في الجاهلية، وتثور ثائرة الصحابة لهذا الاعتراض من سهيل. ويرون في ذلك رفضاً وطعناً فيما يعتقدونه من أن الله هو الرحمان الرحيم، ويصرون على أن تكتب الصيغة كما أملاها رسول الله، لا كما أرادها سهيل مخاطبين علياً كرم الله وجهه : لا تكتبها إلا بسم الله الرحمان الرحيم، وتتوتر الأعصاب مرة أخرى من الطرفين، فيتدخل الرسول وهو النبي الحكيم العارف بما يهدف إليه، وما سيحققه من هذا الاتفاق، فيقول لعلي : اكتب باسمك اللهم، ويمضي عليه السلام في إملائه على عليّ : هذا ما قاضى (وفي رواية : ما اصطلح) عليه محمد رسول الله أهل مكة، فيتدخل في الحين سهيل بن عمرو مرة أخرى قائلا : والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت وما قاتلناك، وفي رواية للبخاري : لا نقر لك بهذا، لو نعلم أنك رسول الله، ما منعناك شيئاً ولبايعناك، ولكن اكتب : محمد بن عبد الله، وفي رواية : اكتب اسمك واسم أبيك، فهاج الصحابة هياجاً شديداً، واستنكروا ما قاله سهيل

ووصل الأمر إلى أن بعض الصحابة من الأنصار وهما أسَيد بن حضير وسعد بن عبادة قاما ليمنعا عليا من التمادي في الكتابة إذا ما لم يكتب محمد رسول الله، بل كاد الأمر أن يصل إلى حد الاقتتال، معتبرين أن سهيلا بلغ به التحدي مبلغاً لا يمكن أن يقبل، فهو يطعن المسلمين وينكر عليهم أصل اعتقادهم. واعترض سهيل مرة أخرى قائلا : إنكم إذا كتبتم الصيغة التي أملاها الرسول عليه السلام فإنكم تلزموننا الاعتراف بما لم نعترف به من رسالة محمد، وهذا ما لا نقبله بحال من الأحوال، فالوثيقة ستوقع من الطرفين : المسلمين والمشركين، وهي حسب الاصطلاح العصري القانوني وثيقة رسمية وكل لفظة فيها تلزم الطرفين معاً، كل هذا ورسول الله ﷺ ينصت بتأنٌ وهدوء لما يتبادله الطرفان ثم يقرر التدخل في الأخير حسماً للنزاع فيأمر علياً أن يكتب محمد بن عبد الله بدل محمد رسول الله. وفي رفض سهيل كتابة (الرحمان) نزلت الآية الكريمة (قُلِ ادْعُو اللّهَ أو ادْعُو الرحْمَان أيّاً مَا تدْعو فلَه الأسْماء الحُسْنى) ثم يكتب على الصيغة النهائية لمعاهدة الصلح وهي هذه : (باسمك اللهم، هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو، اصطلحا على وضع الحرب عشر سنين، يأمن فيها الناس، ويكف بعضهم عن بعض، على أنه لا إسلال (الإسلال : السرقة الخفية) ولا إغلال (الاغلال : الخيانة) وأن بيننا عَيبة مكفوفة (أي ليس بيننا حقد وعداوة) وأنه من أحبّ أن يدخل في عهد محمد وعقده دخل، وأنه من أحب أن يدخل في عهد قريش وعقدها فعل، وأنه من أتى محمداً منهم بغير إذن وليه ردّه إليه، وأنه من أتى قريشاً من أصحاب محمد لم ترده، وأن محمداً يرجع عنا عامه هذا بأصحابه، ويدخل علينا قابل (أي في العام القابل) في أصحابه، (أي مع أصحابه) فيقيم ثلاثاً، لا يدخل عليها بسلاح، إلّا سلاح المسافر، السيوف في القُرَب) هذا هو النص الوارد في صحيفة صلح الحديبية على مختلف الروايات وهو الذي أثار ضجة قوية في صفوف صحابة رسول الله ﷺ، وخصوصاً البند الذي يلزم الرسول أن يرد من يرد عليه من المسلمين الواردين من مكة دون إذن من أوليائهم، وعدم ردّ الذين يردون على قريش من المدينة المنوّرة من المرتدين والمنافقين. لقد كتبت هذه الصحيفة في نسختين : إحداهما بقيت عند رسول الله ﷺ، والثانية أخذها سهيل بن

عمرو. ولقد وقع على هذه الوثيقة شهود من الجانبين فمن جانب المسلمين : أبوبكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعبد الرحمان بن عوف وسعد بن أبي وقاص وأبو عبيدة بن الجراح وكل هؤلاء من العشرة المبشرين بالجنة وأضيف إليهم الصحابي : محمد بن مسلمة الأنصاري. أما الموقعان الشاهدان من المشركين فهما : حويطب بن عبد العزّى ومكرز بن حفص بن الأخيف، وبهذا التوقيع من الجانبين انتهت المشاكل المستعصية التي وقعت في المعسكر الاسلامي، وانفتحت الطرق أمام الدعوة الاسلامية، حيث لم يبق مبرر ولا موجب للعراقيل التي كان يضعها القرشيون أمام الدعوة الاسلامية في مختلف القبائل، وأصبحت الحرب ممنوعة بين الفريقين طوال عشر سنوات، وأضحت القبائل التي تريد أن تدخل في حوزة المسلمين وعهدتهم، مفتوحة أمامها الأبواب، وهكذا وفي الحين دخلت قبيلة (خزاعة) في حوزة المسلمين، وتوقف القتال الذي كان مشتعلا بينها وبين قبيلة كنانة التي دخلت بدورها في حوزة القرشيين.

بعد التوقيع على وثيقة الصلح التي لم يستسغها كثيرون من الصحابة، لم يبق أمل في الدخول إلى مكة والطواف بالبيت خلال العام، ولم يبق موجب لبقاء المسلمين في إحرامهم. فطلب منهم رسول الله ﷺ أن يفكوا إحرامهم ويحلقوا رؤوسهم أو يقصروا إن شاءوا، وأن ينحروا هديهم، ولكنهم لم يمتثلوا أول الأمر، وشق عليهم ذلك، حيث رأوا أن أمنيتهم في الدخول إلى مكة لم تتحقق. قال أرباب السير : فاغتمّ رسول الله ﷺ لعدم امتثالهم ودخل خيمته التي كان يسكنها في الحديبية غاضباً، وكانت توجد بالخيمة امرأته أم سلمة، فلما رأته غاضبا مستاء، وحكى لها موقف الصحابة وعدم امتثالهم لما أمرهم به من النحر والحلق، قالت له يارسول الله ما معناه : لا تطلب منهم مرة أخرى أن ينحروا ويحلقوا، وإنما أرى أن تمضي أنت فيما أمرت به، فتنحر هديك وتحلق رأسك، وتتحلل من إحرامك، فإنهم عندما يرون أنك نحرت وحلقت يقتدون بك حتماً، وهكذا عمد رسول الله ﷺ إلى فك إحرامه بالنحر والحلق، وعمل بما أشارت عليه به زوجته الصادقة أم سلمة رضي الله عنها، فما كاد ﷺ يشرع في النحر حتى اقتدى به كل الصحابة فقاموا ونحروا وجعل بعضهم يحلق لبعض، قالت أم

سلمة : فكأني أنظر إليه حين يهوى بالحِربة إلى البدلة، رافعاً صوته : بسم الله والله أكبر، قالت : فما هذا إلا أن رأوه نحر، فتواثبوا إلى الهدى، فازدحموا، حتى خشيت أن يغمّ بعضهم بعضاً، فقال رسول الله ﷺ بعد ذلك : رحم الله المحلقين ثلاث مرات فقيل له والمقصرين يا رسول الله ؟ قال والمقصرين، فقالوا له : ولم ظاهرت المحلقين دون المقصرين أجاب قائلا : لأنهم لم يشكوا.

دروس من صلح الحديبية

عندما أطلنا الحديث عن صلح الحديبية، كنا نرمي إلى الإمعان في سيرة رسولنا العظيم ﷺ وتوجهاته في تسيير شؤون أمته، وحكمته في القرارات التي كان يتخذها، سواء في مجال السلم، أو في مجال الحرب، معتبرين أنه عليه السلام هو المثل الأعلى، والقدوة الصالحة في كل مجالات الحياة الانسانية. وقصة الحديبية تعطي المسلمين دروساً متعددة في الانضباط والحكمة وحسن السياسة والتدبير، وإزالة العراقيل عن طريق تحقيق الأهداف المتوخاة، والتبصر في كل قرار يمكن أن يتخذ، حتى لا ينتج عنه ما يقف عائقاً أمام تحقيق الأهداف، والقرارات التي اتخذها رسول الله ﷺ سواء في طريقه إلى الحديبية أو أثناء وجوده فيها، سواء وهو يبعث البعوث إلى القرشيين ليشرحوا لهم أنه لم يأت مكة إلا بقصد العمرة دون قصد للحرب وسفك للدماء، أو عندما بلغه أنهم اعتدوا على رسوله إليهم : عثمان بن عفان من دعوته واستنفاره لجميع المسلمين الموجودين معه، كي يكونوا على أهبة الاستعداد للمعارك إن اقتضى الحال إلى غير ذلك من القرارات والاحتياطات التي كان يتخذها وهو يواجه قريشاً، كل ذلك يفتح أعين المنتمين لهذا الرسول العظيم، المتمسكين بسنته وشريعته على ضرورة انتهاج طريقته في الدعوة والتبليغ والتسيير، حتى ينجحوا كما نجح، وينتصروا كما انتصر، ويفلحوا كما أفلح.

لقد غاب عن كثير من أساطين الصحابة ما كان يهدف إليه عليه السلام وما يرمي إليه وهو يقبل الشروط التي أملتها قريش، اعتبروا قبولها دنيّة، كما صرح بذلك عمر بن الخطاب وهو في فورة غضبه، ولكن لم تمض إلا أيّام وشهور، حتى أصبحت تتجلى لهم حقائق غابت عنهم، ومصالح تحققت، ما كان لها أن تتحقق لولا حكمة رسول الله وحسن سياسته في التدبير والتوجيه، لقد كان صلح الحديبية فتحاً من الله تعالى كما تحدث عن ذلك كتاب الله عز وجل

(انا فتحنا لك فتحاً مبيناً) ولكن الذين لم يكونوا ملمين بشؤون تسيير الأمم والحركات والأحداث، نازعوا في هذا الفتح، واعتبروه هزيمة. فلقد روى موسى بن عقبة في حديثه عن الزهري، وأخرجه البيهقي عن عروة قال : أقبل النبي ﷺ راجعاً، فقال رجل من أصحابه : ماهذا بفتح، لقد صُدِدْنا عن البيت، وصُدّ هديُنا، وردّ ﷺ رجلين من المومنين، كانًا خرجا إليه (يعني أبا جندل وأبا بصير)، فبلغه ذلك ﷺ فقال : ويسألوكم القضية، ويرغبون إليكم في الأمان. ولقد رأوْا منكم ما كرهوا، وأظفركم الله عليهم، وردكم سالمين مأجورين، فهو أعظم الفتوح، أنسيتم يوم أحد، إذ تُصْعِدُون ولا تَلْوُونَ عَلَى أحَد، وأنَا أدعوكم في أخْراكُم ؟ أنسيتُم يوم الأحزاب (إذْ جاءُوكُم مِنْ فَوْقِكُم ومِن أسْفَل مِنكمْ ؟ وإذْ زاغت الأبْصَار وبلَغَتِ القُلوبُ الْحَنَاجِرَ وتظُنُّون باللّهِ الظّنُونا ؟) فقال المسلمون : صدق الله ورسوله، هو أعظم الفتوح واللهِ يانبيّ الله، ما فكّرنا فيما فكرت فيه، ولأَنْتَ أعلَمُ بالله وبأمْرِه منا.

لقد تحدث أرباب السنيز القدماء والمحدثون عن الدروس التي أفرزها صلح الحديبية، ففي سيرة ابن إسحاق عن الزهري قال : (ما فُتح في الاسلام فتح قبل صلح الحديبية، كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة (هدنة الحديبية) ووضعت الحرب، وأَمِن الناس بعضهم بعضاً، والْتَقَوْا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة فلم يكلم أحد بالاسلام يعقل شيئاً، إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان في الاسلام قبل ذلك أو أكثر) ومعنى هذا أن صلح الحديبية، وتحقيق السلام في المنطقة، وفيما بين القبائل المتناحرة بسبب دخول بعضهم في حلف رسول الله، وبعضهم في حلف القرشيين، فتح الطريق أمام الدعوة الاسلامية، فانخرط المسلمون مع غيرهم، وصار الكفار يتعرفون إلى حقيقة الاسلام في مبادئه وحقائقه وما يدعو إليه من إصلاح عقائدي واجتماعي وتربوي، وما يغرس في أتباعه من مبادئ مثلى، وسمو إنساني، وتعشق للفضيلة، وتعاون على الخير والتقوى، وتحاب في الله ونصرة للحق، وكف للظلم، ومحو للفوارق الجنسية والقبلية واللغوية واللونية، فالناس كلهم عيال الله، والمسلمون كأسنان المشط، والناس سواسية لا تفاضل بينهم إلّا بالتقوى، والمومنون إخوة، ولا يؤمن أحدهم حتى يحب لأخيه ما يحب

لنفسه، ثم يطلعون من خلال ما يحكى لهم عن التقاء المهاجرين بالأنصار، وكيف قابل الاخيرون الأولين عندما هاجروا من مكة إلى المدينة، وتعاملوا معهم، وتأكدوا من خلال ما تعرفوا عليه، ان الدعايات الكاذبة التي كان ينشرها صناديد القرشيين ضد رسول الله ﷺ وضد دعوته، دعايات مُضلة، لا تمت إلى الحقيقة بشيء، ورأوا بأم أعينهم أن أشخاصاً كانوا يعرفونهم حق المعرفة، تغيروا تغيراً حقيقياً بعد اعتناقهم للاسلام، فلقد كانوا في جاهليتهم معروفين بالنزق والطيش والعدوان على الغير، فأصبحوا بعد إسلامهم أمثلة صالحة في السلوك المستقيم، والترفع عن الدنايا، والابتعاد عن كل ما يشين، إلى غير ذلك من الحقائق التي انكشفت لهم بعدما اتصل بهم المسلمون عن قرب وعايشوهم وساكنوهم، فصاروا يتساءلون مع أنفسهم ومع بعضهم بعضاً، وخصوصاً العقلاء والشباب منهم : ان ما يقال عن محمد ﷺ من دعايات من أنه ساحر كذاب أو مجنون معتوه، أو شاعر أو كاهن، كل ذلك لا يمت إلى الحقيقة بشيء، فلا معنى لأن يبقوا منصاعين للدعايات الكاذبة، بعدما اتضحت الحقائق، وتميز الحق من الباطل، وهذا ما دفع الكثيرين وبعد صلح الحديبية أن يعلنوا تبرأهم مما كانوا يعتقدونه، والتحاقهم بجماعة المسلمين. وهكذا نرى خالد بن الوليد وما أدراك ما خالد بن الوليد، بعدما كان يترأس جيشاً لمنع رسول الله ﷺ من الدخول إلى مكة، لا يمضي على صلح الحديبية إلا بضعة شهور حتى يقف على الصّفا ويصيح بأعلى صوته : يامعشر قريش لقد استبان لكل ذي لب أن محمداً ليس بساحر ولا كذاب، وأن على كل ذي عقل أن يتبعه، ثم يأخذ سلاحه ويركب فرسه ويتجه إلى المدينة المنورة ليعلن إسلامه أمام رسول الله هو وصاحبان له هما : عثمان بن طلحة العبدري وعمرو بن العاص السهمي، ثم يتتابع المصدقون لرسول الله ﷺ، المومنون برسالة الاسلام حتى يبلغوا الآلاف، وكل ذلك نتيجة فتح الطريق أمام الدعوة الاسلامية، ونتيجة صلح الحديبية الذي لم يدرك حقيقته ومغزاه إلا القليلون.

لقد كان صلح الحديبية فتحاً عظيماً، وحقق الله به للمسلمين والاسلام كثيراً من المكاسب غير ما ذكرنا، فمن ذلك ما ذكره الامام ابن القيم في زاد المعاد حيث قال : كانت (أي الهدنة) مقدمة بين يدي الفتح الأعظم الذي أعز

الله به رسوله وجنده، ودخل الناس به في دين الله أفواجاً، فكانت هذه الهدنة باباً له ومفتاحاً ومؤذناً بين يديه، وهذه عادة الله في الأمور العظام التي يقضيها قدراً وشرعاً، ان يوطئ لها بين يديها بمقدمات وتوطيآت تؤذن بها، وتدل عليها، ثم يؤكد أن هذه الهدنة من أعظم الفتوح، لأنّ الناس أمِنَ بعضُهم بعضاً، واختلط المسلمون بالكفار، ونادوهم بالدعوة، وأسمعوهم القرآن، وناظروهم على الاسلام جهرة آمنين، وظهر من كان مختفيا بالاسلام، وكان في الصورة الظاهرة ضيماً وهضماً للمسلمين، وفي الباطن عزاً وفتحاً ونصراً، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم.

وربما كان مكروه النفوس إلى محبوبها ما مثله سبب

وعندما تحدث صاحب المواهب اللدنية عن صلح الحديبية قال : (ان المصلحة المترتبة على إتمام هذا الصلح، ما ظهر من ثمراته الباهرة، وفوائده المتظاهرة، التي كانت عاقبتها فتح مكة، وإسلام أهلها كلهم، ودخول الناس في دين الله أفواجاً، وذلك أنهم قبل الصلح لم يكونوا يختلطون بالمسلمين، ولا تتظاهر عندهم أمور النبي ﷺ كما هي، ولا يخلُون بمن يعلمهم بها مفصلة، فلما حصل صلح الحديبية، اختلطوا بالمسلمين، وجاءوا إلى المدينة، وذهب المسلمون إلى مكة، وخلوا بأهلهم وأصدقائهم وغيرهم ممن يستنصحونهم، وسمعوا منهم أحوال النبي ﷺ ومعجزاته الظاهرة، وأعلام نبوته المتظاهرة وحسن سيرته وجميل طريقته، وعاينوا بأنفسهم كثيراً من ذلك، فمالت نفسهم إلى الإيمان، حتى بادر خلق منهم إلى الاسلام قبل فتح مكة، فأسلموا فيما بين صلح الحديبية وفتح مكة). ويزاد على ذلك أن صلح الحديبية كان سبباً في إنقاذ المسلمين الذين بقوا بمكة ولم يستطيعوا أن يهاجروا، فلو كانت الحرب بين المسلمين والكفار، لانتقم الكفار من المستضعفين الذين كانوا في حوزتهم، ونكلوا بهم أشد تنكيل (وهُوَ الَّذي كَفَّ أَيْدِيَهُم عَنكُمْ وَأَيْدِيكُمْ عنهُم ببطْنِ مكَّةَ مِنْ بعْد أن اظْفَرَكُمْ علَيْهم) ولو كانت الحرب إذذاك لقتل من المسلمين الكثير ومن المشركين كثير، ولمَا ربح الاسلام أمثال خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعكرمة بن أبي جهل وأمثالهم من الذين كانوا متخمسين أشد الحماس لقتال الرسول ﷺ وصحبه في تلك الفترة، وما أن انعقد الصلح

ومضت شهور حتى انفتحت أعينهم على الحقائق التي كانوا يجهلونها، وأنار الله قلوبهم بنور الايمان، فكانوا سيوفاً مسلولة لمناصرة الاسلام، لا سيوفاً مشهرة ضد المسلمين، ولمّا أصبح خالد بن الوليد سيفاً من سيوف الله كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ، لقد كان المشركون يضايقون المسلمين ولا يعترفون بوجودهم كقوة فاعلة مؤثرة في تكوين المجتمعات وتأسيس الدول، حتى إذا كان صلح الحديبية اضطر المشركون للاعتراف بأن النبي العظيم وصحبه الكرام، أصبحوا يمثلون أمة لها كيانها الخاص بها، ولها دولتها المعتزة بإسلامها وان الاعتراف بهذه الأمة وهذه الدولة لا محيد عنه، وإلا فإنهم سيبقون سابحين في الخيال، مغرقين في الأحلام، لقد أدركوا أن مقاطعتهم لهذه الدولة الفتية، لم تجلب لهم إلا المتاعب والاستعداد للحروب، وما أحراهم وقد ثبت لديهم، وشاهدوا بأعينهم، أنهم بقوا السنوات العديدات يضايقون رسول الله ﷺ ويحاربونه، فما زادته حروبهم إلا قوة وتماسكاً مع أصحابه والمنتمين إليه، ومازادت الإسلام إلا انتشاراً ونفوذاً فليكونوا واقعيين، وليخضعوا حسب تعبير العصر لمنطق التاريخ، وليعقدوا هدنة مع محمد ﷺ، حتى لا تسبقهم الأحداث، ويملي عليهم الواقع ما لابد من إملائه، وزاد في إخضاع آرائهم ما رأوه بأعينهم أثناء وجود المسلمين في الحديبية من تعلق المسلمين بالرسول عليه السلام تعلقاً لم يسبق له نظير، حتى قال أحد سفرائهم إلى رسول الله يخاطب سادات مكة وزعماءها : (يامعشر قريش، اني قد جئت كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، وإني والله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد في أصحابه، ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً، فَرَوْا رأيَكم) لقد تأثروا بكل هذا، فانصاعوا للحقيقة التي كانت غائبة عنهم، وهي أن هذا الدين لابد أن ينتصر، وأن الرسول لابد أن ينجح، وأن المسلمين أصبحوا أمة مرموقة فارضة وجودها، فلا معنى للعناد والمكابرة، وليعقدوا مع محمد صلحاً يمكنه من الدخول إلى مكة في العام القابل ليؤدي العمرة ويطوف بالبيت، ويسعى بين الصفا والمروة، كما يسعى ويطوف جميع الناس، وهذا هو الفتح المبين الذي بشر الله به نبيّه في الرؤيا التي رأى أنه سيدخل البيت هو وصحبه آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين.

لقد نزلت سورة قرآنية خاصة تتحدث عن صلح الحديبية، معتبرة إياه فتحاً مبيناً، فلقد روى الزهري ــ كما جاء في سيرة ابن هشام ــ : ثم انصرف رسول الله ﷺ من وجهة ذلك قافلا، حتى إذا كان بين مكة والمدينة نزلت سورة «الفتح» (إنَّا فتحْنَا لكَ فتْحاً مُبيناً لِيَغْفِر لك الله ما تقدَّم مِن ذنْبكَ وما تأخَّرَ ويُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ويَهْدِيَك صِرَاطاً مُسْتَقيماً) قال أنس بن مالك ــ كما رواه الامام أحمد ــ نزلت على النبي ﷺ (ليغفِر لَكَ الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخر) مرجعه من الحديبيّة، قال النبي ﷺ : لقد أنزلت عليَّ اللّيلة آية، أحبّ إليَّ مِمَّا على الأرض، ثم قَرأها عليهم النبي ﷺ فقالوا : هَنيئاً مريئاً يانبيَّ الله، بيَّنَ الله عز وجَل ما يفعل بك، فماذا يفعل بنا ؟ فنزلت عليه ﷺ : (لِيُدْخِل المومنين والمومنات جنات تجري من تحتها الأنهار، حتى بلغ : فوزاً عظيماً).

وتتحدث السورة عن الاطمئنان والسكينة التي ملأت قلوب المومنين الذين استجابوا لله وللرسول، فلم يترددوا ولم ينكصوا على أعقابهم، ولم يتخلفوا عن رسول الله كما فعل المنافقون الذين يظنون بالله ظن السوء، بل ثبتوا وصبروا فتضاعف إيمانهم، وتقوى إسلامهم، وزادوا استمساكاً وتصديقاً برسول الله الذي أرسله شاهداً ومبشراً ونذيراً. ثم تتحدث السورة عن بيعة الرضوان : (ان الذين يبايعونك إنما يبايعون الله) (لقد رضي الله عن المومنين إذ يبايعونك تحت الشجرة) وتتحدث عن الناكثين للعهود، والموفين بها، وانه لا سواء بينهم، ثم تتحدث عن المخلفين من الاعراب الذين صاروا يختلقون الاعذار حتى لا يصاحبوا رسول الله لدى ذهابه إلى مكة، فاضحة لسرائرهم، وأنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، مثل بقية المنافقين في كل زمان ومكان الذين يظنون دائماً ظنون السوء، وتشير الآية القرآنية التي تقول : (وهو الذي كفّ أيديَهم عنكم وأيديكم عنهم) إلى أن الله سبحانه صرف الكفار عن إذاية المسلمين، وكف أيدي المومنين عن المشركين فلم يكن قتال عند المسجد الحرام، ولم يقع سفك للدماء في الأرض الحرام، وتتحدث الآيات القرآنية بعد ذلك منددة بتصرفات المشركين فتقول : (هم الذين كفروا وصدُّوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفاً أن يَبْلُغ مَحِلّه) أي منعوا الهدْي أن يصل إلى محله. وتتعرض السورة للحميّة الجاهلية التي أبداها المفاوضون الذين امتنعوا أن

يكتب في الوثيقة (بسم الله الرحمن الرحيم) وَ(محمد رسول الله) وتتعرض الآيات القرآنية للرؤيا التي رآها رسول الله في المنام (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله) وقد دخل رسول الله ﷺ بعد ذلك إلى المسجد الحرام فطاف وسعى ولبّى والمشركون ينظرون إليه وإلى أصحابه وهم جميعاً يلبّون، والرسول راكب على ناقته القصواء التي كان راكبها يوم الحديبية، وعبد الله بن رواحة الأنصاري آخذ بزمام تلك الناقة يقودها ويقول :

باسم الذي لا دين إلّا دينُه   باسم الذي محمّد رسوله
خلّوا بني الكفار عن سبيله   اليوم نضربكم على تأويله
كما ضربناكم على تنزيله   ضرباً يُزيل الهام عن مقيله
ويذهل الخليل عن خليله   قد أنزل الرحمان في تنزيله
في صحف تتلى على رسوله   بأن خير القتل في سبيله
يارب إني مومن بقيله

وبعد، فهذه قصة صلح الحديبية، أطلنا فيها الكلام بعض الشيء، للاستفادة من توجهاتها وأخذ العبرة منها، وللاشادة بالذين شاركوا فيها من الصادقين الذين قال في حقهم رسول الله ﷺ : (لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة) وفي حديث آخر : (ياأيها الناس إن الله غفر لأهل بدر والحديبية).

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

دخول مكة المكرمة

بعد قضاء بضع ساعات في طريقنا إلى مكة المكرمة، لاحت لنا أنوار مكة ونحن على مشارفها. والجبال تحيط بها من كل جانب، وهي في واد غير ذي زرع محصور بين الجبال، كانت سيارتنا تغذ السير، ونحن نلبي الآونة بعد الأخرى، وكلما اقتربنا من الأضواء شعرنا بانجذاب قوي إلى بيت الله الحرام والكعبة المشرفة ومقام إبراهيم الخليل عليه السلام، وارتفعت بنا السيارة وانحدرت ثم ارتفعت قليلا لتلوح لنا من بعيد مآذن المسجد الحرام بأضوائها التي تنير الأبصار والبصائر، وارتفعت أصواتنا بالتكبير والتهليل والتلبية، وكانت قلوبنا قبل ألسنتنا تدعو وتبالغ في الدعاء، شاكرة الرب العظيم الذي سهل علينا وعثاء السفر وأوصلنا إلى أول بيت وضع للناس في هذه الأرض، ليقصده المعتمرون والحجاج والزوار، رجاء أن تسقط عنهم الذنوب والأوزار.

وتقدمنا في السير لندخل سكك المدينة الحرام وطرقها المنعرجة لنصل إلى محل سكنانا ونحط الأمتعة والرحيل، قبل أن نقصد بيت الله العظيم، لم نستطع أن نسلك نفس الطريق التي سلكها رسول الله ﷺ في حجة الوداع، حيث أنه عليه السلام كان نزل بمكان يدعى بذي طوى المعروفة بآبار الزاهر، فبات بها ليلة وصلى الصبح واغتسل ثم دخل إلى مكة من الطريق المعروف بطريق الحجون، وهو طريق ثنية كداء، ومنها يهبط الانسان إلى المعلاة التي فيها مقبرة أهل مكة، والتي دفن فيها جمهور كبير من الصحابة، وفيها قبر أم المؤمنين خديجة عليها السلام، والتي كانت مشيدة على قبرها قبة شاهقة، كما كانت قبب أخرى لم يبق لها أثر اليوم، نظرا لأن إخواننا علماء السعودية، متشددون كل التشدد في إقامة القبب على أضرحة الموتى سواء كانوا صحابة أو أولياء أو غيرهم، مستدلين بأحاديث واردة عن رسول الله ﷺ تنهى عن البناء عن

القبور، ومنها الحديث الذي رواه الامام النسائي أن النبي ﷺ أمر عليا رضي الله عنه أن لا يدع قبرا مشرفا إلا سواه بالأرض، ولا تمثالا إلا طمسه.

ومن الطريق التي سلكها رسول الله ﷺ، نصح فقيهنا عبد الواحد بن عاشر في المرشد المعين بالدخول منها فقال :

«ثم ان دنت، مكة فاغتسل بذي طوى بلا، دلك ومن كدا الثنية ادخلا».
وبمجرد ما حططنا الرحال والأمتعة، قصدنا المسجد الحرام لأداء التحية، اللازمة التي هي طواف القدوم والذي هو طواف العمرة، وقبل أن نصل إلى البيت الحرام، بقينا في التلبية والدعاء، متاسين بما كان يقوله ويدعو به بعض السلف : (اللهم ان البلد بلدك، والبيت بيتك، جئت أطلب رحمتك، وألزم طاعتك، متبعا لأمرك، راضيا بقدرك، أسألك مسألة المضطر إليك، المشفق من عذابك، ان تستقبلني بعفوك، وان تتجاوز عني برحمتك، وان تدخلني جنتك). ومتأسين أيضا بما قاله العلامة البلوي عند دخوله مكة قال : إلهي هذا البيت بيتك جئته... وعادةُ رب البيت أن يكرم الضيفا.. فهب لي قرى فيه رضاك، ومن النار خوفي، فلتؤمنني الخوفا.. ولما وصلنا أحد أبواب المسجد الحرام القريب منا. دخلنا منه قائلين : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم أنت السلام ومنك السلام، فحينا ربنا بالسلام وأدخلنا الجنة دار السلام، بفضلك ياذا الجلال والاكرام، وما أن ظهرت أمامنا الكعبة المشرفة، حتى صرنا ندعو بما وفقنا الله به من دعاء، راجين القبول، فلقد روى أبو إمامة أن رسول الله ﷺ قال : تفتح أبواب السماء، وتستجاب دعوة المسلم عند رؤية الكعبة، وورد عنه ﷺ أنه كان إذا رأى البيت رفع يديه وقال : اللهم زد هذا البيت شرفا وتعظيما. وكان عمر بن عبد العزيز يقول عند دخول المسجد الحرام : اللهم إنك وعدت الأمان داخل بيتك، وأنت خير منزول به في بيته، اللهم اجعل أماني ما تؤمنني به، ان تكفيني مؤنة الدنيا، وكل هول دون الجنة، حتى تبلغنا برحمتك. ومن الأدعية المستحسنة في هذا الموقف ان يقول الانسان لدى وقوع بصره على الكعبة، بسم الله والله أكبر (ثلاثا) لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، ثم يدخل من باب السلام وهو المسمى باب بني شيبة، فيقول (رب ادخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي

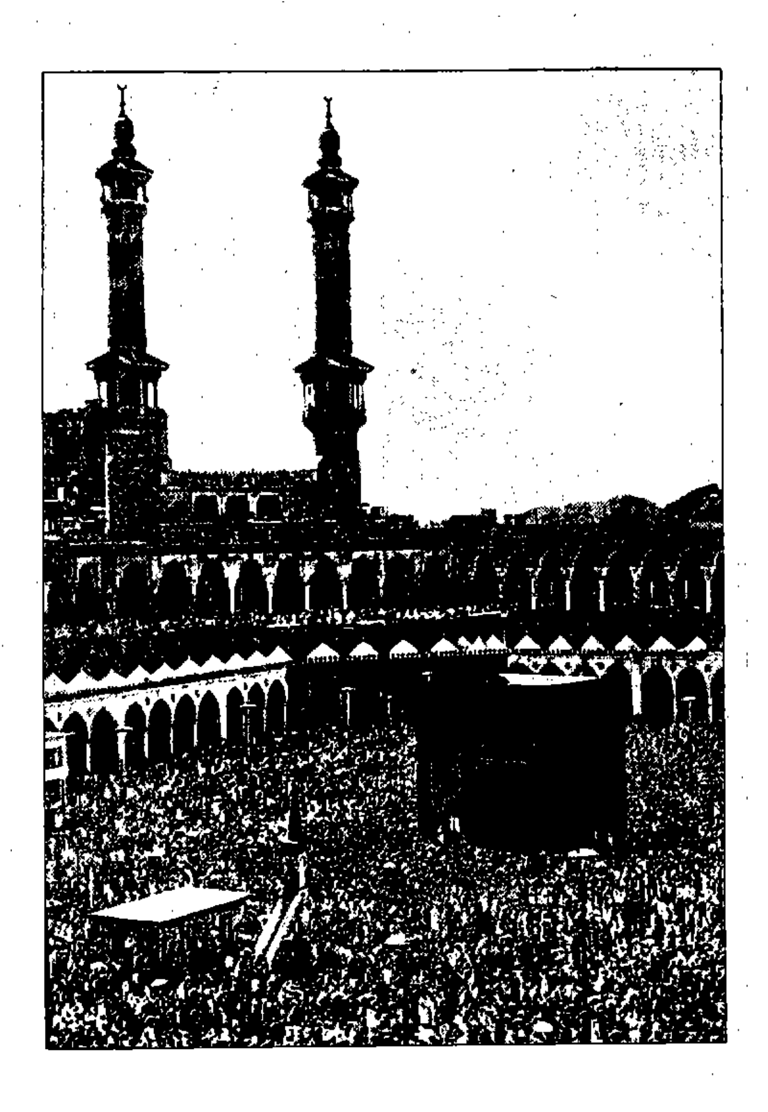
من لدنك سلطانا نصيرا، وقل جاء الحق وزهق الباطل، ان الباطل كان زهوقا وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين. ولا يزيد الظالمين إلا خسارا) ثم قصدنا الحجر الأسود لنبدأ طوافنا ويتذكر المؤمن في تلك اللحظات طواف رسول الله ﷺ الذي قال في الحديث الصحيح : خذوا عني مناسككم. فلقد ورد في الصحاح أن النبي ﷺ أتى باب المسجد، فأناخ راحلته، ثم دخل المسجد فاستلم الحجر الأسود، ثم مضى عن يمينه، فرمل (أي جرى مسرعا) ثلاثا ومشى أربعا، وهكذا وقفنا بدورنا أمام الحجر الأسود، وقلنا بسم الله والله أكبر ولله الحمد اللهمَّ أغفر لنا ذنوبنا، وطهر قلوبنا واشرح صدورنا، وعافنا برحمتك فيمن تعافي. وحاولت أن أصل إلى الركن الذي فيه الحجر الأسود لأقبله، ولكني لم أستطع، نظرا لكثرة الازدحام فاكتفيت بالاشارة بيدي وأنا أدعو بما تيسر لي من دعاء، فليس واجبا أن نلتزم بالأدعية التي يدعو بها المطوفون أو التي توجد بالكتيبات الموضحة للمناسك، وان كان لا بأس من الاستئناس بها والاستفادة منها، وقد اختلف فقهاء المالكية في قضية تقبيل الحجر الأسود هل يكون بالصوت أو بدون صوت، والراجح الجواز، ولقد رووا لمحب الدين الطبري قوله : وقالوا إذا قبلت وجنة من تهوى... فلا تسمعن صوتا ولا تعلن النجوى... فقلت ومن يملك شفاها مشوقة... إذا ظفرت يوما بغايتها القصوى... وهل يشفي التقبيل إلا مصوتا... وهل يبرد الأحشا سوى الجهر بالشكوى. ويعجبني هنا أن أورد لغزا الغز به الشيخ التاودي بن سودة رحمه الله حيث قال : أيها العالم المفيد البرايا... ما مقالك في جواب سؤالي... قبلة لم تجز بدون وضوء... وهي لا تنقض الوضوء بحال. ولقد أجابه العلامة ابن الحاج فقال : هي قبلة الركن الأسود لثم... قد حلا لي عن كل لثم حلال... لم يكن تقبيلي له غير تقبيلي... يمينا لربنا المتعالي.. ولم يكفه هذا الجواب فقال أيضا : بعد أن طفت حول ليلى ومرغت المحيا لما لها من جلال.. رمت تقبيل خالها فابت إلا بشرط الوضوء ذات الدلال.

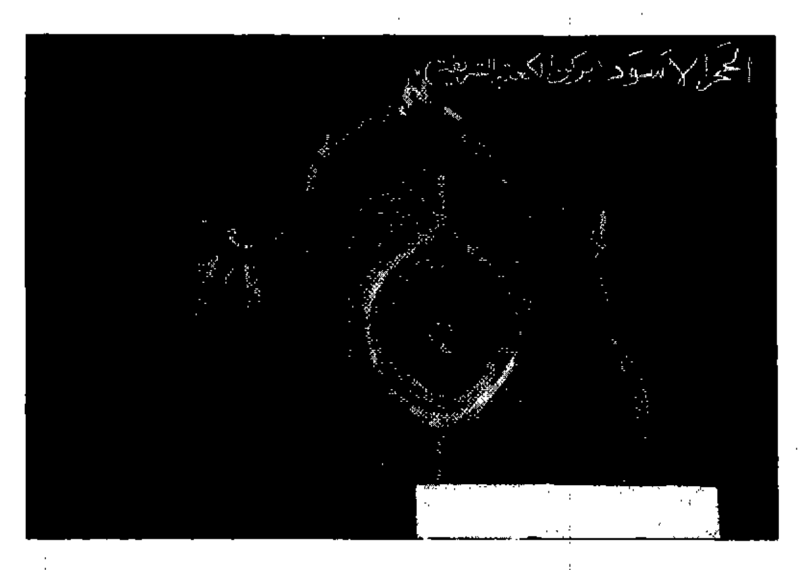
وبتقبيل أو الاشارة من بعيد إلى الحجر الأسود، يبتدئ الطواف بالكعبة سبع مرات، يبتدئ بالحجر الأسود وينتهي به أيضا، والطواف هو أن تدور حول الكعبة، جاعلا الكعبة عن يسارك، خارجا ببدنك عن حجر إسماعيل وعن

الشاذروان وحجر اسماعيل كان قطعة من الكعبة، متصلة بها ومحوطة بجدار نصفي لا يتجاوز علوه ميترا واحدا، وغير مسقف، ويقال ان قبر إسماعيل موجود فيه، وليس هناك علامة تدل على القبر.

أما الشاذروان فهو بناء في جذر الكعبة، مرتفع قدر ثلثي ذراع بارز عن عرض جدران الكعبة ويقول الطائف لدى ابتدائه في الطواف، وهو متجه إلى الحجر الأسود، رافع يديه : بسم الله والله أكبر ولله الحمد، اللهم إيمانا بك، وتصديقا بكتابك، ووفاء بعهدك، واتباعا لسنة نبيك محمد ﷺ ثم يدعو بما يشاء، أو يقرأ القرآن ويصلي على سيدنا محمد عليه السلام، وتعليما للناس كيفية الدعاء، وضع بعض العلماء كتيبات صغيرة، جعلوا فيها بعض الأدعية يقرأها الطائفون في الأشواط السبعة، ففي الشوط الأول أي الدورة الأولى حول الكعبة يقول الطائف : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، اللهم إيمانا بك وتصديقا بكتابك، ووفاء بعهدك، واتباعا لسنة نبيك وحبيبك محمد ﷺ، اللهم إني أسألك العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة، والفوز بالجنة والنجاة من النار، فإذا وصلَ إلى الركن اليماني، وهو الركن الذي قبل الحجر الأسود، لمسه بيده إن استطاع، ثم يضعها على فمه من غير تقبيل ويقول : بسم الله والله أكبر، ثم يسير قاصدا الركن الذي يوجد فيه الحجر الأسود وهو يقول : ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار، وادخلنا الجنة مع الأبرار، ياعزيز ياغفار، يارب العالمين، فإذا وصل إلى الركن الذي فيه الحجر الأسود فإنه يكون قد قطع الشوط الأول، ليستأنف الشوط الثاني، ثم الثالث إلى السابع، وكل شوط من هذه الأشواط يدعو فيه بما يشاء من الأدعية المأثورة وكل دعاء يفتح الله عليك به في تلك اللحظات المباركات ومن الاستغفار والتكبير والتهليل والتحميد ويستحب للطائف أن يرمل في الأشواط الثلاثة الأولى، ويمشي عاديا في الأربع بعدها، والرمل فوق المشي ودون الجري، والمرأة لا ترمل مطلقا، أما الرجل فيرمل في طواف القدوم لا غير، ومن السنة الاضطباع في طواف القدوم وهو إخراج الذراع الأيمن فوق الرداء الذي تشتمل به. وبعد الانتهاء من الطواف، يذهب إلى مقام إبراهيم الخليل عليه

السلام الموجود أمام باب الكعبة المشرفة ليؤدي ركعتي الطواف خلف المقام، ويقرأ في الركعة الأولى بعد الفاتحة سورة «الكافرون» وفي الركعة الثانية سورة الاخلاص تطبيقا لما تحدثت عنه الآية القرآنية (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) وبعد الصلاة يدعو ويقول : اللهم انك تعلم سري وعلانيتي، فأقبل معذرتي، وتعلم حاجتي، فأعطني سؤلي، وتعلم ما في نفسي، فاغفر لي ذنوبي، اللهم إني أسألك إيمانا يباشر قلبي، ويقينا صادقا حتى اعلم أنه لا يصيبني إلا ما كتبت لي، رضا منك بما قسمت لي، أنت وليي في الدنيا والآخرة، توفني مسلما والحقني بالصالحين، اللهم لا تدع لنا في مقامنا هذا ذنبا إلا غفرته، ولا هما إلا فرجته، ولا حاجة إلا قضيتها ويسرتها، فيسر أمورنا، واشرح صدورنا، ونور قلوبنا، واختم بالصالحات أعمالنا، اللهم توفنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين. أو ما شاء من الدعاء الذي يلهمه الله في ذلك الوقت، ثم بعد ذلك يقصد الملتزم، وهو الواقع بين باب الكعبة والحجر الأسود، فيقف أمامه ويدعو ويبالغ في الدعاء، فلقد ورد عن النبي ﷺ انه قال ما معناه : في هذا المقام ينبغي أن تسكب العبرات، وورد انه عليه السلام كان يلصق صدره ووجهه به أي حين الدعاء والابتهال إلى الله تعالى، ومن الأدعية التي يستحسن أن تقال في الملتزم : اللهم يارب البيت العتيق، اعتق رقابنا ورقاب آبائنا وأمهاتنا واخواننا وأولادنا من النار، اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، اللهم إني عبدك وابن عبدك، واقف تحت بابك ملتزم لأعتابك، متذلل بين يديك، أرجو رحمتك، وأخشى عذابك، اللهم اشرح لي صدري، ويسر لي أمري، واغفر لي ذنبي، ثم يذهب بعد ذلك إلى بئر زمزم، فيشرب منه هنيئا مريئا فماء زمزم لما شرب له كما جاء عن رسول الله ﷺ، ثم يقصد إلى المسعى لأداء السعي الذي هو الركن الثالث من أركان العمرة، إذ أول الأركان هو الاحرام، والثاني هو الطواف، والثالث هو السعي وعندما يقرب من مرتفع «الصفا» يقرأ قول الله تعالى : (ان الصفا والمروة من شعائر الله، فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه ان يطوف بهما، ومن تطوع خيرا فان الله شاكرٌ عليم) فإذا وقف فوق الصفا فليتجه إلى الكعبة وليقل : باسم الله والله أكبر وليدع بما يشاء وهو متجه إلى المروة وليهرول بين العمودين الاخضرين المضيئين، وهو المكان المسمى ببطن المسيل، فإذا وصل إلى المروة، فليقف





عليها متجها إلى الكعبة وليدع بما يشاء ثم يقصد «الصفا» من طريق الرجوع، إذ هنالك الآن طريقان : إحداهما للذهاب، والأخرى للرجوع، والمشي بين الصفا والمروة يكون سبع مرات، ويكون الابتداء من الصفا، والانتهاء بالمروة وفي كل مرة يكون الدعاء والجري ببطن المسيل بالنسبة للرجل دون المرأة والطهارة الصغرى في السعي سنة، اما في الطواف فهي شرط، لا يصح الطواف بدونها، لأن الطواف صلاة، ولا تجوز الصلاة بدون وضوء، وبعد الانتهاء من السعي، يحلق شعر رأسه أو يقصص منه، حتى يتحلل من إحرامه ولقد ذكر فقهاؤنا أن واجبات الطواف ثمانية : (1) طهارة الحدث (2) طهارة الخبث (3) ستر العورة (4) إكمال سبعة أشواط (5) موالاة الأشواط وعدم التفريق بينها (6) كون الطواف داخل المسجد (7) كون الطواف خارجا عن الشاذروان وعن الحجر (أي حجر إسماعيل) (8) كون البيت عن يسار الطائف، أما سنن الطواف فهي خمس : (1) المشي دون الركوب (2) تقبيل الحجر الأسود (3) لمس الركن اليماني. أول شوط (4) الدعاء والصلاة على النبي ﷺ (5) الرمل للرجال دون النساء. واما شروط السعي فهي ثلاثة : (1) اكمال سبعة أشواط (2) البداءة بالصفا (3) تقدم طواف صحيح عليه.

مكة في التاريخ

لعل أهم مدينة في العالم تتجه إليها أنظار المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها في كل وقت وحين، هي مدينة مكة المكرمة، فابتداء من الفجر الصادق في كل يوم من أيام الله إلى مطلع الفجر من اليوم الموالي، يتجه المسلمون إلى الكعبة المشرفة بأرض مكة المكرمة لأداء صلواتهم المفروضة والطوعية، ولو كشف الغطاء عن الأبصار، وأمكن للناظرين أن يحلقوا في الفضاء وينظروا من أعلى إلى سطح الكرة الأرضية جميعها دون استثناء، لرأوا ما يبهرهم ويخلب أفئدتهم، فالمسلمون في آسيا وإفريقيا وأوربا وأمريكا عندما يسمعون المؤذن ينادي في كل الأوقات الخمسة : حي على الصلاة حي على الفلاح، تتجه أجسادهم وقلوبهم وعقولهم، وأرواحهم إلى ذلك المكان المقدس، إلى الكعبة المشرفة، رافعين أصواتهم بكلمة الله أكبر الله أكبر أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمدا رسول الله، ولو قدر للأصوات أن تتجمع مع بعضها وهي تنطق بكلمة الله أكبر، لأحدثت دويا هائلا، تطمئن له قلوب المؤمنين، وتجزع من قوته وعظمته قلوب الكافرين والمنافقين، مشهد عظيم قد لا يدرك عظمته من طمس الله بصيرته، وأعمى بصره، وقد لا يتنبه له ويفكر فيه بعض الذين يتوجهون إلى القبلة ليؤدوا صلواتهم، ولكنه بالرغم من غفلة هؤلاء، وجحود الآخرين، مشهد حقيقي وواقع وملموس، إذا لم ينظره الراءون في عمومه وشموله من أعلى، فيستطيعون أن يروه مشخصا أمام أعينهم تشخيصا حقيقيا في شاشة التلفزة عندما يقوم المصلون في المسجد الحرام يؤدون صلاتهم متجهين إلى الكعبة من جهاتها الأربع، فتتركز أبصارهم وقلوبهم حولها وتمتزج أرواح المؤمنين الآتين من كل فج عميق من جميع القارات، رافعة أصواتها بكلمة التوحيد : الله أكبر، الله أكبر. فتنمحي الجنسيات والقوميات والقبليات، وتبقى كلمة «الله أكبر» هي الجامعة والموحدة والمطمئنة لقلوب المؤمنين في أنحاء الأرض كلها. «قد نرى

تقلب وجهك في السماء، فلنولينك قبلة ترضاها، فول وجهك شطر المسجد الحرام، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره»، وفي الآية الأخرى يقول الله تعالى : «ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام، وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني» قال ابن كثير : هذا أمر ثالث من الله باستقبال المسجد الحرام من جميع أقطار الأرض.

هذا الموقع الذي تتجه إليه أنظار أزيد من مليار من المسلمين كل يوم وفي خمسة أوقات يقع في مكة التي جعلها الله موطنا آمنا، وهم أول بيت وضع للناس مباركا وهدى للعالمين «إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين فيه آيات بينات، مقام إبراهيم، ومن دخله كان آمنا» ومكة تقع في واد غير ذي زرع، تحيط بها وتشرف عليها جبال جرد، خالية من النخيل والزرع والحب، فجاء طقسها حارا قاسي الحرارة، وزاد في قسوته قلة الماء وضعفه، لولا الماء الذي ينبع من بئر زمزم الذي بارك الله فيه، فصار يطفئ غلة العطش من المقيمين والحجاج والزوار والمعتمرين. وموقع مكة الجغرافي يوجد في مكان كانت تتجمع فيه القوافل التي ترد من بلاد الشام، قاصدة اليمن، والتي ترد من اليمن قاصدة الشام، مارة من طريق قريب من بحر القلزوم الذي نسميه الآن بالبحر الأحمر. ولم أستطع حسب معلوماتي القليلة أن أتعرف إلى تاريخ إنشائها التي قال المؤرخون انه يرجع إلى ألوف السنين، وان الوادي الذي تقع فيه اتخذ من قبل أن تبنى موئلا لراحة رجال القوافل نظرا لبعض العيون المائية التي كانت تقع فيها، وبعد اختلاط الساكنين بالواد برجال القوافل الذين يمرون عليهم، تأثروا بهم واقتبسوا منهم الاشتغال بالتجارة فكانوا ملمين بتجارة اليمنيين والشاميين، وسيطروا مع الأيام على حركة النقل التجاري بين الشام واليمن والعراق.

ونقرأ في كتب التاريخ والسير قصة انتقال أبينا إبراهيم الخليل عليه السلام مع ابنه إسماعيل وأمه هاجر إلى مكة المكرمة، وبنائه البيت الحرام : (الكعبة المشرفة) فلقد ازداد إبراهيم بالعراق وشب فيها، وكان أبوه آزر يحترف النجارة ويصنع الأصنام الخشبية ويبيعها للناس كي يتخذوها آلهة يعبدونها، فلم تستسغ

نفسه المؤمنة ذلك، واستنكر فعلهم بقلبه وبلسانه وبيده، واستغرب ـــ وهو لازال صغيرا ـــ اقبالهم على عبادة أصنام يصنعونها بأيديهم من خشب فقال لهم مستنكرا ومخاطبا أباه الذي يصنعها لهم، كما جاء في القرآن الكريم : «وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة، إني أراك وقومك في ضلال مبين» ثم زاد فقال له : «ياأبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا، ياأبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهْدِك صراطا سويا، ياأبت لا تعبْد الشيطان، إن الشيطان كان للرحمن عصيا»، ولم يكتف باستنكار ما يعبدونه من الأصنام بلسانه، بل انتهز فرصة كانوا غافلين، فذهب إلى الأماكن التي وضعوا فيها تلك الأصنام، وكسرها الواحد تلو الآخر، ولم يبق إلا على الصنم الكبير، ليقيم الحجة به عليهم، وعلم أولئك الحمقى المتعبدون بالأصنام ما فعله إبراهيم بأصنامهم، فأتوا بإبراهيم يستفسرونه عن أسباب ما فعله، قائلين له : «أأنت فعلت هذا بآلهتنا ياإبراهيم ؟» وأراد عليه السلام أن يثيرهم ويستفزهم لعل عقولهم تدرك حمقهم وضلالهم فقال : (بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون) فاضطروا أمام إفحامهم أن يرجعوا إلى أنفسهم وقالوا إنكم أنتم الظالمون) ثم تداركوا أمرهم معترضين على إبراهيم الذي قال لهم اسألوا الأصنام التي صنعتم بأيديكم لتجيبكم، قالوا (لقد علمت ما هؤلاء ينطقون) وحقق إبراهيم عليه السلام ما كان يهدف إليه من إثارة عقولهم لتدرك أن تلك الأصنام لا تستطيع أن تتكلم، فكيف يصح لهم أن يعبدوها وهي : عاجزة حتى عن الكلام، فقال لهم : «أتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم ولا يضركم، اف لكم ولما تعبدون من دون الله افلا تعقلون ؟». لقد استعمل معهم المنطق العقلي الذي يدرك به الانسان العاقل الصحيح من الفاسد، والنافع من الضار، والحق من الباطل، ولكنهم شأن المقلدين المعتوهين الذين أعمى الله بصائرهم وأبصارهم، بقوا متشبثين بضلالهم وبما سار ويسير عليه آباؤهم من التقليد والضلال، فقرروا الانتقام الشديد من إبراهيم و(قالوا احرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين) واتبعوا أقوالهم بأفعالهم، فاشعلوا نارا وألْقَوه فيها، ولكن الله عزت قدرته، أراد أن ينجي رسوله الخليل، ويؤيده بمعجزة، حارت لها قلوبهم، وسفلت بها عقائدهم، فكانت النار التي وضعوها فيها بردا وسلاما عليه، وفقدت خاصية الاحراق (يانار كوني بردا وسلاما على إبراهيم).

ولما رأى إبراهيم عليه السلام أن أولئك الضالين، متمسكون بضلالهم وكفرهم، وان الله طمس على قلوبهم، فأصبحت لا تهتدي بفكر ولا بموعظة، وأن غاية ما يهدفون إليه هو قتله والقضاء عليه، والوقوف عرقلة أمام دعوته إلى الله وإلى الحق وإلى الاسلام، قرر عليه السلام الهجرة من العراق إلى فلسطين تصحبه زوجته سارة، ثم سافر من فلسطين إلى مصر، وكان يحكمها إذذاك ملوك العماليق (الهكسوس) ووقعت له أحداث كثيرة في مصر وتزوج مرة ثانية بإشارة واقتراح من زوجته «سارة» حيث لم يرزق مع الأولى ولداً، وشاء الله أن تحمل زوجته الثانية «هاجر» فتلد له إسماعيل عليه السلام الذي شب في حضن والده مهتديا بهديه، فتمكن حبهما لبعضهما، ورزقت بعد ذلك «سارة» مولودا أسمته «اسحاق» فصار لابراهيم ولدان : واحد من «هاجر» وهو إسماعيل، وواحد من «سارة» وهو «إسحاق» فدبت الغيرة في قلب «سارة» عندما رأت إبراهيم يعطف على الولدين بالتساوي، وأرادت أن يكون لابنها «إسحاق» الامتياز والتفضيل، فرأى «إبراهيم» أن العشرة بين الزوجتين الضرتين، وبين الولدين ينقصها الهناء والراحة والرضى فقرر أن يرحل بهاجر وابنها «إسماعيل» إلى مكان آخر، كان هو الوادي الذي يسمى بمكة، والذي كان مركزا للقوافل التجارية، تحط فيه بخيامها بقصد الراحة أثناء ذهابها إلى اليمن أو إلى الشام، ومما ذكرناه يتبين لنا الأسباب التي دعت إبراهيم عليه السلام إلى الهجرة مع ابنه إسماعيل إلى وادي القرى (مكة) حيث سيقوم ببناء أول بيت وضع للناس، لعبادة الواحد الأحد، والذي سيصبح بعد بعثة رسولنا عليه السلام مثابة للناس وأمنا، يقصده الحجاج والمعتمرون والزوار من كل الآفاق (ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات) لم يكن بذلك الوادي سكان كثيرون، وتحيط به جبال من جملتها جبل يسمى «ابا قبيس» (ويذكر أهل الأخبار انه إنما سمي «قبيسا» ب (قبيس بن شالخ) رجل من «جرهم» كان في أيام «عمرو بن مضاض» ويذكرون أن هذا الجبل كان يسمى أيضا «بالأمين» لأن الركن أي الحجر الأسود كان مستودعا فيه. اما اسم «مكة» فلم يكن معروفا في الكتابات الجاهلية حسب ما ذكره الدكتور جواد علي في كتابه عن تاريخ العرب قبل الاسلام، كما يذكر أن المصادر التاريخية الأعجمية تقول إن مدينة مكة كانت تدعى بـ (ماكورابا)

(MACORABA) وهي لفظة عربية أصابها التحريف ليناسب النطق اليوناني، أصلها «مكربة» أي مقربة من التقريب ثم يقول : وإذا صح رأينا في أن موضع *(MACORABA)* مكة، دل على أنها كانت قد اشتهرت بين الغرب في القرن الثاني بعد الميلاد، وانها كانت مدينة مقدسة يقصدها الناس من مواضع بعيدة) ويرى «دوزي» أن تاريخ مكة يرتقي إلى أيام داوود عليه السلام، ويرى غيره من المستشرقين أن مكة لم تعرف ولم تشتهر إلا في القرن الأول قبل الميلاد، وكيفما كان الأمر، فإن سكان مكة ينتمون إلى قبيلة «جرهم» اليمَنية التي تزوج منها إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وكانت «جرهم» مشرفة على البيت (الكعبة) الذي بناه إبراهيم، ثم صار الأمر في بعض الظروف إلى قبيلة «خزاعة» إلى أن استولى قصي على الأمر وجعله في يد القرشيين، ويذكر الدكتور جواد علي أن عمرو بن لحي الخزاعي أول من نصب الأوثان، وأدخل عبادة الأصنام إلى العرب، وأنه كان من الكهان الذين غيروا دين التوحيد، وعملوا على تكوين مجتمع جديد فيها، لا يدين بدين التوحيد، وهو الذي أقام الأوثان والأصنام ومنها صنم كان يدعى «بهُبل» وضعه داخل الكعبة، أما قصي الذي انتزع الأمر من خزاعة، فقد ثبت السيطرة لقريش، فصارت صاحبة الأمر والنفوذ، واهتمت بقضية التجارة، وكان القرشيون مشهورين بذكائهم وخبرتهم التجارية ومهارتهم في التعامل مع الدول المعاصرة لهم : الفرس والروم والحبشة وغيرهم. ثم ان هذا الاختلاط والتعامل مع الدول المعاصرة، جعلهم يستفيدون مما عند غيرهم من الدول البعيدة عنهم، والتي سبقتهم إلى الحضارة والتقدم، فاستفادوا من العراقيين والشاميين حتى في تقويم ألسنتهم، واستفادوا من أهل الحيرة أصول كتابتهم. حتى أصبحوا من أفصح العرب لسانا. وذكر الثعالبي أن قريشا صاروا (أدهى العرب، وأعقل البرية، وأحسن الناس بيانا) ويعتبر جد القرشيين، قصي من أعقل الناس وأوعاهم في وقته، فهو الذي ثبت الأمر لهم، وقسم الواجبات والوظائف على أولاده حين شعر بدنو أجله (فلما أشرق الاسلام كانت أمور مكة في يد قريش، ولها وحدها الهيمنة على هذه المدينة) واسم قريش مشتق من التقرش وهو التجمع، وسمي قصي مجمعا وفي ذلك يقول شاعرهم :

قصي أبوكم كان يدعى مجمعا ... به جمع الله القبائل من فهر

وذكروا أن عبد الملك بن مروان سأل محمد بن جبير، متى سميت قريش قريشا ؟ فقال : حين اجتمعت إلى الحرام من تفرقها، ومن المؤسف أنه لا توجد بمكة رغم أهميتها واتصال سكانها بالدول المتحضرة ـــ كما أشرنا إلى ذلك ـــ لا توجد بها عمارات وآثار قديمة مثل ما يوجد في غيرها من الأقطار المتحضرة باستثناء الحرم المكي الشريف والكعبة المشرفة، زادها الله مكانة وتشريفا، وسكان مكة في أصولهم مختلفون، فزيادة عن السكان العرب الأصلاء يوجد بها سكان أصلهم من الهند أو من بخارى أو من جاوة (أندونيسيا) أو من الشام أو من المغرب أو من الحضارمة أو من غيرهم من الأقطار كمصر وتركيا وباكستان وبعض الأفارقة، فسكان مكة اليوم مختلفون عن الأقدمين من حيث أصولهم وارتباطاتهم مع بعضهم عن طريق المصاهرة، ولربما كان لهذا التنوع السكاني أثره على طبائعهم، فهم مختلفون في طبائعهم اختلافا واضحا، وكما قال الرحالة البتنوني : (تراهم جمعوا بين رفه الحضارة وقشف البداوة، فبينما ترى الرجل منهم قد آنسك برقة حديثه معك، وضعته بين يديك، إذ هو قد استوحش منك واغلظ في كلامه، حتى كأن البداوة تغلبت فيه على طبيعة الحضارة) وأهل مكة كرماء خصوصا في شهر رمضان، فإنهم يتنافسون في إطعام الزوار والطائفين فيقدمون لهم التمور بعد صلاة المغرب ولربما يقدمون أيضا القهوة والفواكه مثل ما هو موجود في مسجد المدينة المنورة ويقلد صغيرهم كبيرهم في الكرم والاعتناء. وكانت توجد بمكة عدة مزارات مثل مكان مولد الرسول ﷺ الذي كانوا جعلوه مسجدا ومزارا عظيما ولكنه لم يبق موجودا اليوم، ولقد زاره الرحالة المغربي أبو سالم العياشي في وقته وتوقف كثيرا في ثبوت قصة ولادته ﷺ في ذلك الموضع، وذكر الخلاف الواقع في تحديد هذا المكان. ومن الأماكن التي كانت تزار ولم يبق لها أثر : مكان مولد فاطمة الزهراء رضي الله عنها في دار خديجة، ودار أبي بكر الصديق وغير ذلك من الآثار التي لا يستطيع أي مؤرخ أن يثبت بالقطع صحة مواقعها، ولذلك نص العلماء على عدم التقيد بما كتب في شأنها، مؤكدين على اتباع ما يثبت ورفض ما لا يثبت.

في الكعبة المشرفة

حالة من الشعور الخاص تتملك المومن عندما يقترب من الكعبة المشرفة وينظر إليها، شعور فيه جلال، وفيه خشية، وفيه انجذاب قوي إلى البيت الذي جعله الله «مثابة للناس وأمنا» وكلما تقدمت خطواته للوقوف أمام الحجر الأسود للبداية بالطواف بالسلام والتكبير والتحميد والتهليل، كلما ازداد انجذابه إلى ذلك البيت المقدس، واندفاعه نحوه، وتملكه شعور يخرجه من ماهيته التي كان عليها إلى ماهية جديدة، تبعده عن ماديته، وتصيره ينظر إلى حقيقته بمنظار متجرد مطلق، بعيد عن كل زيف وكل تستر غير حقيقي. انه متجرد عن المظاهر الثيابية الخادعة، موطن النفس، انه ثاب لهذا البيت العتيق، ليؤكد أنه أتى متجردا من ثيابه ليعبر التعبير الصادق العميق، انه تجرد عن خداعه لنفسه، واغتراره بما تزينه له من أهواء.

إنه بيت كبقية البيوت، بني من حجر كما تبنى بقية البيوت، وكسي بثوب كما تكسى كل الحجرات، ولكنه يختلف عن كل البيوت، وكل الحجرات، لا بزخرفته وفنية بنيانه، ولكن بتعبيره وتجسيده للحقيقة التوحيدية التي يرمز إليها، حقيقة التوحيد التي تنمحي أمامها كل الحقائق، ولذلك كانت جاذبيته قوية، ولذلك ترى المؤمنين وهم يطوفون حوله، يحاولون أن يزيدوا اقترابا من ذلك البناء الذي يعبر عن اقترابهم من حقيقة التوحيد، ولذلك جعله الله مثابة للناس وأمنا أي مرجعا للناس وأمنا لهم، ولذلك اتخذ فيه مقام إبراهيم مصلى (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) والطواف بالبيت صلاة ولكنها ليست ذات ركوع وسجود كبقية الصلوات، هي عبادة من نوع خاص، ويشعر الانسان أثناء طوافه وهو يدعو أو يقرأ القرآن أو يتشهد، بقوة ترفعه إلى أعلى، إلى ملكوت السماء، هو يطوف وكأن الملائكة تطوف معه، هو يسبح ويقدس، وكأنه يسمع تسبيح الملائكة المقربين وتقديسهم، وعندما يرمل في بداية طوافه الأشواط الثلاثة الأولى

يحس من ذات نفسه أنه يجرى مسرعا مفارقا للحالة التي عاش عليها من الذهول والغفلة عن الله، إلى القرب والتعلق والارتباط بالحقيقة الايمانية التي فطره الله عليها، وتتقوى هذه المعاني في نفس الطائف في غسق الليل، عندما يكون طوافه حول البيت، فينظر إلى الكعبة المشرفة ويرفع بصره إلى السماء ليرى النجوم وكأنها تشهد له أو عليه، حسب حالته من الصدق والاطمئنان التي يكون عليها، ويتذكر خليل الرحمان الذي عهد الله إليه أن يبني هذا البيت ويطهره للطائفين والعاكفين والركع السجود، فها هو من جملة الطائفين والعاكفين والركع السجود، وها هو في المكان الآمن، ويرجو من ربه الرحمة والأمان والغفران، وها هو يطوف سبعة أشواط في طوافه، منهيا كل شوط بقوله : (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) انه يريد التوفيق في هذه الحياة الدنيا حتى يصل إلى حسنتها، وإنه يرجو حسنة الآخرة حتى يظفر بنعيمها، هو مومن كل الإيمان بأن الحياة حياتان : حياة فانية زائلة، قد تغر الكثيرين وتخدعهم، فيتعلقوا بها ويرتبطوا الارتباط القوي الذي ينسيهم الله وينسيهم أنفسهم، وحياة دائمة لابد من المصير إليها، لتجزي كل نفس بما كسبت، وما قدمت من أعمال، فهو يتذكرها في ذلك الموقف ولا ينساها، خصوصا وهو متجرد من كل شيء عدا ما يستره الذي يشبه كفن الميت، فإذا كان الميت لا يصاحبه في القبر إلا كفنه وعمله، فإنه وهو يطوف بيت الله ويدعوه ويرجوه أن يقبل منه رجوعه ومثابته إليه، فيمن عليه بحسنات الآخرة، وفي طليعتها رضوان الله والنجاة من عذابه. ويمضي من طوافه، قاصدا مقام أبيه إبراهيم الخليل، تاليا قول الرب العظيم (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) ليصلي ركعتي الطواف بسورتي «الكافرون» و«قل هو الله أحد» مثل ما فعل الرسول العظيم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، فلقد جاء في صحيح الامام مسلم من حديث جابر أن النبي ﷺ لما رأى البيت، استلم الركن، فرمل ثلاثا ومشى أربعا، ثم تقدم إلى مقام إبراهيم فقرأ : (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) فصلى ركعتين، قرأ فيهما ب (قل هو الله أحد وقل ياأيها الكافرون) ومقام إبراهيم هو الحجر الذي ارتفع عليه إبراهيم عليه السلام، حين ضعف من رفع الحجارة التي كان اسماعيل يناولها إياه في بناء البيت، وغرقت قدماه فيه، وجاء عن أنس رضي الله عنه أنه قال : رأيت في المقام أثر أصابعه (أي إبراهيم) وعقبه وأخمص قدميه، غير أنه اذهبه مسح الناس بأيديهم، وبعد

أداء الصلاة في مقام إبراهيم والدعاء فيه، يتجه الطائف إلى الملتزم، وهو المسافة أو المكان الذي يقع بين باب الكعبة وبين ركنها الذي وضع فيه الحجر الأسود، وفي هذا المكان الذي يقف فيه الطائفون وقفات، كلها تضرع وابتهال ودعاء وبكاء والتجاء، يشعر فيه المومن وكأنه يريد وبإصرار أن يفتح له باب الرحمة والقبول الذي يشخصه أمامه باب الكعبة، وهو يتعلق باستارها وكأنه بهذا التعلق الحسي يريد أن ينزع من نفسه نزعا قويا نزعات الشيطان التي تزين له الموبقات وتريد أن تدفع به إلى المهلكات، انه متشبث بأستار الكعبة، إنه رافع يديه إلى السماء يدعو ويبالغ في الدعاء، ان دموعه تنهمر انهمارا من عينه، ان قلبه يكاد يتفجر وهو يستغيث بربه، أن يتجاوز عن سيآته، ويعفو عن هفواته، انه يتذكر في تلك اللحظات الخاشعات أهله وأبناءه وإخوانه وأحبابه وجميع أفراد أمته، فيدعو لهم بالتوفيق والهداية، انه يستحضر أمام عينيه ما أصبحت عليه أمته الاسلامية من تمزق في الرأي، واختلاف في أوجه النظر، وابتعادٍ عن حقيقة ما يدعو إليه الاسلام، من تمسك بحقيقة التوحيد والوحدة، حتى تبقى كما أراد الله لها خير أمة أخرجت للناس، إنه ينظر بعيني رأسه وبصيرته إلى أمة الاسلام وقد مزقتها الأهواء، واختلفت بها السبل، فسلط الله عليها الاشرار من أهلها ومن أعدائها يسومونها سوء العذاب، ويخططون لإضعافها، وكسر أجنحتها، والقضاء على قيَمها ومقوماتها، إنه يتصور أمامه كل هذا ولربما أكثر من هذا، فيلجأ وهو حزين إلى الدعاء إلى الاستغاثة بالرب الذي لا يخيب من قصده بصدق وقوة يقين، إنه يتمنى أن يحقق الله له ما حققه لذلك الداعي الذي كان يدعو في نفس المكان والذي رآه رسول الله ﷺ يدعو، فبشره بأن الله استجاب دعوته. فلقد روى أبو نعيم عن محمد بن المنكدر عن جابر قال : نظر النبي ﷺ إلى رجل بين الركن والمقام أو الباب والمقام وهو يدعو ويقول : اللهم اغفر لفلان، فقال له النبي ﷺ ماهذا ؟ فقال : رجل استودعني أن أدعو له في هذا المقام، فقال ارجع، فقد غفر لصاحبك.

الكعبة في التاريخ

جاء في القاموس المحيط : (والكعبة، البيت الحرام، زاده الله تشريفاً، والغُرفة، وكل بيت مربّع). ويرى المؤرخ «ويل ديورانت» صاحب كتاب «قصة الحضارة» أن اللفظ ذو صلة باللفظ الانجليزي» *(cube)* أي مكعّب. فالكعبة المشرفة بناء مربع تقريباً، جداره الشرقي، اثنان وثلاثون ذراعاً، وجداره الشمالي اثنان وعشرون ذراعاً، وجداره الغربي، واحد وثلاثون ذراعاً، وجدارهُ الجنوبي عشرون ذراعاً، وارتفاع الجدران في السماء خمسون ذراعاً حسبما ما قال بعض أرباب الرحلات.

وبناء الكعبة حكى المؤرخون فيه عدة أقوال، ويقولون إنها بنيت، ثم أعيد بناؤها عشر مرات كان أولها بناء الملائكة ثم آدم ثم شيت، ثم في المرة الرابعة بناها إبراهيم الخليل مستعيناً بابنه «إسماعيل» عليهما السلام. والصحيح الذي لاريب فيه أن إبراهيم عليه السلام هو الباني للكعبة المشرفة، كأول بيت بني لعبادة الله الواحد الأحد، وهو ما أشارت إليه الآية الكريمة في سورة آل عمران : (إنّ أول بَيْتٍ وُضِعَ للنّاس لَلّذي ببَكّة مُباركاً وهُدىً للعالَمين فيه آياتٌ بيّناتٌ، مقَامُ إبْراهيم، ومَنْ دخَلَهُ كَانَ آمِناً) وورد أنّ أبَا ذرّ الغفاري سأل رسول الله ﷺ قائلا : يارسول الله ! أيّ مسجد وضع أول ؟ قال : المسجد الحرام، قال : ثم أيّ ؟ قال : المسجد الأقصى. قال : كم بينهما ؟ قال : أربعون سنة، فالكعبة أول مسجد بني لعبادة الله على وجه الأرض، بنص الكتاب والسنة، ولذلك بقيت دائماً وستبقى إن شاء الله متجه المومنين في مشارق الأرض ومغاربها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، ستبقى مثابةً للناس وأمناً، يقصدها القاصدون المومنون ليجددوا إيمانهم، ويصححوا عقيدتهم التوحيدية، وإسلامهم الحقيقي وُجُوهَهم لله العلي الأعلى، الفرد الصّمد، الذي لم يَلد ولم يولَد، ولم يكن له كُفؤًا أحد،، وليربطوا سلسلة المومنين بالله من لدن إبراهيم الخليل عليه السلام إلى خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ (مِلّةَ أبيكُم إبْراهيم، هُو

سمَّاكُم المسلمين من قبْل وفي هذا ليكُون الرسُولَ شهيداً عليكم وتكونوا شهَداء على النَّاس) (وإذْ جعلنا البيتَ مَثَابةً للناس وأمْناً، واتَّخَذُوا مِن مَقام إبراهيم مُصلّىً، وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيلَ أن طهّرا بيتِيَ للطّائفين والعَاكفين والرُّكّع السّجود، وإذ قالَ إبراهيمُ ربِّ اجعَلْ هذا بلداً آمِناً وارْزق أهْلَه من الثمراتِ مَن آمَن بِاللّه واليَوم الآخِر، قال ومَن كفَرَ فأمَتِّعُه قليلاً ثمَّ أضطرُّهُ إلى عَذابِ النَّارِ، وبيسَ المَصير، وإذْ يَرفَعُ إبراهيمُ القواعِدَ من البيْتِ وإسماعيلُ، ربَّنا تقبّلْ منا إنّكَ أنتَ السَّميع العليم، ربَّنا واجعَلْنا مُسلمَيْن لك ومن ذرّيتنا أمَّةً مُسلِمةً لك، وارِنَا مناسِكَنا، وتُبْ علينَا، إنك أنتَ التوَّابُ الرحيم، رَبّنا وابعَثْ فيهم رسُولا منهم يتلُو عَلَيْهم آياتِك ويعلمهم الكِتاب وَالحِكمة ويزكّيهم إنكَ أنتَ العزيز الحكيم) لقد بنى إبراهيم هذا البيت (الكعبة) لاخلاص العبادة لله وحده، لا شريك له، وليبقى دائماً رمزاً للتوحيد الخالص المنزّه من الشبيه والنظير، لقد بنيت الكعبة المشرفة على أساس التوحيد، ولكن تعاقب الأزمان بعد إبراهيم عليه السلام، وابتعاد الجاهليين عن حقيقة التوحيد، جعلهم يضعون داخل الكعبة الأوثان والأصنام، ويعبدونها قائلين : (ما نعبُدهم إلا ليقَرّبونا إلى اللّه زُلْفَى). وكما اتخذ بعض هؤلاءِ النجوم آلهة، اتخذ آخرون الأحجار والأصنام آلهة، فكان صنَم يسمّى (إسافاً) وكان آخر يسمّى (نائلة) وآخر أسموه (هُبَل) ومنها اللات والعزى ومناة. وتقول بعض الروايات أن عدة أصنام الكعبة بلغت في بعض الحقب التاريخية ثلاثمائة وستين صنماً، وكان بعضها منحوتاً من الحجارة، وبعضها مصنوعاً من النحاس، وكان صنم قبيلة «خزاعة» عبارة عن قوارير صغر، وبقيت هذه الأصنام داخل الكعبة حتى حطمها رسول الله ﷺ عام الفتح، حيث إنه عليه السلام لما فتحت له أبواب الكعبة، دخلها وفي يده عود صار يطعنها به ويقول : جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً. وكان أعظم هذه الأصنام، صنم قريش المسمى (هُبل) الذي حطمه رسول الله ﷺ. لقد تعرضت الكعبة المشرفة لأحداث، انهدّت بسببها أركانها، فتهدمت وأعيد ترميمها، ومن الذين رمَّمُوها من جديد قصيّ بن كلاب، أحد أجداد رسول الله ﷺ وقد سقفها بخشب الدوم الجيد، وبجريد النخل، وقبل بعثة رسول الله ﷺ بخمس سنين أو خمس عشرة سنة حسب الروايتين، شب حريق في أستار الكعبة وامتد إلى أخشابها، فأوهى بنيانها، ثم جاء سيل زاد في تصديع جدرانها،

فقرر القرشيون إعادة بنائها، ورفع بابها الذي كان في الأصل لاصقاً بالأرض، ولما عزموا على هدم جدرانها ليصححوا ويقوّموا بناءها، استصعب الكثيرون منهم ذلك، واستخوشوا منه فقال الوليد بن المغيرة : أنا أبدؤكم في هدمها، فأخذ المِعول وقام عليها وهو يقول : اللهم لم تُرَعْ اللهم لا نريد إلا الخير، وتبعه الناس، حتى انتهوا إلى أساس إبراهيم، فوجدوا حجارة خضراء كالأسنّة أو في رواية كالأسنمة، فأقاموا بناءهم الجديد عليها، وكان عليه السلام ينقل معهم الحجارة، فلقد روى البخاري عن جابر بن عبد الله قال : لما بنيت الكعبة ذهب النبي ﷺ وعباس ينقلان الحجارة، ونقرأ في السيرة النبوية أن قريشا عندما كانت تبنى جدران الكعبة، وأرادوا وضع الحجر الأسود في مكانه من الركن الذي كان فيه، اختلفت القبائل أيها تحمل الحجر لتضعه في مكانه، حتى كادوا أن يصلوا إلى الاقتتال. فمكثوا نحوا من أربعة أيام يجتمعون ويتناقشون، فقام أحد كبرائهم في السن وهو أبو أمية ابن المغيرة بن عبد الله وأشار عليهم بأن يحمل الحجر ويضعه في مكانه من الركن أوّل من يدخُل من باب المسجد، فكان الداخل الأول هو رسول الله ﷺ، فلما رأوْهُ قالوا : هذا الأمين، رضينا بمحمد، ولما أخبروه عليه السلام بما قرّ عليه رأيهم قال لهم : هلُمّ إليّ ثوباً، فلما أتَوْا بالثوب، أخذ عليه السلام الحجر بيديه الشريفتين، ثم وضعَه وسَطَ الثوب ثم قال لهم : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوه جميعاً، ففعلوا، حتى إذا بلغوا موضعه، أخذه عليه السلام بيديه ثم وضعه في مكانه الموضوع فيه لحد الآن. وفي ذلك يقول الشاعر هُبيرة بن وهب :

تشاجرت الأحياء في عضل حطّه
جرَتْ طيرُهم بالنحس من بعد أسعد

تلاقوا بها البغضاء بعد مودّة
وأوقَدَ ناراً بينهم شر موقد

فلما رأينا الأمر قد جد جده
ولم يبق شيء غير سل المهند

رضينا وقلنا العدل أوّل طالع
يجيء من البطحاء من غير موعد

فقد جاءنا هذا الأمين محمــــد
فقلنــا رضينــا بالأميــن محمــد
بخير قريش كلها أمس شيمـــة
وفي اليوم مهما يحدث الله في غد
فجاء بأمرٍ لم يرَ الناس مثلــه
أعمّ وأرضَى في العواقب واليَــــدِ
أخذّنا بأطراف الرداء وكلنــــا
له حقّه من رَفْعِه قبضة اليــــد
وقال ارفعوا حتى إذا ما علَتْ بــــه
أكُفّهم وافَى به خير مسْنَــــد
وكــلّ رضينــا فعلــه وصنيعـــه
فأعْظِمْ به من رأي هادٍ ومُهتـــد
وتلك يدٌ منه علينا عظيمـــة
نروحُ بها مدى الزمانِ ونغتَـــدِي

وبعد أن وضع رسول الله ﷺ الحجر الأسود في مكانه من الركن الذي هو فيه لحد الآن، أتموا بناء الكعبة، ورفعوا بابها من الأرض وجعلوه عالياً حتى يُدخلوا من شاءوا وَيمنَعوا من شاءوا، ونظراً لأزمة مالية كانوا يتخبَّطون فيها، اقتطعوا من مساحة الكعبة أذرعاً جعلوها في الحجر ولم يسقفوها، ثم كبسوها بالحجارة «وجعلوا في داخلها ست دعائم في صفين، في كل صف ثلاث من الشمال إلى الجنوب وجعلوا في ركنها العراقي من الداخل سلماً يصعد عليه إلى سطحها الّذي جعلوا فيه ميزاباً يصبُّ في الحجر» ويذكر بعض الأخباريين أن الكعبة قد زوقت بعد الحريق الذي أصابها، وجعلوا في دعائمها صور الأنبياء وصور الشجر وصور الملائكة وكان من جملة الصور صورة لإبراهيم الخليل عليه السلام، وان النبي ﷺ أمر بمسح تلك الصور وطمسها فطُمست، وأنه عليه السلام عندما رأى صورة إبراهيم وقد جعلوه أمام الأزلام، قال : قاتلهم الله، جعلوه يستقسم بالأزلام، ما لإبراهيم والأزلام. اما الحجر الأسود الذي كاد أن تقع بينهم الحرب لأجل وضعه في مكانه الذي هو فيه، فإنه كان مقدساً

عندهم تقديساً كبيراً أكبر من الأصنام والأوثان، وكانوا يلمسونه للتبرك به، ولسنا ندري أصل هذا الحجر ومن أين أتاه هذا التقديس في الجاهلية، ويذهب بعض المستشرقين إلى أنه حجر قديم كان مقدساً عند قدماء الجاهليين، ويحكي (ويل ديورانت) (أن الكثيرين كانوا يعتقدون أنه حجر نزل من السماء، ولعله كان صاعقة) ويتراءى لنا ـــ والله أعلم ـــ أن ذلك الحجر وضع في الركن من أجل بداية الطواف، كعلامة على المكان الذي يبتدئ منه الطائفون طوافهم، ومن المعتقد أنه حجر لا يضر ولا ينفع كما عبّر عن ذلك أمير المومنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حيث قال وَهو واقف أمامه : والله إني أعلم أنك حجر لا تضرُّ ولا تنفع،ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبّلتك، وان كان بعض العلماء يقولون إنه سيشهد للطائفين يوم القيامة، لقد بقي بناء الكعبة كما هو طوال عهد النبوة وفي عهد الخلفاء الراشدين، وفي عهد يزيد بن معاوية وقع وهن فيها بسبب ضربها بالمنجنيق لدى محاصرة يزيد لعبد الله بن الزبير في أوائل سنة 64 هجرية، فلقد شب فيها حريق انتقل إليها من خيمة احترقت، فطارت الرياح بلهب تلك النار إلى الكعبة، فأحرقت كسوتها وما فيها من خشب الساج، وصارت حجارتها تتناثر، وبعد فك الحصار على ابن الزبير، رأى أن يهدمها ويعيد بناءها من جديد، فهدمها رغم اعتراض بعض الصحابة على ذلك ومنهم عبد الله بن عباس، واختار الذين يهدمونها ناساً من الحبشة (رجاء أن يكون فيهم الحبشي الذي أخبر النبي ﷺ أنه يهدمها. فلقد روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ : يخرِّب الكعبة ذو السيوقتين من الحبشة) وبعد تهديمها كلها حتى بلغت الأرض، بناها على قواعد إبراهيم وأدخل فيها ما أخرجته قريش منها في الحجر، وجعل لها بابين لاصقين في الأرض، أحدهما الموجود اليوم، وآخر مقابل له، أي واحد للدخول وآخر للخروج، ولما أتمها، طلاها بالطيب ظاهراً وباطناً، وكان يطيبها كل يوم برطل من العود وبقيت الكعبة على حالتها المذكورة إلى عهد الحجاج بن يوسف حيث أنه كتب إلى عبد الملك بن مروان يُخبِرهُ أن ابن الزبير زاد في الكعبة ما لم يكن فيها ـــ أي الحجر ـــ وأحدث باباً آخر، واستأذنه في ردها إلى ما كانت عليه، فأذن له في ذلك وكان ذلك سنة 74 للهجرة أي بعد عشر سنوات من بناء ابن الزبير. ثم إن عبد الملك بن مروان ندم على إذنه للحجاج في تهديم ما بناه ابن الزبير،

خصوصاً لما علم أن عائشة رضي الله عنها كانت حدثت عن رسول الله ﷺ انه قال لها : (لولّا أنّ قومكِ حديثو عهد بالجاهلية، لهدمت الكعبة، وألزقتها بالأرض، وجعلت لها باباً شرقياً وباباً غربيا، ولزدت ستة أذرع من الحِجر (بكسر الحاء) في البيت، فإن قريشاً استقصرت ذلك لمَّا بنت البيت) ويذكر المؤرخون أن سليمان بن عبد الملك أراد أن يرجع البناء إلى ما فعله ابن الزبير، ولكن الامام مالكا رضي الله عنه قال له : (نشدتك الله أن لا تجعل بيت الله ملعبة للملوك، لا يشاء أحد منهم أن يغيره إلّا غيَّرَهُ، فتذهب هَيْبته من قلوب الناس) وقد اهتم الملوك والمسؤولون بعد ذلك بإدخال بعض الاصلاحات على أرضها دون هدمها وتفريشها بالرخام المتعدد الألوان، كما اهتموا بإكسائها وطرز أكسيتها بخيوط الذهب والفضة، ورتق ما كان يتصدّع من جدرانها وترميمه بالجص الأبيض، وفي عهد السلطان مُراد خان الرابع هطلت أمطار غزيرة في مكة، فامتلأ البيت الحرام بالماء، وعلت المياه عن قفل باب الكعبة بذراعين، وكان ذلك سبباً في انهدام الكثير من جدرانها، فاهتم السلطان مراد بالأمر وأرسل مندوبين من الاستانة ومهندسين من مصر، فأقاموا بناءها وأصلحوا ما أفسدته المياه، وبقيت الكعبة كما كانت عليه إلى الآن مع الاصلاحات التي كانت تتطلبها الضرورات في بعض الأحيان. لقد أتيح لنا والحمد لله أن ننعم بالدخول إلى للكعبة عدة مرات ونُصلّي فيها ركعتين كما فعل رسول الله ﷺ (ففي صحيح مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قدم رسول الله ﷺ يوم الفَتح، فنزل بفناء الكعبة، وبعث إلى عثمان بن طلحة فجاء بالمفتاح، ففتح له الباب، فدخل رسول الله ﷺ البيت، وعثمان بن طلحة وأسامة، وبلال، فلما خرجوا ابتدر بهم الناس، فقلت لبلال : أصلى رسول الله ﷺ في البيت ؟ قال نعم، قلت أين ؟ قال : بين العمودين المقدمين تلقاء وجهه. وفي رواية للشيخين عن ابن عمر : فسألت بلالا حين خرج، ماذا صنع رسول الله ﷺ قال : جعل عموداً عن يمينه، وعموداً عن يساره، وثلاثة أعمدة وراءه، وكان البيت يومئذ ستة أعمدة، ثم صلّى) والصلاة داخل الكعبة، وقع الخلاف في صحتها وبالأخص صلاة الفريضة ومذهب الامام مالك والامام أحمد صحة صلاة النفل فيها، أما الفرض فالمشهور عدم الصحة، ويصلى الانسان داخل الكعبة لأيّ جهة شاء. ونختم هذه

السلسلة من الفصول بالدعاء الذي دعا به سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام عندما بني الكعبة (ربّنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذرّيتنا أمة مُسْلمة لك) آمين. والحمد لله رب العالمين.



صورة للحرم الشريف في مكة المكرمة من الجو

المراجع :

- كتب السيرة،
- المفصل في تاريخ العرب،
- مرآة الحرمين،
- كتب الحديث والتفسير،
- قصة الحضارة،
- حياة محمد لهيكل،
- رحلة البتنوني،
- وغيرها.

كتـب صـدرت للمؤلـف

① تراجم وأحاديث عن شخصيات :

1) محمد حصار :

حياته ونشاطه وإنتاجه وما قيل فيه.

2) سعيد حجي :

حياته ونشاطه الثقافي والسياسي وبعض إنتاجه (جزءان).

3) رجال عرفتهم :

جزء أول، زعماء وعلماء ومفكرون.

4) رجال عرفتهم :

جزء ثانٍ، العلامة المفتي الشيخ أحمد الجريري.

5) رجال عرفتهم :

جزء ثالث : الحاج عمر بن عبد الجليل.

6) رجال عرفتهم :

جزء رابع : زعماء وعلماء ومفكرون.

② رحـــلات :

1) مشاهدات في الولايات المتحدة الأميريكية.

2) ستة أيام في اليابان.

3) مذكرات أفريقية وأسيوية.

4) رحلاتي الحجازية.

(3) حول المجتمع الاسلامي :

1) في سبيل بعث إسلامي.
2) في سبيل وعي إسلامي.
3) في سبيل مجتمع إسلامي.
4) في سبيل وحدة إسلامية.
5) أحاديث إسلامية في شهر القرآن.

(4) قضايا التعليم :

1) التعليم الأولي في الاسلام.
2) قصة النهضة.

(5) مشاكل اجتماعية :

1) الخمر آفة خطيرة على المجتمع.
2) دفاعاً عن المرأة المسلمة.

(6) في التشريع الاسلامي :

1) السنة، المصدر الثاني للتشريع.
2) مبادئ وأصول في التشريع الاسلامي.

(7) حول الرسالة الاسلامية :

1) رسالة الرسول محمد ﷺ رسالة عامة خالدة.

(8) حول القضية الفلسطينية :

1) المغرب والقضية الفلسطينية.

(9) حول الحركة الوطنية المغربية :

1) مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية (صدر الجزء الأول، والثاني قيد الإعداد).

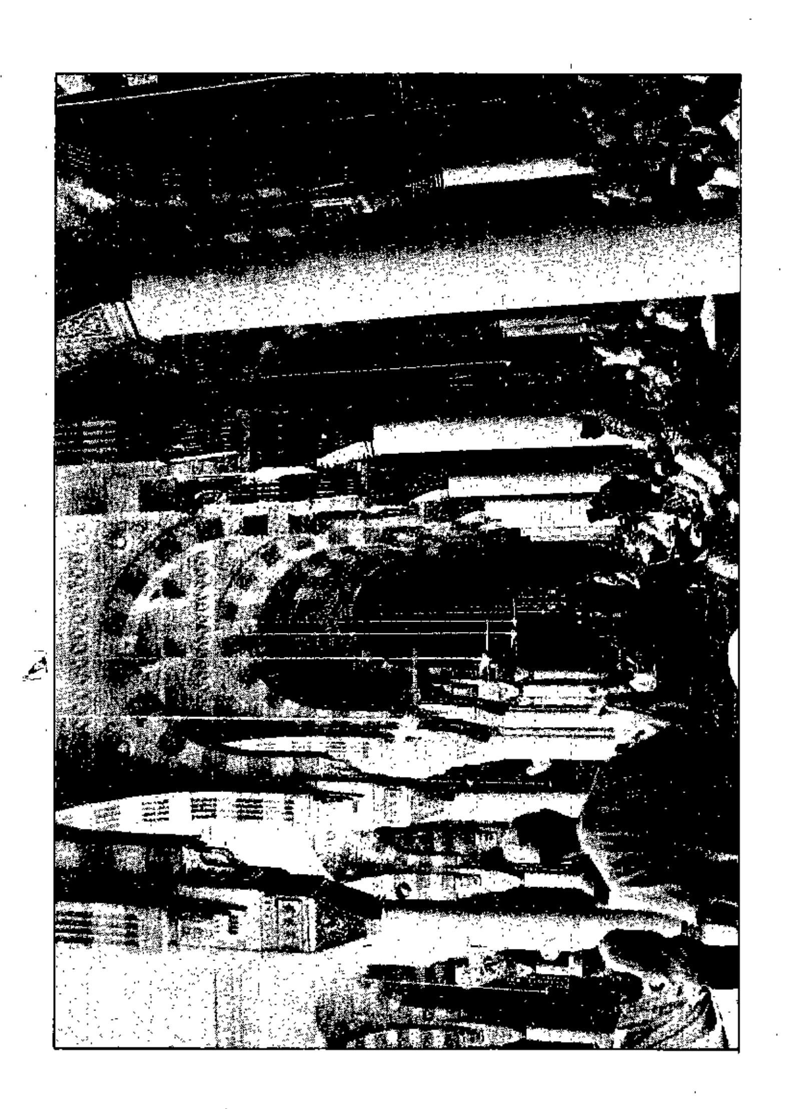
(10) أعلام المغرب الحديث :

1) محمد الخامس :

ملامح من حياته، وصوره من جهاده.

2) القائد عبد الله بنسعيد :

رائد من أعلام المغرب الحديث.



الفهـــرس